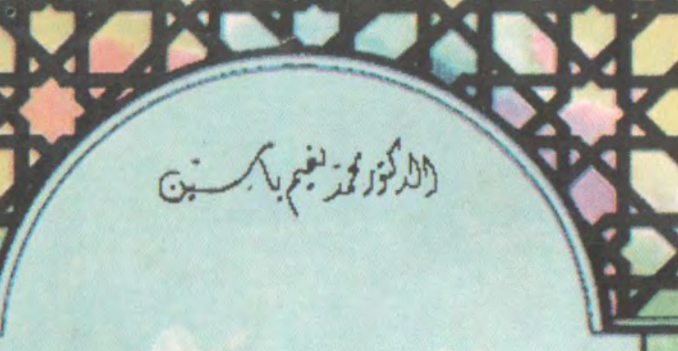


الدكتور محمد نعيم ياسين

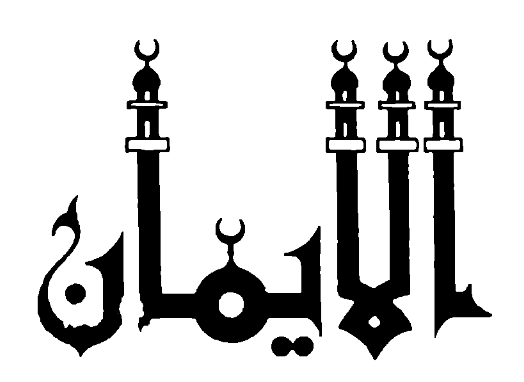
الإيمان

أركانه . حقيقته . نواقضه

دار الفرقان للنشر والتوزيع


منتدى إقرأ الثقافي
للكتب (كوردى - عربي - فارسي)
www.iqra.ahlamontada.com

الدكتور محمد نعيم ياسين



أركانه . حقيقته . نواقضه

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

دار الفرقان للنشر والتوزيع

عمان : العبدلي - قرب الفريات الخارجية
ص.ب : ٩٢٥٢٦
تلفون : ٦٤٠٩٣٧-٦٤٥٩٣٧ - ٦٢٨٣٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحـــة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . ونشهد أن لا إله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، وسلم تسليما كثيرا .

أمـا بعـد :

فإن أصل الفسـاد مخالفة الحق ، وتنكب طريقه ، وصلاح الأمر كله فى اتباع الحق والتزام طريقه . والحق هو الوضع الثابت الذى خلق الله عليه مخلوقاته ، أو أرادها أن تكون عليه ، ذلك أنه ليس من مخلوق فى الدنيا إلا وخلقه الله وحده ، لم يشاركه أحد فى خلقه ، وليس من مخلوق فى الدنيا إلا وجعله الله سبحانه وتعالى على وضع معين ، ودبر أمره بكيفية معينة . والله سبحانه وتعالى كامل منزه عن الخطأ : فالصلاح كله فى خلقه وتدبيره . وكل شىء ينحرف عن الوضع الإلهى والتدبير الربانى يفسد : فهذه السماوات والأرض خلقهما الله بالحق ، ودبر أمرهما بحكمته ، فصلحتا بخلقه وتدبيره سبحانه : ﴿ لوكان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[1]

والإنسـان مخلوق من مخلوقات الله عز وجل ، وصلاح حياته مرهون بمعرفة الحق واتباعه . وفسـادها نتيجة محتومة لجهله بالحق ، أو تمرده عليه وإن عرفه . ولما كان الله سبحانه هو الحق ، ومنه الحق ، وأمره وتدبيره هو الحق ، فان سبب فساد الحياة البشرية كلها هو الكفر بالخالق ، والكفر

---

(١) الأنبياء ، الآية ٢٢

بأمره وتدبيره ، وبما أنزل من الحق . وسبب صلاح هذه الحياة كلها هو الإيمان بالله عز وجل ، وبما نزل منه ، والالتزام بإرادته وأمره فى أوضاع الإنسان كلها . ولذلك قال عز من قائل : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾(٢) .

ولا يتبع هداه إلا من آمن به ، وذكره ، واستشعر وجوده ، وصفاته ، وعظمته سبحانه ومن نسى ذكر الله أعرض عن هداه . والإنسان ممتحن فى هذه الدنيا بهذين الأمرين : ذكر الله واتباع هداه ، أو نسيانه والضلال ، فهو على مفرق طريقين لا ثالث لهما : طريق الإيمان والهدى والسعادة فى الدنيا والآخرة ، وطريق الكفر والضلال والشقاء فى الدارين .

لذا كان أشرف ما يتعلمه الإنسان ، ويعلمه لغيره أمور الإيمان وأركانه ومقتضياته وأحوط ما يحتاط و يتسلح به معرفة معالم الكفر ، وأسبابه ، ومقتضياته . فإن كان على بصيرة من هذين الأمرين الخطيرين ، عرف الإنسان طريق سعادته ، فالتزمه ، ولم يحد عنه ، وطريق شقائه ، فاجتنبه .

وفى هذا الكتاب نرجو أن نوضح ـ بما يَمُنُّ الله علينا من العلم ، ويفتح علينا من الحق ـ أمور الإيمان وأركانه ، ومعالم الكفر ، وأسبابه ، ومداخله . والله سبحانه وتعالى هو الموفق للصواب : فما أصبنا فيه الحق فهو الحق من الحق ، جل وعلا ، وما أخطأنا فهو من أنفسنا ومن الشيطان ، ونتضرع الى الله أن يغفره لنا ، ويسخّر من عباده الصالحين من يصوبه ويبين الحق فيه .

هذا ونجعل الكتاب فى قسمين اثنين :

الاول : ونتناول فيه أركان الإيمان ، وحقيقته .

الثانى : ونتناول فيه أسباب الكفر ومداخله .

* * *

---

(٢) طه ـ الآيتان ١٢٣ . ١٢٤ .

القسم الأول

فى

أركان الإيمان

قال الله عز وجل ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ البقرة — ٢٨٥

وقال سبحانه و تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزَّل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾ ، النساء — ١٣٦

وقال أيضا ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾ ، البقرة — من الآية ١٧٧

وفى حديث جبريل المشهور ، حين جاء الى النبى ﷺ فى صورة أعرابى يسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، قال ﷺ عن الإيمان : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[1]

فهذه الامور الستة هى أركان الإيمان ، وهى الأصول التى بعث بها الرسل

(١) رواه الامام مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه — انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١ ص ١٥٧ ، وأخرج البخاري نحوه عن ابي هريرة رضي الله عنه — انظر البخاري مع فتح الباري جـ ١ ص ٩٦ ، ٩٧

عليهم صلوات الله وسلامه ، ونزلت بها الكتب ، ولا يتم إيمان أحد إلا إذا آمن بها جميعاً ، على الوجه الذى دل عليه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومن جحد شيئا منها خرج عن دائرة الإيمان وصار من الكافرين .

الإيمان بالله عز وجل

والإيمان بالله عز وجل معناه الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه . وأنه الذى يستحق وحده أن يفرد بالعبادة : من صلاة وصوم ودعاء ورجاء وخوف وذل وخضوع . وانه المتصف بصفات الكمال كلها ، المنزه عن كل نقص .

فالإيمان بالله سبحانه يتضمن توحيده في ثلاثة : في ربوبيته ، وفي ألوهيته ، وفي أسمائه وصفاته . ومعنى توحيده في هذه الامور اعتقاد تفرده سبحانه بالربوبية والألوهية وصفات الكمال وأسماء الجلال : فلا يكون العبد مؤمنا بالله حتى يعتقد أن الله رب كل شيء ولا رب غيره ، وإله كل شيء ولا إله غيره ، وأنه الكامل في صفاته وأسمائه ، ولا كامل غيره .

فهذه ثلاثة أنواع من التوحيد تدخل في معنى الإيمان بالله عز وجل(١) ، وفيما يلي تفصيل الكلام في كل نوع منها :

النوع الأول : توحيد الربوبية :

ومعناه الإجمالي الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ، ولا رب غيره .

وبيانه : أن الرب في اللغة هو المالك المدبر(٢) . وربوبية الله على خلقه تعني تفرده سبحانه في خلقهم وملكهم وتدبير شؤونهم . فتوحيد الله في الربوبية هو الإقرار بأنه سبحانه هو خالق الخلق ، ومالكهم ، ومحييهم ومميتهم ،

---

(١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٦ ، وتيسير العزيز الحميد ص ١٧ ، والروضة الندية ص ٩ نقلا عن مدارج السالكين . وقد أعاد بعض العلماء هذه الانواع الثلاثة للتوحيد الى نوعين : نوع في العلم والاعتقاد ويدخل فيه توحيد الله في الربوبية وتوحيده في الأسماء والصفات ، ونوع في الإرادة والقصد ، وهو توحيد الله في ألوهيته سبحانه ــ انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٨٨ ، وفتح المجيد ص ١٥ ، وشرح قصيدة ابن القيم جـ ٢ ص٢٥٩ ، وتطهير الاعتقاد ص ٣

(٢) انظر المصباح المنير .

ونافعهم وضارهم ومجيب دعائهم عند الاضطرار ، والقادر عليهم ، ومعطيهم ومانعهم ، وله الخلق ، وله الأمر كله ، كما قال سبحانه عن نفسه : **﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾**(٣) .

ويدخل في هذا التوحيد الإيمان بقدر الله سبحانه : أي الايمان بأن كل محدث صادر عن علم الله عز وجل وإرادته وقدرته(٤) .

وبعبارة أخرى فإن هذا التوحيد معناه الإقرار بأن الله عز وجل هو الفاعل المطلق في الكون : بالخلق ، والتدبير ، والتغيير ، والتسيير ، والزيادة ، والنقص ، والإحياء والإماتة ، وغير ذلك من الأفعال ، لا يشاركه أحد في فعله سبحانه .

وقد أفصح القرآن عن هذا النوع من التوحيد جد الإفصاح ، ولا تكاد سورة من سوره تخلو من ذكره أو الإشارة إليه ، فهو كالأساس بالنسبة لأنواع التوحيذ الأخرى ، لأن الخالق المالك المدبر هو الجدير وحده ، بالتوجه إليه بالعبادة والخشوع والخضوع ، وهو المستحق وحده ، للحمد والشكر ، والذكر ، والدعاء ، والرجاء ، والخوف ، وغيره ذلك . والعبادة كلها لايصح أن تكون إلا لمن له الخلق والأمر كله(٥) .

ومن جهة أخرى فإن الخالق المالك المدبر هو الجدير وحده بصفات الجلال والجمال والكمال ، لأن هذه الصفات لا تكون إلا لرب العالمين ، إذ يستحيل ثبوت الربوبية والملك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أقواله وأفعاله(٦) .

ولهذا فإنا نجد أن القران الكريم قد ذكر هذا النوع من التوحيد في مقام الحمد لله ، وعبادته ، والانقياد له والاستسلام . وفي مقام بيان صفاته الجليلة وأسمائه الحسنى :

---

(٣) الاعراف ، اية رقم ٥٤ .

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٦ ، ٧٧ ، تيسير العزيز الحميد ص١٧ ، ١٨ .

(٥) انظر تفسير الطبري ج ٥ ص٣٩٥ . شرح ملا علي القاري على الفقه الاكبر ص٩ .

(٦) فتح المجيد ص١٣ ، الاسئلة والاجوبة ص ٢٩ ، ٣٠ .

ففى مقام الحمد يتلو المسلم في كل ركعة يصليها ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾(٧) ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ﴾(٨) .

وفي مقام الاستسلام لله والانقياد له قال عز وجل : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾(٩) .

وفي مقام التوجه لله عز وجل وإخلاص القصد إليه قال عز وجل : ﴿ قل إن صلاتى ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ﴾(١٠) .

وفي مقام تولي الله عز وجل دون غيره قال سبحانه : ﴿ قل أغير الله أتخذ وليا ، فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين ﴾(١١) .

وفي مقام الدعاء قال عز وجل : ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ﴾(١٢) .

وفي مقام عبادة الله عز وجل قال سبحانه : ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون ﴾(١٣) ، وقال أيضا : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾(١٤) .

فإن خالق السموات والأرض وما فيهن هو وحده الذي يستحق أن يتخذه العبد إلها ووليا ، ويسلم نفسه إليه ، ويدعوه ، ويتوجه إليه .

---

(٧) الفاتحة — اية ٢ .
(٨) الجاثية — اية ٣٦ .
(٩) الأنعام — اية ٧١ .
(١٠) الأنعام — اية ١٦٢ .
(١١) الأنعام — اية ١٤ .
(١٢) الأعراف — الآيتان ٥٤، ٥٥ .
(١٣) يس — اية ٢٢ .
(١٤) البقرة — الآيتان ٢١، ٢٢ .

ومن جهة أخرى فإنا نجد القرآن الكريم يجمع بين ربوبية الله عز وجل المتمثلة في ملكه للسموات والأرض وما فيهما ، وقيوميته عليهما ، وبين أسمائه الحسنى وصفاته العلى : فتدبر قوله تعالى في آية الكرسي : ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما ، وهو العلي العظيم** ﴾(١٥) ، فان الذي خلق السموات والأرض هو وحده الحي الذي لا يموت ، القيوم ، العليم ، الحفيظ ، العلي ، العظيم ، ثم انظر إلى قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾(١٦) ، وقوله تعالى ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾(١٧) ، فإنه لا جدال أبدا في أن الذي خلق الخلق هو الرقيب عليهم ، اللطيف الخبير بما يعملون .

وأما الذين يقرون بأن الله رب كل شيء ، ولا يوحدونه في ألوهيته فيشركون معه غيره في عبادته ، ولا يوحدونه في أسمائه وصفاته ، فيعطلونها أو يشبهونها بصفات المخلوق ، أو يؤولونها تأويلات فاسدة لا وجه لها ، فإن هذا التوحيد لاينفعهم . ولا يخرجهم من دائرة الكفر إلى دائرة الإيمان ، فقد حكى الله سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم كانو مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء ، وظلوا مع ذلك مشركين(١٨) ، لأنهم لم يوحدوا الله في ألوهيته ، فعبدوا غيره سبحانه ، ولأنهم لم يوحدوا الله في أسمائه وصفاته ، فجحدوا بعضها ، ولم يؤمنوا بها ، ولذلك قال عنهم الله عز وجل : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾(١٩) : فقد قال مجاهد في هذه الآية

---

(١٥) البقرة — آية ٢٥٥

(١٦) ق — آية ١٦ .

(١٧) الملك — آية ١٤ .

(١٨) شرح العقيدة الطحاوية ص [illegible] [illegible] تطهير الاعتقاد ص [illegible] .

(١٩) يوسف — الآية [illegible]

(إيمانهم بالله قولهم إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا ، فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيره)(٢٠) .

وقالت طائفة من السلف : (تسألهم : من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله ، وهم مع هذا يعبدون غيره)(٢١) . وقد أخبر سبحانه عن المشركين أنهم كانوا يؤمنون بأن الله هو الخالق الرازق المالك ، فقال عز من قائل : ﴿ **ولئن سألتهم : من خلقهم ؟ ليقولن الله فأنّى يُؤفكون** ﴾(٢٢) ، وقال أيضا : ﴿ **قل :من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله ، فقل : أفلا تتقون** ﴾(٢٣) .

وهكذا فإنه ليس كل من أقر بأن الله تعالى رب كل شيء يكون موحدا له في ألوهيته وصفاته وأسمائه(٢٤) . وأكثر العباد لا ينكرون الخالق ، وربوبيته على الخلق ، ولكن معظم كفرهم من عبادتهم غير الله عز وجل(٢٥) .

النوع الثاني : توحيد الألوهية :

ومعناه بعبارة إجمالية الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه هو الإله الحق ، ولا إله غيره وإفراده سبحانه بالعبادة ، وبيانه : أن الإله هو المألوه(٢٦) ، أي المعبود ، والعبادة في اللغة هي الانقياد والتذلل والخضوع(٢٧) ، وقد عرفها بعض العلماء بأنها كمال الحب مع كمال الخضوع(٢٨) .

---

(٢٠) انظر تفسير الطبري ، جـ ١٦ ص٢٨٧ .

(٢١) ذكره ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد ابن اسلم ـ أنظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص٤٩٤ ، وتفسير الطبري جـ ١٦ ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨ .

(٢٢) الزخرف ـ آية ٨٧ .

(٢٣) يونس ـ اية ٣١ .

(٢٤) فتح المجيد ص ١٧ ، شرح ملا على القاري على الفقه الأكبر ص٩ .

(٢٥) احياء علوم الدين جـ ص ١٨٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٨.

(٢٦) فهو على وزن فعال بمعنى مفعول . مثل كتاب بمعنى مكتوب ـ المصباح المنير ، وانظر بعض طريق الوصول إلى العلم المأمول ص ١٢ .

(٢٧) تقول : طريق معبد : أي مذلل ـ انظر أساس البلاغة للزمخشري ، ومصباح المنير ، وتطهير الاعتقاد ص٦ .

(٢٨) شرح قصيدة ابن القيم جـ ٢ ص ٢٥٩ ، إغاثة اللهفان جـ٢ ص ١٢٨ ، ١٢٩

فتوحيد الألوهية مبني على إخلاص العبادة لله وحده ، في باطنها وظاهرها ، بحيث لا يكون شي منها لغيره سبحانه : فالمؤمن بالله يعبد الله وحده ولا يعبد غيره ، فيخلص لله المحبة والخوف والرجاء والدعاء والتوكل والطاعة والتذلل والخضوع ، وجميع أنواع العبادة وأشكالها .

وهذا النوع من التوحيد يتضمن في حقيقته جميع أنواع التوحيد الأخرى : فيتضمن توحيد الله في ربوبيته ،وتوحيده في أسمائه وصفاته ، وليس العكس ، فان توحيد العبد لله في ربوبيته لا يعني أنه يوحدهفي ألوهيته[٢٩] ، فقد يقر بالربوبية ، ولا يعبد الله عز وجل . وكذلك توحيد الله في أسمائه وصفاته لا يتضمن أنواع التوحيد الأخرى . ولكن العبد الذي يوحد الله في ألوهيته على الخلق ، فيقر أنه سبحانه هو ، وحده ، المستحق للعبادة ، وأن غيره لا يستحقها ولا يستحق شيئا منها ، يقر في الواقع بأن الله رب العالمين ، وبأن له الأسماء الحسنى ، والصفات الكاملة ، لأن إخلاص العبادة لايكون لغير الرب ولايكون لمن فيه نقص[٣٠] ، إذ كيف يعبد من لم يخلق ولم يدبر أمر الخلق ، وكيف يعبد من كان ناقصا ؟ .

ومن هنا كانت شهادة أن (لا إله إلا الله) متضمنة لجميع أنواع التوحيد : فمعناها المباشر توحيد الله في ألوهيته ، الذي يتضمن توحيد الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته .

من أجل ذلك كان هذا التوحيد أول الدين وآخره ، وباطنه وظاهره ، ومن أجله خلقت الخليقة ، كما قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[٣١] .

---

(٢٩) هذا مع ملاحظة أن وحدانية الله في ربوبيته على الخلق دليل قاطع على أنه سبحانه هو وحده الذي يستحق العبادة ، كما تقدم عند الكلام عن توحيد الربوبية ولكن كثيرا من الناس لا يأخذون بمقتضى الدليل عنادا وكفرا . فيقرون بالربوبية ولايقرون بما تدل عليه من وحدانية الله في الألوهية .

(٣٠) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٩ وما بعدها .

(٣١) الذاريات ــ آية ٥٦ .

يقول ابن تيمية : (وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين ، وعليه يقع الجزاء والثواب في الأولى والآخرة ، فمن لم يأت به كان من المشركين)[٣٢] .

ومن أجله أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، فما من رسول أرسله الله إلى العباد إلا وكان هذا التوحيد أساس دعوته وجوهرها ، ، قال عز وجل : **﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾**[٣٣] . وقال سبحانه : **﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾**[٣٤] . وأخبر عز وجل عن رسله نوح وهود وصالح وشعيب أنهم كانوا جميعا يقولون لأقوامهم هذه الكلمة : **﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾**[٣٥] ، كما أخبر سبحانه وتعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لقومه : **﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾الأنعام ــ آية ٧٩** .

ولما كان هذا التوحيد هو حقيقة دين الإسلام فقد كانت الشهادتان أول ركن من أركان هذا الدين ، قال رسول الله ﷺ : (بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت)[٣٦] .

هذا ويستلزم توحيد الله في ألوهيته أن نتوجه إليه ، وحده ، بجميع أنواع العبادة وأشكالها ، ونخلص قلوبنا فيها من أية وجهة أخرى ، وهذه عبارة تدخل فيها أمور كثيرة ، نذكر منها :

١ ــ وجوب إخلاص المحبة لله عز وجل ، فلا يتخذ العبد ندا لله في الحب ، يحبه كما يحب الله ، أو يقدمه في المحبة على حب الله عز وجل ، فمن فعل ذلك كان من المشركين ، قال عز وجل : **﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾**[٣٧] .

---

(٣٢) رسالة الحسنة والسيئة لابن تيمية ضمن مجموعة رسائل ص ٢٦١ .

(٣٣) النحل ــ من الاية ٣٦ .

(٣٤) الانبياء ــ الآية ٢٥ .

(٣٥) المؤمنون ــ الآية ٢٣ ، هود ــ الآية ٦١ ، الاعراف ــ الآية ٦٥ .

(٣٦) رواه البخاري ومسلم ــ انظر : زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم ج ١ ص ١٣٩ .

(٣٧) البقرة ــ الآية ١٦٥ .

فمن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه : أن يتخذ العبد من دون الله ندا يحبه كما يحب الله عز وجل[٣٨] ، وإذا كان الإنسان مفطورا على حب الذات والآباء والأبناء والأوطان والأموال ، فان إخلاص العبودية لله لا تعني القضاء على هذه الفطرة ، وإنما المطلوب من المؤمن أن يكون حب كل شيء فى الدنيا عنده بعد حب الله عز وجل ، وحب الله سبحانه عنده فوق كل حب ، حتى يضحي بكل هذه القيم في سبيل الله إذا وقع تعارض بينها وبين ما يقتضيه حبه لربه ، وقد توعد الله عز وجل من يقدمون هذه القيم الدنيوية على حب الله وحب رسوله ﷺ ، فقال سبحانه : ﴿ **قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾[٣٩] .

٢ ــ وجوب إفراد الله تعالى في الدعاء والتوكل والرجاء فيما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه قال عز وجل : ﴿ **ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين** ﴾[٤٠] . وقال تعالى : ﴿ **وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾[٤١] ، وقال تعالى ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم** ﴾[٤٢] .

٣ ــ وجوب إفراد الله عز وجل بالخوف منه ، فمن اعتقد أن بعض المخلوقات تضره بمشيئتها وقدرتها[٤٣] ، فخاف منها فقد أشرك بالله ، لقوله

---

(٣٨) شرح قصيدة ابن القيم جـ ٢ ص ٢٦٨ .

(٣٩) التوبة ــ الآية ٢٤ .

(٤٠) يونس ــ الآية ١٠٦

(٤١) المائدة ــ الآية ٢٣ .

(٤٢) البقرة ــ الآية ٢١٨ .

(٤٣) هذا القيد للتمييز بين خوف العبادة والخوف الفطري : فالاول لا يصح الا لله عز وجل . ومعناه أن يعتقد الانسان أن القادر على الضرر بمشيئته وقدرته هو الله ، وغيره لا يضر ولا ينفع الا ان يجعله الله سببا للضرر والنفع ، ومن علامات خوف العبادة أنه يقع في القلب كلما ذكر المخوف منه . وأما الخوف الفطري كخوف الحيوان المفترس أو الخوف عند اشهار السلاح ونحوه . فلا يحدث في القلب الا عند مباشرة المكروه ، وهذا لا يضر بالتوحيد لانه من فطرة الانسان التي فطره الله عليها .

تعالى ﴿ **فإياي فارهبون** ﴾[44] ، ولقوله أيضا : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم** ﴾[45] .

٤ ــ وجوب إفراد الله سبحانه بجميع أنواع العبادات البدنية من صلاة وركوع وسجود وصوم وذبح وطواف ، وجميع العبادات القولية من نذر واستغفار وغير ذلك .

فهذه العبادات وغيرها يجب أن تكون لله تعالى وحده ، ومن صرف شيئا منها لغير الله فقد أشرك ، وقد قال تعالى : ﴿ **إن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً** ﴾[46] .

النوع الثالث : توحيد الأسماء والصفات :

ومعناه بعبارة إجمالية الاعتقاد الجازم بأن الله عز وجل متصف بجميع صفات الكمال ، ومنزه عن جميع صفات النقص ، وأنه متفرد عن جميع الكائنات ، وذلك بإثبات ما أثبته سبحانه لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات الواردة في الكتاب والسنة من غير تحريف ألفاظها أو معانيها ، ولا تعطيلها بنفيها أو نفي بعضها عن الله عز وجل ، ولا تكييفها بتحديد كنهها وإثبات كيفية معينة لها ، ولا تشبيهها بصفات المخلوقين .

وواضح من هذا التعريف أن توحيد الأسماء والصفات يقوم على ثلاثة أسس ، من حاد عنها لم يكن موحدا ربه في أسمائه وصفاته[47] :

الاول : تنزيه الله جل وعلا عن مشابهة الخلق ، وعن أي نقص .

الثاني : الإيمان بالأسماء والصفات الثابتة في الكتاب والسنة ، دون تجاوزها بالنقص منها أو الزيادة عليها أو تحريفها أو تعطيلها .

الثالث : قطع الطمع عن إدراك كيفية هذه الصفات .

---

(٤٤) النحل ــ الآية ٥١ .

(٤٥) يونس ــ الآية ١٠٧ .

(٤٦) النساء الآية ٤٨ .

(٤٧) انظر : منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشيخ محمد الأمين الشنقيطي : ص ٣ ، ٢٥ .

فأما الأساس الأول فهو تنزيه الله عز وجل عن أن يشبه شيء من صفاته شيئا من صفات المخلوقين . وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[٤٨] ، وقوله تعالى : ﴿ **ولم يكن له كفوا أحد** ﴾[٤٩] ، وقوله تعالى : ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال** ﴾[٥٠]

يقول القرطبي عند تفسير قوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ : والذي يعتقد في هذا الباب أن الله جل اسمه في عظمته وكبريائه وملكوته وحسنى أسمائه وعَليّ صفاته لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ، ولا يشبه به ، وما أطلقه الشرع على الخالق والمخلوق فلا تشابه بينهما في المعنى الحقيقي ، اذ صفات القديم جل وعز بخلاف صفات المخلوق[٥١] ، وقال الواسطي رحمه الله : (ليس كذاته ، ولا كاسمه اسم ، ولا كفعله فعل ، ولا كصفته صفة إلا من جهة موافقة اللفظ ، وجلت الذات القديمة أن يكون لها صفة حديثة ، وكما استحال أن يكون للذات المحدثة صفة قديمة . وهذا كله مذهب أهل الحق والسنة والجماعة)[٥٢] .

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند تفسير الآية المذكورة : (والفطرة تؤمن بهذا بداهة ، فخالق الأشياء لا تماثله هذه الأشياء التي هي من خلقه)[٥٣] .

ويدخل في هذا الأساس تنزيه سبحانه عن كل ما يناقض ما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ : فتوحيد الله في صفاته يقتضي المسلم أن ينزه ربه عن الزوجة والشريك والكفؤ والظهير والشفيع (بدون إذن الله) ، والولي من الذل . ويقتضيه أن ينزه الله عن النوم والإعياء والتعب والموت والجهل والظلم والغفلة والنسيان والنعاس والتحيز وغير ذلك من صفات النقص .

---

(٤٨) الشورى ــ الآية ١١ .
(٤٩) الاخلاص ــ الآية ٤ .
(٥٠) النحل ــ الآية ٧٤ .
(٥١) تفسير القرطبي جـ ١٦ ص ٨ (مطبعة دار الكتب المصرية) .
(٥٢) تفسير القرطبي جـ ١٦ ص ٩ (مطبعة دار الكتب المصرية) .
(٥٣) في ظلال القرآن الكريم جـ ٧ ص ٢٧٢ .

وأما الأساس الثاني فيقتضي وجوب الاقتصار فيما يثبت لله من الأسماء والصفات على ما ورد منها في القرآن الكريم أو في السنة الثابتة ، فهي تتلقى من طريق السمع ، لا بالآراء ، فلا يوصف الله عز وجل إلا بما وصف به نفسه ، أو وصفه به رسوله ﷺ ، ولا يسمي إلا بما سمي به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ . لأن الله عز وجل أعلم بنفسه وصفاته وأسمائه ، قال تعالى : ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾[٥٤] .

فإذا كان أعلم بنفسه ، وكانت رسله صادقين مصدقين ، لا يخبرون إلا بما أوحي إليهم من ربهم ، فإذاً يجب الرجوع فى باب الأسماء والصفات نفياً وإثباتاً إلى ما أخبر به الله عز وجل وأخبر به رسوله ﷺ . قال الإمام احمد بن حنبل ، رحمه الله تعالى : (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ، لا يتجاوز القرآن والحديث) .

وقال نعيم بن حماد شيخ البخاري : (من شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه ولا تمثيل)[٥٦] .

ويقتضي هذا الأساس كل عبد مكلف أن يؤمن بما ورد من الصفات والأسماء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ويجريها على معانيها الواضحة الظاهرة في لغة العرب ، ولا يعطلها ، أي يجحدها أو ينفي بعضها عن الله عز وجل ، ولا يحرفها عن معانيها الظاهرة .

وأما الأساس الثالث فيقتضي من العبد المكلف أن يؤمن بتلك الصفات والأسماء المنصوص عليها في الكتاب والسنة من غير سؤال عن كيفيتها ، ولا بحث عن كنهها ، وذلك لأن معرفة كيفية الصفة متوقفة على معرفة كيفية الذات ، لأن الصفات تختلف باختلاف موصوفاتها وذات الله عز وجل لا يسأل عن كنهها وكيفيتها ، فكذلك صفاته سبحانه لا يصح السؤال عن كيفياتها[٥٧] . ولذلك أُثِرَ عن كثير من السلف أنهم قالوا عندما سئلوا عن

---

(٥٤) البقرة — من الآية ١٤٠ .

(٥٥) روضة الندية ص٢٢ ، شرح العقيدة الوسطية محمد خليل هراس ص٢١

(٥٦) نظر المرجعين السابقين . وإتحاف الكائنات ص ٦ ، وشرح ملا علي القاري ص١٥

(٥٧) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات — محمد الأمين الشنقيطي ص ٢٥ ، الروضة الندية ص ٢٣ ، ٢٨ .

كيفية استواء الله عز وجل : (الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به(٥٨)واجب ، والسؤال عنه بدعة)(٥٩) . فاتفق هؤلاء السلف على أن الكيف غير معلوم لنا ، وأن السؤال عنه بدعة .

فلو أن قائلا قال لنا : كيف ينزل ربنا إلى سماء الدنيا ؟ قيل له : كيف هو ؟ فاذا قال : لا أعلم كيفيته ، قيل له ونحن لا نعلم كيفية نزوله ، إذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف ، وهو فرع وتابع له ، فكيف تطالبنا ببيان كيفية سمع الله وبصره وتكلمه واستوائه ونزوله ؟ ، وأنت لا تعلم كيفية ذاته ! وإذا كنت تقر بأن الله عز وجل حقيقة ثابتة في نفس الأمر مستوجبة لصفات الكمال ، لا يماثلها شيء ، فسمعه وبصره وكلامه ونزوله واستواؤه سبحانه ثابت في نفس الأمر ، وهو متصف بصفات الكمال التي لا يشابهه فيها سمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم ونزولهم واستواؤهم(٦٠) .

ويتبين مما تقدم أن هذا التوحيد يقدح فيه عدة أمور يجب أن لا يقع فيها المسلم ، وهـي :

١ ــ التشبيه : أي تشبيه صفات الخالق بصفات المخلوق ، كتشبيه النصارى المسيح ابن مريم بالله سبحانه ، وكتشبيه اليهود عزيرا بالله ، وتشبيه المشركين أصنامهم بالله . وكتشبيه بعض الطوائف وجه الله بوجه المخلوق ، ويد الله بيد المخلوق ، وسمع الله بسمع المخلوق ، ونحو ذلك(٦١) .

٢ ــ التحريف ، أو التغيير والتبديل ، كتحريف ألفاظ الأسماء والصفات بزيادة أو نقصان أو تغيير الحركات الإعرابية ، أو تحريف معناها مما سماه بعض المبتدعين تأويلا ، وهو حمل اللفظ على معنى فاسد لم يعهد به استعمال في اللغة ، كتحريف بعضهم لقوله تعالى وكلم الله موسى تكليما بنصب لفظ الجلالة ابتغاء نفي صفة الكلام عنه عز وجل .

---

(٥٨) أي بالاستواء .

(٥٩) الروضة الندية ص ٢٩ .

(٦٠) انظر الروضة الندية ص ٣٤ .

(٦١) الاسئلة والاجوبة الاصولية ــ تأليف عبد العزيز المحمد السلمان ص ٣٥ ، الروضة الندية ص٣٥ .

(٦٢) الروضة الندية ص٢٥ ، الاسئلة والاجوبة ص٣٢ ، ٣٣ .

٣ ــ التعطيل ، وهو نفي الصفات الإلهية ، وإنكار قيامها بذات الله سبحانه ، كتعطيل الله جل وعلا عن كماله المقدس ، وذلك بجحد أسمائه وصفاته . وكتعطيل معاملة الله عز وجل بترك عبادته . وكتعطيل المصنوع من صانعه ، كمن قال بقدم المخلوقات ، وجحد أن الله خلقها وصنعها[٦٣] .

٤ ــ التكييف ، وهو تعيين كيفية الصفات ، وإثبات كنهها .

وهذا المنهج في أخذ الصفات والأسماء المذكورة في القرآن والسنة على ظاهرها من دون تشبيه ولا تحريف ولا تكييف هو مذهب السلف من الصحابة رضوان الله عليهم ، والتابعين وتابعيهم ، يقول الشوكاني : (ان مذهب السلف من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وتابعيهم هو ايراد أدلة الصفات على ظاهرها من دون تحريف لها ولا تأويل متعسف لشيء منها ولا تشبيه ، ولا تعطيل يفضي إليه كثير من التأويل وكانوا إذا سأل سائل عن شيء من الصفات تلوا عليه الدليل ، وأمسكوا عن القال والقيل ، وقالوا : قال الله هكذا ، ولا ندري بما سوى ذلك ، ولا نتكلف ولا نتكلم بما لم نعلمه ، ولا أذن الله لنا بمجاوزته . فإن أراد السائل أن يظفر منهم بزيادة على الظاهر زجروه عن الخوض فيما لا يعنيه ، ونهوه عن طلب ما لا يمكن الوصول إليه إلا بالوقوع في بدعة من البدع التي هي غير ماهم عليه ، وما حفظوه عن رسول الله ﷺ وحفظه التابعون عن الصحابة ، وحفظه من بعد التابعين عن التابعين . وكان في هذه القرون الفاضلة الكلمة في الصفات متحدة ، والطريقة لهم جميعا متفقة ، وكان اشتغالهم بما أمرهم الله بالاشتغال به ، وكلفهم القيام بفرائضه من الإيمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصيام والحج والجهاد وإنفاق الأموال في أنواع البر وطلب العلم النافع ، وإرشاد الناس إلى الخير على اختلاف أنواعه ، والمحافظة على موجبات الفوز بالجنة والنجاة من النار ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والأخذ على يد الظالم بحسب الاستطاعة وبما تبلغ إليه القدرة ، ولم يشتغلوا بغير ذلك مما لم يكلفهم الله بعمله ولا تعبدهم بالوقوف على حقيقته ، فكان الدين إذ ذاك صافيا عن كدر البدع . . .)[٦٤] .

---

(٦٣) انظر المرجعين السابقين

(٦٤) انظر التحف في مذاهب السلف للشوكاني ص٧

أنواع الصفات :

والصفات التي وردت في الكتاب والسنة نوعان[٦٥] : صفات ذاتية ، وصفات فعل : فأما الصفات الذاتية فهي التي لا تنفك عن الله سبحانه كالنفس والعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر والوجه والكلام والقدم والملك والعظمة والكبرياء والعلو والغنى والرحمة . وضابط هذا النوع من الصفات الملازمة لذات الله عز وجل أنها قائمة في الله سبحانه لا ينفك عنها .

وأما صفات الفعل فهي ما تعلق بمشية الله وقدرته ، كالاستواء والنزول والمجيء والعجب والضحك والرضى والحب والكره والسخط والفرح والغضب والمكر والكيد والمقت .

والواجب في هذه الصفات بنوعيها إثباتها لله عز وجل على حسب المعنى الذي يليق بكمال الله تعالى ، وهو المعنى الحقيقي لها الذي ليس فيه تشبيه ولا تعطيل ولا تحريف ولا تكييف . وأن نقول مثل ما قال الإمام الشافعي ، رضي الله عنه : (آمنت بالله وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنت برسول الله ، وبما جاء عن رسول على مراد رسول الله ﷺ)[٦٦] .

أسماء الله عز وجل :

وأما أسماء الله عز وجل ، فهي أعلام عليه ، أخبرنا بها الله في كتابه ، والرسول ﷺ في سنته . وكل اسم من هذه الأسماء يدل على صفة أو صفات لله سبحانه . وكل اسم منها مشتق من مصدره ، كالعليم والقدير والسميع والبصير ، ونحوها ، فالعليم مشتق من العلم ، وهو يدل على صفة العلم للباري ، وكذلك بقية الاسماء .

والإسم الجامع لمعاني الأسماء كلها ، والصفات كلها هو « الله » وقد اختلفوا في اشتقاقه : فقال جماعة : وأصله « الإله » حذفوا الهمزة ، وأدغموا اللام في اللام فصارتا لاما واحدة مشددة مضخمة ، ورجح هذا ابن القيم وسيبويه والطبري . وذهب بعضهم إلى أنه ليس بمشتق[٦٧] .

---

(٦٥) انظر : الأسئلة والأجوبة ص٤٨ ، والفقه الأكبر وشرحه لملا علي القاري ص ٥١

((٦٦)الأسئلة والأجوبة الأصولية ص ٥٠ .

(٦٧) انظر : فتح المجيد ص١١ . وقد قال الطبري في معنى لفظ الجلالة : الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين ـ تفسير الطبري ج ١ ص ١٢٣

هذا ولا تنافي بين كون هذه الأسماء نعوتا لله عز وجل وأعلاما عليه ، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه . وكل أسماء الله تدل على معانيها ، وجميعها أوصاف مدح[68] .

وسميت « الحسنى » لدلالتها على أحسن مسمى ، وأشرف مدلول .

وتوحيد الله في أسمائه يقتضي الإيمان بكل اسم سمى به نفسه ، بما دل عليه هذا الإسم من معنى وبما تعلق بهذا الاسم من آثار . فمثلا : ورد في القرآن اسم الله (الرحيم) ، فنؤمن بأن هذا علم على الله عز وجل ، ونؤمن بأن هذا الاسم يدل على أن الله ذو رحمة ، ونؤمن أيضا أن الله يرحم من يشاء ، وكذلك كل اسم ورد في كتاب وسنة رسوله ﷺ[69] .

وأما عدد أسماء الله جل وعلا ، فالذي ورد النص عليه تسعة وتسعون اسما : جاء في صحيح البخاري وصحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ان لله تسعة وتسعين اسما ، مائة الا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، انه وتر يحب الوتر)[70] . وقد اتفق العلماء على أن قول النبي ﷺ « تسعة وتسعين اسما» لا يفيد انها محصورة في هذا العدد ، وانما غاية ما في هذا الحديث الصحيح أن لله هذه الأسماء المذكورة ، من أحصاها دخل الجنة ، وليس فيه نفي غيرها عن الله سبحانه ، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الاخبار بحصر الأسماء[71] .

ويدل على أن هناك أسماء لم يخبرنا بها الباري ، وإنما استأثر بها في علم الغيب ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ما أصاب مسلما قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض

---

(68) فتح المجيد ص14 . الأسئلة والأجوبة الأصولية ص44 .

(69) الأسئلة والأجوبة الأصولية ص44 .

(70) اخرجه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه ــ انظر صحيح البخاري مع فتح الباري ج 5 ص372 وهداية الباري ج 1 ص135 ، وصحيح مسلم شرح النووي ج [illegible] ص 5 .

(71) الأسماء والصفات للبيهقي ص 6 . ايثار الحق على الخلق محمد بن المرتضى اليماني ص165 . وفتح الباري ج11 ص183 . تفسير القاسمي ج 7 ص 2911 . شرح العقيدة الطحاوية ص 110 . صحيح مسلم بشرح النووي ج 17 ص 5 .

فيَّ حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي وجلاء حزني ، وذهاب همي وغمي ، إلا أذهب الله عنه همه ، وأبدله مكان همه فرحا ، قالوا : يارسول الله : ألا نتعلم هذه الكلمات ؟ قال : بلى ، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن)(٧٢) .

وأما معنى إحصاء أسماء الله الوارد في الحديث السابق فهو : معرفتها وحفظها ، وفهمها ، والإيمان بها وحسن المراعاة لها ، والمحافظة على حدودها في معاملة الله بها ، ودعاء الله عز وجل بها ، فيكون معنى ما ورد في الحديث : من حفظها متفكرا في مدلولاتها معتبرا بمعانيها ، عاملا بمقتضاها مقدسا لمسماها دخل الجنة(٧٣) .

أدلة توحيد الأسماء والصفات :

وأدلة هذا النوع من التوحيد في القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة ، كثيرة جداً بل أنه لا تخلو سورة من سور القرآن ، ولا صفحة من صفحاته ، من ذكر صفات الله وأسمائه ، فتجده يذكرها ويذكِّر بها في مختلف موضوعاته ، من توحيد ، وعبادة وتشريع ، وفي مقام أمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وقصصه وأمثاله . ونذكر لك في هذا المقام سورة جامعة في توحيد الأسماء والصفات ، وأعظم آية من آي القرآن .

فأما السورة ، فهى سورة الاخلاص ، التى تعدل ثلث القرآن ، كما أخبر

---

(٧٢)رواه احمد وابو عوانة في صحيحه ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد : رواه احمد وابو يعلى والبزار ورجال احمد رجال الصحيح غير ابي سلمة الجهني ، وقد وثقه ابن حبان ــ انظر ايثار الحق ص ١٧٠ وانظر الاسماء والصفات للبيهقي ص٦ ، ٧ . وشرح العقيدة الطحاوية ص١١٠ .

(٧٣)الاسماء والصفات للبيهقي ص ٦ ، والاسئلة والاجوبة ص ٤٥ ، فتح الباري جـ ١٣ ص ٣٢٢ ، صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ ص ٥ ، ٦ .

المصطفى ﷺ(٧٤) . حيث يقول الله عز وجل : ﴿ **قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ .

فهذه السورة العظيمة تضمنت إثبات كل كمال لله عز وجل ، ونفي كل نقص عنه . فقد أخبر سبحانه فيها أنه هو الله الأحد الصمد ، وأنه لم يلد ولم يولد ، وليس له كفو . ومعنى الأحد . الذي لا شبيه له ولا نظير(٧٥) . فيدل هذا الاسم الكريم على أن الله سبحانه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة له . ومعنى الصمد : السيد الذي يصمد إليه في الأمور ، ويقصد في الحوائج والنوازل(٧٦) . فيدل هذا الاسم على أن الله وحده هو المستحق لأن يقصد بالحوائج والمسائل . ولا يبطل هذا الاستحقاق بذهاب من يذهب عن الحق ويضل السبيل ، فيقصد الخلق ، ويعرض عن الخالق جل وعلا ، لأنه إذا كان الله هو الخالق والمدبر لما خلق ، لا خالق غيره ولا مدبر سواه فالإعراض عن قصده سبحانه جهل وحمق ، لأن الأمر كله بيده(٧٧) . وهكذا فكما أثبت اسم الأحد نفي جميع صفات النقص عن الله عز وجل ، فإن هذا الاسم (الصمد) قد أثبت لله تعالى جميع صفات الكمال والجلال(٧٨) .

ومن هنا تدرك لم أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام أن هذه السورة تعدل ثلث القرآن الكريم فإنها قد تضمنت عقيدة الإسلام كلها ، القائمة على

---

(٧٤)فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد ، يرددها ، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالها ، فقال رسول الله ﷺ ، والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن ، وعن أبي سعيد قال : قال النبي ﷺ لأصحابه ، أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فشق ذلك عليهم ، وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : الله الواحد الصمد ثلث القرآن . انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ٩ ص ٤٩ ، والأحاديث في فضل سورة الإخلاص كثيرة جداً : زاد المعاد جـ١ ص ٨٢ .

(٧٥) الأسماء والصفات ص٢١ ، شرح ملا على القاري على الفقه الأكبر ص ١٤ .

(٧٦)فتح الباري جـ ٨ ص ٦٠١ ، الأسماء والصفات ص ٥٨ ، شرح ملا على القاري على الفقه الأكبر ص ١٤ .

(٧٧)الأسماء والصفات ص ٥٨ .

(٧٨)فتح الباري جـ ٩ ص ٥٠ .

إثبات صفات الكمال للخالق ونفي صفات النقص عنه ، واستحقاقه سبحانه للعبادة والتوجه إليه . والقرآن بمجموعه عقيدة تبين للعباد ما يجب عليهم من معرفة الله وأسمائه وصفاته ، وشريعة تبين لهم حقوقهم وواجباتهم ، وكيفية التعامل بينهم ، وأخبار وقصص تبين للعباد سنن الله في معاملة الخلق ، وتفصل لهم ثواب الله وعقابه ، ووعده ووعيده . يقول ابن القيم في بيان حقيقة هذه السورة : (فسورة الاخلاص متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه ، والصمدية ، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية ، ونفي الكفؤ المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير . فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له ، ونفي كل نقص عنه ، ونفي إثبات شبيه أو مثيل له في كماله ، ونفي مطلق الشريك عنه ، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمى الاعتقادى الذين يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك)(٧٩) .

وأما الآية ، فهي آية الكرسي ، التي أخبر الرسول ﷺ أنها أعظم آية في القرآن ، وفيها يقول سبحانه وتعالى ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما في الأرض ، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما ، وهو العلي العظيم** ﴾(٨٠) .

فهذه الآية العظيمة تضمنت قواعد التوحيد بأنواعه الثلاثة ، فقد اشتملت على صفات وأسماء كل منها يمثل قاعدة من قواعد العقيدة الإسلامية :

فقوله تعالى ﴿ **الله لا إله إلا هو** ﴾ ، قرر قاعدة الألوهية ، التى هي أساس التوحيد ، والتي ينبثق منها منهج الإسلام للحياة كلها ، وهي تستلزم الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة : فلا يكون الإنسان عبدا إلا لله ، ولا يتجه بالعبادة إلا لله عز وجل ، ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله ، ولا يحتكم إلا

(٧٩)انظر زاد المعاد في هدى خير العباد جـ ١ ص ٨١ ، ٨٢ .

(٨٠)البقرة ــ الآية ٢٥٥

... الله ، ولا يستمد شرعه ولا قيمه ولا أخلاقه ولا مفاهيمه إلا من الله سبحانه وتعالى(٨١) .

وقوله تعالى ﴿ الحي القيوم ﴾ أثبت لذاته العلية اسمين عظيمين :

والحي : هو الذي له الحياة الدائمة ، والبقاء الذي لا أول له ولا آخر(٨٢) ، فالحياة التي يوصف بها الله هي الحياة الذاتية التي لم تأت من مصدر آخر ، كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق . كذلك هي الحياة الأزلية الأبدية التي لا تبدأ من مبدأ ، ولا تنتهي إلى نهاية(٨٣) .

والقيوم : هو القائم بأمور الخلق ومدبر العالم في جميع أحواله ، فهو القيم على كل شيء يرزقه ويحفظه ويرعاه ويدبره بما يريد جل وعلا(٨٤) .

وهذان الاسمان﴿ الحي القيوم ﴾ من أعظم أسماء الله الحسنى ، اذ عليهما مدار الأسماء الحسنى كلها ، وإليهما ترجع معانيها ، فان الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة ، فإذا كان لله تعالى الحياة الكاملة فله كل الكمال ، وصفة القيومية تتضمن كمال غناه سبحانه وكمال قدرته ، فهو القائم بنفسه ، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه ، وهو المقيم لغيره ، فكل موجود مرتكن إلى وجود الله وتدبيره(٨٥) .

ولهذين الاسمين أثر عظيم في حياة المسلم ، الذي يؤمن بهما ، ويستحضر ما فيهما من معان عظيمة ، فإن ضميره يظل مرتبطا بالله ، حبا وعبادة وطاعة ، لانه يعلم أن ربه هو الذي يصرف أمره وأمر كل شيء حوله ، وفق حكمة وتدبير ، فيلتزم في حياته بالمنهج المرسوم القائم على الحكمة والتدبير ، ويستمد منه قيمه وموازينه ، ويرقبه في جميع أحواله(٨٦) .

---

(٨١)في ظلال القرآن ــ المجلد الاول ص ٤١٨ ــ ٤١٩ .

(٨٢)تفسير الطبري ج ٥ ص ٣٨٨ . الاسماء والصفات ص ٢٠ .

(٨٣)في ظلال القرآن ــ المجلد الاول ص٤١٨ ، ٤١٩ .

(٨٤)الأسماء والصفات ص ٤٨ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٤ ، تفسير الطبري ج ٥ ص ٣٨٨ ، الروضة الندية ص ٦١ .

(٨٥)شرح العقيدة الطحاوية ص ١٢٤، ١٢٥ .

(٨٦)في ظلال القرآن ــ المجلد الاول ص ٤١٩ .

وقوله تعالى : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ : توكيد لقيامه سبحانه على كل شيء وقيام كل شيء به ، لأن السنة ــ وهي النعاس ــ والنوم ينافيان الحياة الكاملة ، والقيومية الكاملة(٨٧) .

وقوله تعالى ﴿ له ما في السموات والأرض ﴾ : يقرر ملكيته سبحانه الشاملة لكل شيء ، المطلقة من أى قيد ، المنزهة عن أية شركة . ولهذه العقيدة ، إذا استقرت في قلوب الناس أثر عظيم في حياتهم : يقول سيد قطب رحمه الله تعالى : (فإذا تمحضت الملكية الحقيقية لله ، لم يكن للناس ملكية ابتداء لشيء ، إنما كان لهم استخلاف من المالك الواحد الأصلى الذي يملك كل شيء ، ومن ثم يجب أن يخضعوا في خلافتهم لشروط المالك المستخلف في هذه الملكية ، وشروط المالك المستخلف قد بينها لهم في شريعته ، فليس لهم أن يخرجوا عنها ، وإلا بطلت ملكيتهم الناشئة عن عهد الاستخلاف ووقعت تصرفاتهم باطلة . . . . على أن مجرد استقرار هذه الحقيقة في الضمير . . . مجرد شعور الإنسان بحقيقة المالك سبحانه لما في السموات وما فى الأرض ، مجرد تصور الإنسان لخلو يده هو من ملكية أي شيء مما يقول : أنه يملكه ، ورد هذه الملكية لصاحبها مجرد إحساسه بأن ما في يده عارية لأمد محدود ، ثم يستردها صاحبها الذي أعارها له في الأجل المرسوم . . مجرد استحضار هذه الحقائق والمشاعر كفيل وحده بأن يطامن من حدة الشره والطمع ، وحدة الشح والحرص ، وحدة التكالب المسعور ، وكفيل كذلك بأن يسكب في النفس القناعة والرضى بما يحصل من الرزق ، والسماحة والجود بالموجود ، وأن يفيض على القلب الطمأنية والقرار في الوجدان والحرمان على سواء ، فلا تذهب النفس حسرات على فائت أو ضائع ، ولا يتحرق القلب سعارا على المرموق المطلوب)(٨٨) .

وقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ توضيح لمقام الألوهية ومقام العبودية ، فكل مخلوق عبد لله ، لا يتجاوز حد العبودية ، ولا يتعداه ، فليس له الشفاعة عند الله إلا بإذنه . وبهذا تضع هذه العقيدة فاصلا

---

(٨٧) المرجع السابق ، الروضة الندية ص ٦٣ .

(٨٨) في ظلال القرآن ــ المجلد الاول ص ٤٢٠ ، ٤٢١ .

. مسحا بين حقيقة العبودية وحقيقة الربوبية ، فلا يختلطان ولا يتشاركان في ي من الصفات أو الخصائص)[89] .

وقوله تعالى : ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلَّا بما شاء** ﴾ إثبات لإحاطة علمه سبحانه وشموله للزمان والمكان والأشياء ، وبيان لعجز المخلوقات ونقص علمهم إلَّا ما شاء الله أن يعلمهم[90] . وإيمان المسلم بهذه الصفة لله عز وجل ، واستحضارها في قلبه ، يجعله مراقبا لربه دائما ، مراعيا لحدوده ، سريع التوبة إليه إن أساء . وإدراكه لحقيقة نفسه ، ونعمة الله عليه فيما يعلمه إياه من الحقائق يجعله دائما شديد الشكر لله ، وبعيدا عن البطر والكبر والتبجح .

وقوله تعالى : ﴿ **وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما** ﴾ دليل على كمال قدرته سبحانه ، وتمامها .

ثم ختم سبحانه هذه الآية العظيمة بذكر اسمين من أسمائه الحسنى فقال (وهو العلي العظيم) والعلي : ذو العلو والارتفاع على خلقه[91] ، فلا يتطاول أحد إلى مقامه إلا ويرده الله إلى الخفض والهون في الدنيا ، والعذاب في الآخرة والهوان .

والعظيم ذو العظمة الذي كل شيء دونه ، فلا شيء أعظم منه سبحانه[92] . وعندما تستقر حقيقة علو الله وعظمته في نفس الإنسان ، فإنه يعرف قدر نفسه ، ويثوب إلى مقام العبودية لله عز وجل ، فلا يتكبر ولا يطغى ، وإنما يخاف الله ويهابه ويتأدب معه ، ومع خلقه سبحانه[93] .

ذلك بعض من مظاهر عظمة آية الكرسي ، فينبغي لكل مسلم أن يحرص عليها ، ويحفظها ويتدبر معانيها ، ويستحضرها ، ويراعي حقوقها ، وقد ورد في فضلها أحاديث صحيحة ، منها : ما رواه البخاري عن أبي هريرة من

---

(٨٩) مرجع سابق .
(٩٠) تفسير الطبري جـ ٥ ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، الروضة الندية ص ٦٤ .
(٩١) تفسير الطبري جـ ٥ ص ٤٠٥ .
(٩٢) مرجع سابق .
(٩٣) في ظلال القرآن ، المجلد الأول ص ٤٢٤

حديث طويل أن الرسول ﷺ قال له : (إذا أويت الى فراشك ، فاقرأ آية الكرسي : الله لا إله إلا هو الحي القيوم . . . حتى ختم الآية ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح)(٩٤) . وما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : يا أبا المنذر : أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : يا أبا المنذر : أتدرى أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قال : قلت الله لا إله الا هو الحي القيوم . قال : فضرب في صدري وقال : والله ليهنك العلم أبا المنذر(٩٥) .

* * *

(٩٤)انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ٣ ص ٣٨٤ .

(٩٥)انظر : صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٦ ص ٩٣ .

الإيمان بالملائكة (*)

ومن أركان الإيمان ، الإيمان بالملائكة .

والمقصود به الاعتقاد الجازم بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها (١) .

فهم نوع من مخلوقات الله عز وجل ، لا يصلح إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم وبما ورد في حقهم من صفات وأعمال ، في كتاب الله سبحانه ، وسنة رسوله ﷺ من غير زيادة ، ولا نقصان ، ولا تحريف .

قال تعالى : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون ، كل امن بالله وملائكته وكتبه ورسله** ﴾(٢) .

وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، والبخاري ، عندما سأل جبريل عليه السلام عن الإيمان قال ﷺ : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره)(٣) .

فوجود الملائكة ثابت بالدليل القطعي الذي لا يمكن أن يلحقه شك . ومن هنا كان انكار وجودهم كفرا بإجماع المسلمين ، بل بنص القرآن العظيم ،

(*) يقول ابن حجر في معنى الملائكة : (جمع ملك بفتح اللام . فقيل : مخفف من مالك . وقيل : مشتق من الالوكة . وهي الرسالة . وهذا قول سيبويه والجمهور . وأصله لأك . وقيل : أصله الملك بفتح الميم وسكون اللام . وهو الأخذ بقوة . وأصل وزنه مفعل فتركت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وظهرت في الجمع . . . وقال جمهور أهل الكلام من المسلمين : الملائكة أجسام لطيفة أعطيت قدرة التشكل بأشكال مختلفة ، ومسكنها السموات . فتح الباري ج ٦ ص ٢٣٢

(١) انظر : الاسئلة والأجوبة الاصولية ص ٢١ .

(٢) البقرة — الآية ٢٨٥ .

(٣) تقدم تخرجه في صفحة رقم د .

فقد قال عز وجل : ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾[٤] .

والذي يستقصي الآيات القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، التي تكلمت عن الملائكة ، وأوصافهم ، وأعمالهم ، وأحوالهم ، يلاحظ أنها تناولت ، في الغالب ما يبين علاقتهم بالخالق سبحانه ، وبالكون ، والإنسان ، فعرفنا سبحانه من ذلك على ما ينفعنا في تطهير عقيدتنا ، وتزكية قلوبنا ، وتصحيح أعمالنا .

وأما حقيقة الملائكة ، وكيف خلقهم ، وتفصيلات أحوالهم ، فقد استأثر سبحانه بها . وهذه خصيصة عامة من خصائص العقائد الإسلامية ، تناولت الحقائق الكونية ، والتعريف بها في حدود ما يحتاج إليه البشر ، ويصلح أحوالهم في المعاش والمعاد وما تطيقه عقولهم ، فلم يطلعنا الله جل وعلا على جميع المغيبات ، سواء منها ما تعلق بجلاله وصفاته وأسمائه ، وما تعلق بمخلوقاته الغيبية .

والمؤمن الصادق يقر بكل ما أخبر به الخالق ، مجملا أو مفصلا ، ولا يزيد على ذلك ، ولا ينقص منه ، ولا يتكلف البحث عما لم يطلعنا عليه منه ، ولا يخوض فيه .

صفاتهم الخِلْقِيّة :

وبناء على ذلك فإن الخالق عز وجل لم يخبرنا من صفاتهم الخلقية الا النزر القليل ، فأخبرنا سبحانه أنهم خلقوا قبل خلق آدم[٥] ، إذ ورد في القرآن أن الله أخبرهم بأنه سيخلق الإنسان ، ويجعله في الأرض ، قال تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال : إني أعلم مالا تعلمون** ﴾[٦] .

وأما عن المادة التي خلقوا منها ، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الله خلقهم

---

(٤) النساء — الآية ١٣٦ .

(٥) انظر : فتح الباري جـ ٦ ص ٢٣٤ .

(٦) البقرة — الآية ٣٠ .

.. نور ، فقد أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ
قال : (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم
مما وصف لكم)[٧] .

وتدل النصوص ، في مجموعها ، على أن الملائكة مخلوقات نورانية ليس لها
جسم مادي يدرك بالحواس الإنسانية ، وأنهم ليسوا كالبشر : فلا يأكلون ولا
يشربون ولا ينامون ولا يتزاوجون ، مطهرون من الشهوات الحيوانية ،
ومنزهون عن الآثام والخطايا ولا يتصفون بشيء من الصفات المادية التى
يتصف بها ابن آدم[٨] .

غير أن لهم القدرة على أن يتمثلوا بصور البشر ، باذن الله تعالى . كما أخبر
الله عز وجل عن جبريل عليه السلام أنه جاء مريم في صورة بشرية ، فقال
تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا ،
فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا
سويا** ﴾[٩] .

وفي حديث جبريل المشهور ، حين جاء يعلم الصحابة معنى الإسلام
والإيمان والإحسان وأشراط الساعة ، ذكر عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ،
أنه جاء على هيئة رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه
أثر السفر ، وأنه جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع
كفيه على فخذيه ثم شرع في السؤال[١٠] .

ومن صفاتهم الخِلْقِيَّة التي أخبرنا الله بها أنه جعل لهم أجنحة ، يتفاوتون
في أعدادها ، فقال سبحانه : ﴿ **الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل
الملائكة رسلًا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد في الخلق ما يشاء ، إن
الله على كل شيء قدير** ﴾[١١] وقد أخرج مسلم والبخاري عن عبد الله بن

---

(٧) أخرجه مسلم واحمد في المسند ــ أنظر فتح الباري جـ ٦ ص ٢٣٢

(٨) شرح ملا علي القاري على الفقه الاكبر ص ١١ ، العقائد الاسلامية ــ سيد سابق ص ١١١ . فتح الباري جـ ٦ ص ٢٣٢ .

(٩) مريم ــ الآيتان ١٦ ، ١٧ .

(١٠) تقدم تخريجه في ص ٥ .

(١١) فاطر ــ الآية ١ .

مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح[١٢] .

هذا هو ما أخبرنا به ربنا تبارك وتعالى عن هذه المخلوقات الكريمة ، من حيث خلقتها ، ونؤمن به كما جاء ، ولا نسأل عن غيره ، ولو كان في التفصيل نفع لعباد الله لما حجب عنهم معرفته ، فهو اللطيف الرحيم بهم ، يعلمهم الحق والخير .

عباد مكرمون :

وأما علاقتهم بالله ، فهي علاقة العبودية الخالصة ، والطاعة والامتثال ، والخضوع المطلق لأوامره عز وجل ، لا ينتسبون إليه سبحانه إلا بهذه النسبة ، فهم ليسوا آلهة من دونه سبحانه ، ولا ذرية له ولا بنات ، كما قال المشركون من قبل ، **﴿ وقالوا اتخذ الرحمٰن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ﴾**[١٣] . وقال تعالى : **﴿ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾**[١٤] ، وقال أيضا : **﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾**[١٥] . فهم خلق من مخلوقات الله الكثيرة ، يطيعونه سبحانه ولا يقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم ، وهم لا يستطيعون أن يقترحوا على الله شيئا بفضل قوتهم ، وهم منقطعون دائما لعبادة الله وطاعة أمره ، قال تعالى : **﴿ وما منا إلا له مقام معلوم وإنا لنحن الصافون ، وانا لنحن المسبحون ﴾**[١٦] .

واذا كانت هذه حقيقة أمرهم ، فمن الشرك بالله أن يعبدوا ، أو يستعان بهم أو يعتقد أن لهم من الأمر شيئا ، قال تعالى : **﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾**[١٧] .

(١٢)انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ٦ ص ٢٤٢ .
(١٣)الانبياء ــ الآيتان من ٢٦ ، ٢٨ .
(١٤)النحل ــ الآية ٥٠ .
(١٥)التحريم ــ الآية٦ .
(١٦)الصافات ــ الآيتان ١٦٥ ، ١٦٦ .
(١٧)آل عمران ــ الآية ٨٠ .

علاقتهم بالكون والإنسان :

وإذا كانت تلك هي صلتهم بربهم : عبودية كاملة له سبحانه ، وطاعة تامة لأوامره عز وجل ، فإن صلتهم بالكون والإنسان هي فرع تلك العبودية ، وتلك الطاعة . ذلك أن عبادتهم لله كما أخبر سبحانه ، لا تقتصر على تسبيحهم بحمد الله ، وتمجيدهم له ، وإنما تشتمل على تنفيذ إرادته جل وعلا بتدبير أمور الكون ، ورعايته ، بكل ما فيه من مخلوقات ، وما فيه من حركة ونشاط ، وما فيه من حياة وجماد ، وما فيه من قوانين ونواميس ، وإنفاذ قدره وفق قضائه في هذه المخلوقات كلها ، وتنفيذ إرادته سبحانه في مراقبة وتسجيل كل ما يحدث في الكون من حركات إرادية وغير إرادية : فهم الموكلون بالسموات والأرض ، وكل حركة في العالم تدخل في اختصاصهم[18] كما أراد خالقهم تبارك وتعالى ، كما قال سبحانه : ﴿ **فالمدبرات أمرا** ﴾[19] ، وكما قال : ﴿ **فالمقسمات أمرا** ﴾[20] . وهي الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل عليهم السلام[21] . وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة ، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات وأنه سبحانه وكل بالشمس والقمر ملائكة ، وبالأفلاك ملائكة ، وبالجبال ملائكة ، وبالسحاب ملائكة ، وبالمطر ملائكة ، وبالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها ، وبالموت ملائكة . ووكل بكل عبد ملائكة ، يحفظونه ، وبكل مخلوق ، وبكل حوادث الكون وظواهره ملائكة[22] .

ولا ينافي هذا ما يلاحظ في الكون من قوانين وأسباب يرتبط بعضها ببعض لأن هذه القوانين والأسباب إنما هي مخلوقات الله ، والملائكة موكلة بها أيضا ، وموكلة برعايتها ، كما ترعى المخلوقات الأخرى ، ولولا إرادة الله في حفظ هذه الأسباب والقوانين ، ولولا قدره في تسخير الملائكة للحفاظ عليها ، فإن العقل لا يستلزم أبدا بقاءها على هذه الآماد الطويلة في انتظامها وتناسقها .

---

(١٨) إغاثة اللهفان ج ٢ ص ١٢٠ . شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٣٥ .
(١٩) النازعات — الآية ٥.
(٢٠) الذاريات — الآية ٤ .
(٢١) إغاثة اللهفان ص ١٢٠
(٢٢) إغاثة اللهفان ج ٢ ص ١٢٠ ، ١٢١ . شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٣٥ .

وأما الانسان فيدخل بحياته الفطرية في تلك الرعاية ، التي وكل الله سبحانه الملائكة بها ، لأنه مخلوق من مخلوقات الله في الكون ، بل هو المخلوق الذي سخر الله له ما في الكون كله ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض** ﴾ (٢٣) . فحفظ الملائكة ورعايتها للسموات والأرض وما فيهن رعاية له ، وعون له على القيام بحق الخلافة ومسؤليتها .

وفوق هذا فإن للملائكة أعمالا أخرى في حياة الإنسان الإرادية ، هدفها — كما حدده الله لهم — هداية البشر ، وإسعادهم ، ومساعدتهم على عبادة الله وعونهم على اختيار الهدى والصلاح ، واجتناب الشر والفساد والضلال : فهم الذين اختارهم رب العالمين لإيصال هداه الى أهل الأرض عن طريق رسله الكرام ، والملك المختار لهذه المهمة هو جبريل عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك ، لتكون من المنذرين** ﴾ (٢٤) .

وهم يلازمون الإنسان في حياته كلها ، وجميع صحبتهم للإنسان لاسعاده وهدايته يلهمونه الحق والخير ، ويحثونه عليهما ، فقد قال المصطفى عليه الصلاة والسلام : (إن للشيطان لمة (٢٥) بابن آدم ، وللملك لمة : فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم أنه من الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ، ثم قرأ : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم ﴾ (٢٦) .

كما أخبرنا عز وجل أنه سخرهم للدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم فقال سبحانه : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون**

---

(٢٣) لقمان — الآية ٢٠ .

(٢٤) الشعراء — الآيات من ١٩٢ ـ ١٩٤ .

(٢٥) اللمة هي الخطرة بالقلب ، وتكون لمة الشيطان بوسوسته للانسان بالسوء . ولمة الملك بإيحائه بالخير .

(٢٦) البقرة — الآية ٢٦٨ . والحديث اخرجه الترمذي وقال عنه : حسن غريب والنسائي وابن حبان عن ابن مسعود — انظر : فيض القدير للمناوي ج٢ ص ٤٤٩

به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾(٢٧) . ويقول رسول الله ﷺ : (ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا)(٢٨) .

وهم يشجعون العبد على طاعة ربه ، وعبادته ، ويحببونه بالذكر والقرآن ، ويحثونه على العلم والخير ، ويحضرون صلاته وقرآنه ، وفي ذلك كله أحاديث صحيحة ، من ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله أن النبي ﷺ قال : (صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في بيته وصلاته في سوقه بضعا وعشرين درجة ، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى المسجد ، لا ينهزه الا الصلاة ، لا يريد الا الصلاة ، لم يخط خطوة ، الا رفع بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه ،والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه ، يقولون : اللهم ارحمه ، الله اغفر له ، الله تب عليه ، ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه)(٢٩) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : (الملائكة يتعاقبون ، ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الفجر وفي صلاة العصر ، ثم يعرج إليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم وهو أعلم : كيف تركتم عبادي ؟ فقالوا :تركناهم يصلون وأتيناهم يصلون)(٣٠) .

وفي حضورهم مجالس الذكر قال رسول الله ﷺ : (ان لله ملائكة يطوفون في الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ،

---

٢٧) غافر ـ الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ .

٢٨) متفق عليه ـ انظر صحيح البخاري مع فتح الباري ج ٣ ص ٢٣٧

٢٩) متفق عليه واللفظ لمسلم . انظر فتح الباري ج ١ ص ٤٤٨ ، وصحيح مسلم بشرح النووي ج ٥ ص ١٦٥ .

٣٠) متفق عليه واللفظ للبخاري ـ انظر صحيح البخاري مع فتح الباري ج ٦ ص ٢٣٩ .

قال : فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم منهم : ما يقول عبادي ؟ قال : تقول : يسبحونك ، ويكبرونك ويحمدونك قال : فيقول : هل رأوني ؟ قال : فيقولون : لا والله ما رأوك . قال : فيقول : كيف لو رأوني ؟ قال : يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيدا ، وأكثر لك تسبيحا . قال : يقول : فما يسألوني ؟ قال : يقولون : يسألونك الجنة ، قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون لا والله يارب ما رأوها قال : فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبا وأعظم فيها رغبة قال : فمم يتعوذون .. قال : يقولون : من النار . يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يارب ما رأوها . قال : يقول : فكيف لو رأوها ؟ قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة ، قال : فأشهدكم أني قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة ، قال : هم الجلساء لايشقى جليسهم)(٣١) .

وفي تشجيعهم لأهل العلم قال رسول الله ﷺ : (ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع)(٣٢) .

وهم أيضا يثبتون العبد على العمل الصالح ، وخاصة الجهاد في سبيل الله تعالى ، كما قال الله عز وجل : ﴿ **إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب . فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان** ﴾(٣٣) .

ومن أعمالهم التي أخبرنا عنها رب العالمين ، مما له أثر عظيم في تقويم حياة العباد وحفظهم من المعصية والشر ، ما وكل إليهم من مراقبة أعمال العباد وكتابتها بعد إحصائها ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾(٣٤) . وقال أيضا : ﴿ **وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين**

(٣١) متفق عليه واللفظ للبخاري ــ انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١١ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
(٣٢) رواه الترمذي وصححه ، ابن ماجه واللفظ له ، وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد ــ انظر الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٠٤ .
(٣٣) الانفال ــ الآية ١٢

يعلمون ما تفعلون ﴾[٣٥] . وقال أيضا : **﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾**[٣٦] .

وفي ختام الكلام عن علاقة الملائكة بالإنسان ، وأثرهم في أعماله الإرادية ، وغير الإرادية نثبت كلمة جامعة لابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى عن هذا الموضوع فقد قال في كتابه (إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان) : (والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره ، لهم وله شأن آخر : فإنهم موكلون بتخليقه ونقله من طور الى طور ، وتصويره ، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث ، وكتابة رزقه وعمله ، وأجله وشقاوته ، وسعادته ، وملازمته في جميع أحواله ، وإحصاء أقواله وأفعاله ، وحفظه في حياته ، وقبض روحه عند وفاته ، وعرضها على خالقه وفاطره ، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ ، وبعد البعث ، وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب ، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله والمعلمون له ما ينفعه ، والمقاتلون الذابون عنه وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة ، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه ، وينهونه عن الشر ، ويحذرونه منه . فهم أولياؤه وأنصاره ، وحفظته ومعلموه ، وناصحوه ، والداعون له ، والمستغفرون له ، وهم الذين يصلون عليه ما دام في طاعة ربه ، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير ، ويبشرونه بكرامة الله تعالي في منامه ، وعند موته ، ويوم بعثه . وهم الذين يزهدونه في الدنيا ، ويرغبونه في الآخرة ، وهم الذين يذكرونه اذا نسي وينشطونه إذا كسل ، ويثبتونه إذا جزع . وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته . فهم رسل الله في خلقه وأمره ، وسفراؤه بينه وبين عباده ، تتنزل بالأمر من عنده في أقطار العالم ، وتصعد إليه بالأمر)[٣٧] .

* * *

(٣٤) ق ــ الآيات من ١٦ ــ ١٨ .

(٣٥) الانفطار ــ الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٣٦) الزخرف ــ الآية ٨٠ .

(٣٧) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، جـ ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

عدد الملائكة :

وهم كثر ، لا يحصي عددهم إلا الله ، قال تعالى : ﴿ **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ، ليستيقن الذين أتوا الكتاب ، ويزداد الذين آمنو إيمانا ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ، كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، وما هي إلا ذكرى للبشر** ﴾(٣٨) . وأخرج الترمذي وابن ماجه والبزار من حديث أبي ذر مرفوعا : (أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك ساجد)(٣٩) . وفي حديث المعراج قال رسول الله ﷺ : (فرفع لي البيت المعمور ، فسألت جبريل فقال : هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون الف ملك . .)(٤٠) .

الإيمان بالملائكة تفصيلي وإجمالي :

ويجب الإيمان بالملائكة التي وردت أسماؤهم في الكتاب أو فى السنة بالتفصيل . ومن هؤلاء رؤساؤهم الثلاث : جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل(٤١) . وجبريل هو الملك الموكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح(٤٢) ، وقد ورد ذكره هو وميكائيل في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ **قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ۞ من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾(٤٣) . وقد أثنى الله سبحانه عليه في القرآن أحسن الثناء ، ووصفه بأجمل الصفات ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بالخنس ۞ الجوار الكنس ۞ والليل إذا عسعس ۞ والصبح إذا تنفس ۞ إنه لقول رسول كريم ۞ ذي قوة عند ذي العرش مكين ۞ مطاع ثم**

---

(٣٨)المدثر ــ الآية ٣١ .

(٣٩)انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٤٠)صحيح البخاري مع فتح الباري ج ٦ ص ٢٣٣ .

(٤١)اغاثة اللهفان ج ٢ ص ١٢٢ . الكواشف الخفية عن معاني الواسطية ص ٣٦ .

(٤٢)اغاثة اللهفان ج ٢ ص ١٢٢ .

(٤٣)البقرة ــ الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .

امين ﴾(٤٤) ، وقال تعالى في وصفه : ﴿ **علمه شديد القوى ، ذو مرة**(٤٥)**فاستوى** ﴾(٤٦) . وأما ميكائيل فهو الملك الموكل بالقطر الذي به ..اه الأرض والنبات والحيوان(٤٧) . وأما إسرافيل فهو الملك الموكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم(٤٨) . ومن الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن مالك خازن النار . قال تعالى : ﴿ **ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك** ﴾(٤٩) ، كما ورد ذكره في الحديث الصحيح(٥٠) .

فهؤلاء وغيرهم ممن ورد ذكر اسمائهم في أحاديث ثبتت صحتها يجب الإيمان بهم ، وبما نيط بهم من الوظائف والأعمال . وأما الملائكة الذين لم يرد ذكرهم ، فيجب أن نؤمن بهم بصورة إجمالية ، ونؤمن بما ذكر من أصنافهم ، وأفعالهم ، في القرآن والسنة(٥١) . فنؤمن بالكرام الكاتبين الذين جعلهم الله علينا حافظين ، كما قال تعالى : ﴿ **وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون** ﴾(٥٢) ، وكما قال أيضا : ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه ، يحفظونه من أمر الله** ﴾(٥٣) . وكما قال : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ، بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾(٥٤) . وقد ورد في بعض كتب التفسير ، أنهم اثنان عن اليمين وعن الشمال، يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من أمامه وواحد من ورائه ، فهو بين أربعة ملائكة(٥٥) . وروى الإمام مسلم والإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي

(٤٤)التكوير ــ الآيات ١٥ ــ ٢١ .
(٤٥)المقصود بالمرة : صحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات ــ اغاثة اللهفان جـ ٢ ص ١٢ .
(٤٦)النجم ــ الايتان ٥ ، ٦ .
(٤٧)اغاثة اللهفان جـ ٢ ص ١٢٢ ، اصول الايمان لمحمد بن عبد الوهاب ص ١٤ .
(٤٨)انظر المرجعين السابقين .
(٤٩)الزخرف ــ الآية ٧٧ .
(٥٠)انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ٦ ص ٢٤٢ .
(٥١)أفرد الامام البخاري بابا خاصا لما ورد من الاحاديث الصحيحة في ذكر الملائكة وقد ذكر فيه ما يزيد عن ثلاثين حديثا ــ انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ٦ ص٢٣٢ ــ ٢٤٣ .
(٥٢)الانفطار ــ الآية ١٠ ــ ١٢ .
(٥٣)الرعد ــ الآية ١١ .
(٥٤)الزخرف ــ الآية ٨٠ .
(٥٥)شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٩ .

الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياي ، لكن الله أعانني عليه ، فأسلم ، فلا يأمرني إلابخير)(٥٦) .

ونؤمن كذلك بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين ، قال تعالى : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾(٥٧) ، ولم يصرح القرآن باسمه ، ولا الاحاديث الصحيحة ، وجاء في بعض الآثار تسميته بعزرائيل(٥٨) ، فالله اعلم .

ونؤمن بحملة العرش الذين أخبر عنهم الله في القرآن فقال سبحانه : ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يؤمئذ ثمانية** ﴾(٥٩)ومنهم إسرافيل الذي ينفخ في الصور(٦٠) .

ونؤمن كذلك بالملائكة الموكلين بالنار ، أعاذنا الله منها ـــ وهم الزبانية ، ومقدموهم تسعة عشر ، قال تعالى : ﴿ **وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب** ﴾(٦١) . وقال تعالى : ﴿ **عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾(٦٢) . وقال أيضا : ﴿ **عليها تسعة عشر ۝ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة** ... ﴾(٦٣) . ونؤمن ايضا بالملائكة الموكلين بالجنان الذين يهيئون الضيافة لساكنيها . من ملابس ومآكل ومشارب ومصانع وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

---

(٥٦)انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ ص ١٥٧ . ومعنى (اسلم) أي استسلم وانقاد لي ، ولهذا قال (فلا يأمرني الا بخير) وليس المقصود ان الشيطان آمن لان الشياطين لا تكون مؤمنة . وقد روي بضم الميم ، فيكون الضمير فيه عائداً الي النبي ﷺ ، أي : أعانني عليه ، فأنا أسلم منه ، ولا يؤثر علي ـــ شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٣٩ .

(٥٧)السجدة ـ الآية ١١ .

(٥٨)أصول الايمان لمحمد بن عبد الوهاب ص ١٤ .

(٥٩)الحاقة ـــ الآية ١٧ .

(٦٠)أصول الايمان ص ١٤ .

(٦١)غافر ـــ الآية ٤٩ .

(٦٢)التحريم ـــ الآية ٦ .

(٦٣)المدثر ـــ الآية ٣٠ وبعض من الاية ٣١

اثر الإيمان بالملائكة في حياة الإنسان :

تقدم أن الله سبحانه لم يطلعنا على شيء من غيبه إلا وفيه نعمة عظيمة على الخلق وكان من فضله جل وعلا علينا أن عرفنا بهذه المخلوقات الكريمة . والإيمان بها هو من الإيمان بالغيب الذي وصف به المتقون ، قال تعالى : ﴿ **الم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾(٦٤) .

وللإيمان بالملائكة آثار عظيمة في حياة المؤمن :

منها : أن الله سبحانه جنبنا بما أطلعنا من أمر هذه الأرواح المؤمنة وأفعالها الوقوع في الخرافات والأوهام التي وقع فيها من لا يؤمنون بالغيب ، ولا يتلقون معارفهم عن الوحي الالهي .

ومنها : الإستقامة على أمر الله عز وجل ، فان من يستشعر بقلبه وجود الملائكة جنود الرحمن ، ويؤمن برقابتهم لأعماله وأقواله ، وشهادتهم على كل ما يصدر عنه ليستحيي من الله ومن جنوده ، فلا يخالفه ولا يعصيه ، لا في العلانية ، ولا في السر إذ كيف له ذلك وهو يعلم أن كل شيء محسوب ومكتوب ومشهود عليه .

ومنها : الصبر ، ومواصلة الجهاد في سبيل الله تعالى ، وعدم اليأس والشعور بالأنس ، والطمأنينة . فهذه المعاني من لوازم الإيمان بالملائكة ، وما أخبر الله من أفعالها وأحوالها : فعندما يضل الركب عن الطريق ، وتسود الجاهلية الجهلاء ويصبح المؤمن غريبا في وطنه ، وبين أهله وقومه ، ويجد منهم الصدود والاستهزاء ، والتخذيل والتثبيط عن طاعة الله والاستقامة على أمره ، في هذه الغربة يجد المؤمن أنيسا ورفيقا ، يصحبه ويرافقه ويواسيه ، ويصبره ، ويطمأنه ، ويشجعه على مواصلة السير على درب الهدى ، فهذه جنود الله معه : تعبد الله كما يعبد ، وتتجه إلى خالق السموات والأرض كما يتجه ، وتبارك خطواته ، وتشد من أزره ، وتذكره بالخير عند ربه فهو إذاً ليس وحده في الطريق الى الله ، ولكنه يسير مع الركب العظيم ، ومع الاكثرية من مخلوقات

---

(٦٤) البقرة — الآية ١ ، ٢ ، ٣ .

الله عز وجل : مع الملائكة الكرام ، ومع الأنبياء عليهم السلام ، ومع السموات والأرض فهو الأكثر رفيقا وهو الأقوى سندا . فتجعله هذه المشاعر الصادقة صابراً مطمئنا ، لا يزيده صدود الناس ، إلا ثباتا وجهادا .

فانظر يا أخي ، كم أنعم الله علينا بخلق الملائكة ، وكم أنعم علينا بالإيمان بهم مما له أشد الأثر في قلوبنا وأعمالنا واستقامة حياتنا . والإيمان بهم تصديق لقرآن الله ، ولرسوله الصادق الأمين ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

* * *

الإيمان بالأنبياء والمرسلين

ومن أركان الإيمان : الإيمان بأنبياء الله ورسله .

ومعناه : الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله وأنبيائه ، والإيمان بأن الله عز وجل أرسل رسلا سواهم ، وأنبياء لا يعلم عددهم وأسماءهم الا الله تعالى الذي أرسلهم . قال جلّ وعلا : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾[2] وقال أيضا : ﴿ **ولكل أمة رسول** ﴾[3] .

الأنبياء والرسل[4] المذكورون في القرآن :

والمذكورون في القرآن الكريم من الأنبياء والرسل خمسة وعشرون ، وهم : آدم ونوح وادريس وصالح وابراهيم وهود ولوط ويونس واسماعيل واسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون واليسع وذو الكفل وداود وزكريا وسليمان وإلياس ويحيى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقد ورد ذكر ثمانية عشر منهم في قوله تعالى : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم ◦ ووهبنا له إسحق ويعقوب ، كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون ، وكذلك نجزي المحسنين ◦ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، كل من الصالحين ◦ وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلًا فضلنا على العالمين** ﴾[5] .

---

(١) غافر — الآية ٧٨ .

(٢) فاطر — الآية ٢٤ .

(٣) يونس — الآية ٤٧ .

(٤) النبي هو كل من أوحي اليه من الله تعالى ، سواء أمر بتبليغ غيره ، أم لم يؤمر ، فان لم يؤمر بالتبليغ فهو نبي وليس رسولا ، وان امر بالتبليغ فهو نبي ورسول ، وهكذا فان كل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولًا — انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٧ ، وشرح ملا علي القاري على الفقه الاكبر ص ٦٠ .

(٥) الانعام — الآيات ٨٣ — ٨٦ .

وورد ذكر الآخرين في مواضع من القرآن : قال تعالى : ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودا** ﴾[٦] .

وقال : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا** ﴾[٧] . وقال ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا** [٨]

وقال : ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا** ﴾[٩] .

وقال : ﴿ **وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين** ﴾[١٠] .

وقال : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾[١١] .

فهؤلاء الرسل والأنبياء يجب الإيمان برسالتهم ونبوتهم تفصيلا ، بمعنى أن الإنسان لو عرض عليه واحد منهم ، لم ينكر نبوته ، ولا رسالته ، إن كان رسولا ، فمن أنكر نبوة واحد منهم ، أو أنكر رسالة من بعث منهم برسالة ، كفر[١٢] .

وأما الأنبياء والرسل الذين لم يقصصهم القرآن علينا ، فقد أمرنا أن نؤمن بهم إجمالا . وليس لنا أن نقول برسالة أحد من البشر أو نبوته مادام القرآن لم يذكره في عداد الأنبياء والرسل ، ولم يخبرنا به رسول الله ﷺ .

* * *

---

(٦) هود ــ الآية ٥٠ ، الاعراف ــ الآية ٦٥ .

(٧) هود ــ الآية ٦١ ، الاعراف ــ الآية ٧٣ .

(٨) الاعراف ــ الآية ٨٥ ، هود ــ الآية ٨٤ .

(٩) آل عمران ــ الآية ٣٣ .

(١٠) الأنبياء ــ الآية ٨٥ .

(١١) الفتح ــ الآية ٢٩ .

(١٢) غير أن العامي لا يحكم عليه بالكفر إلا إذا كان انكاره بعد تعلمه ــ شرح البيجوري على الجوهرة ص ٤٧ .

أولو العزم[13] من الرسل :

وأولو العزم من الرسل ، كما ذكر كثير من العلماء ، خمسة هم : محمد ، وابراهيم ، وموسى ، ونوح ، وعيسى ، عليهم أفضل الصلاة والسلام[14] . وقد ذكرهم الله تعالى في قوله : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم** ﴾[15] .

موضوع الرسالة :

ويجب علينا أن نؤمن بأن الله بعث رسله الى الخلق لتبشيرهم وإنذارهم ، بتبشيرهم برضوان الله وثوابه وجنته ، إن آمنوا به وبرسله وأطاعوه ، وإنذارهم من غضب الله إن كفروا وعصوا . قال عز وجل : ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون** ﴾[16] .

كما يجب علينا أن نؤمن بأن جميع هؤلاء الرسل بعثهم الله لتحقيق غرض أساسي واحد هو عبادة الله عز وجل ، وإقامة دينه ، وتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، فقد قال سبحانه : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[17] ، وقال أيضا : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾[18] . وقال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[19] .

---

(13) أصل العزم في الأمر : الجد والاجتهاد فيه ــ انظر المصباح المنير . وقد ورد في القرآن الإشارة الى أن من أهم خصال العزم الصبر وتقوى الله : قال تعالى : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾ آل عمران ــ الآية ٤٣ . وقال ايضا : ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾ ــ الأحقاف ــ الآية ٣٥ . وقال أيضا : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما** ﴾ ــ طه الآية ١١٥ .

(14) أنظر الاسئلة والاجوبة الاصولية ص ٢٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٤٩ .

(15) الاحزاب ــ الآية ٧ .

(16) الانعام ــ الآيتان ٤٨ ، ٤٩ .

(17) الانبياء ــ الآية ٢٥ .

(18) الشورى ــ الآية ١٣ .

(19) النحل ــ من الآية ٣٦ .

الواجب علينا نحو الرسل :

ويجب علينا تصديق رسل الله جميعا ، بعد الإيمان بهم وبرسالتهم ، وأن لا نفرق بينهم ، فمن فرق بين رسل الله ، فآمن ببعضهم ، وكفر بالآخرين ، أو صدق بعضهم وكذب بعضا ، كان من الكافرين ، بنص القرآن الكريم ، قال عز وجل : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا** ... ﴾(٢٠) .

كما يجب علينا أن نؤمن بأن كل رسول أرسله الله أدى أمانته ، وبلغ رسالته على الوجه الأكمل ، وبينها بيانا واضحا شافيا كافياً .

ويجب علينا طاعتهم ، وعدم مخالفتهم ، لأن ذلك من طاعة الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾(٢١) . وقال أيضا : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله** ﴾(٢٢) .

ويجب علينا أن نعتقد بأنهم أكمل الخلق علما وعملا ، وأصدقهم ، وأكملهم أخلاقا وأن الله سبحانه خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد ، وأنه عصمهم ونزههم عن الكذب والخيانه والكتمان والتقصير في التبليغ ، وعن الكبائر كلها والصغائر(٢٣) . وقد تقع منهم زلات وخطيئات ، أي عثرات بسيطة بالنسبة إلى ما هم عليه من علو المقامات ، كما وقع لآدم عليه السلام في أكله من الشجرة على وجه النسيان(٢٤) . ولكنهم لا يقرون عليها بل يوفقون للتوبة منها .

---

(٢٠) النساء ــ الآيتان ١٥٠ ، ١٥١ . وقال الإمام الطبري عند قوله : ﴿ **ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض** . . . ﴾ يعني أنهم يقولون : نصدق بهذا ونكذب بهذا ، كما فعلت اليهود من تكذيبهم عيسى ومحمداً ﷺ وتصديقهم بموسى وسائر الانبياء قبله بزعمهم ، وكما فعلت النصارى من تكذيبهم محمداً ﷺ وتصديقهم بعيسى وسائر الانبياء قبله بزعمهم ــ انظر تفسير الطبري جـ ٩ ص ٣٥٢ .

(٢١) النساء ــ الآية ٨٠ .

(٢٢) النساء ــ الآية ٦٤ .

(٢٣) انظر : الفقه الأكبر وشرحه لملا علي القاري ص ٥٦ .

(٢٤) انظر الفقه الأكبر لأبي حنيفة وشرحه ملا علي القاري ص ٥٧ ، وشرح العقائد النفسية ص ٤٦٧ .

كما يجب علينا أن نؤمن بأن رسل الله جميعا كانوا رجالا من البشر ، فلم يكونوا من الملائكة ، ولم يبعث الله أنثى . قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم** ﴾[٢٥] .

ونؤمن أن الله سبحانه لم يخصهم بطبائع أخرى غير الطبائع البشرية ، وإنما اختارهم سبحانه من الرجال ، الذين يأكلون ويشربون ، ويمشون في الأسواق ، وينامون ويجلسون ويضحكون ، ولهم أزواج وذرية ، ويتعرضون للأذى ، وتمتد إليهم أيدي الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وأنهم يموتون ، وقد يقتلون بغير حق ، وأنهم يتألمون ويصيبهم المرض وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العلية بين ، الخلق . وقد دل على ذلك كثير من النصوص ، منها : قوله تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين** ﴾[٢٦] . وقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ، ويمشون في الأسواق** ﴾[٢٧] . وقوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك ، وجعلنا لهم أزواجا وذرية** ﴾[٢٨] . وقوله تعالى : ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسول وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام** ﴾[٢٩] . وقد قال رسول الله ﷺ : (ولكني أصوم وأفطر ، واصلي وأرقد وأتزوج النساء)[٣٠] . وكان ﷺ يمرض ويتألم ، وكان يصيبه الحر والبرد والجوع والعطش والغضب والضجر والتعب ، ونحو ذلك مما لا نقص عليه فيه[٣١] ،

ونؤمن أنهم لا يملكون شيئا من خصائص الألوهية ، فلا يتصرفون في

---

(٢٥) الأنبياء — الآية ٧ .

(٢٦) آل عمران — الآية ١٤٤ .

(٢٧) الفرقان — الآية ٢٠ .

(٢٨) الرعد — الآية ٣٨ .

(٢٩) المائدة — الآية ٧٥ .

(٣٠) اخرجه البخاري في أول كتاب النكاح .

(٣١) يظهر ذلك جليا من دراسة سيرته عليه الصلاة والسلام . وقد أفردت مصنفات وكتب جليلة في شمائله ﷺ . وأخباره وأحواله — أنظر مثلا كتاب الترمذي (الشمائل النبوية) . وكتاب (الوفا بأحوال المصطفى) لابن الجوزي . وغيرها .

الكون ، ولا يملكون النفع أو الضرر ، ولا يؤثرون في إرادة الله تعالى ، ولا يعلمون الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه ، قال تعالى : ﴿ **قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير ، وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون** ﴾(٣٢) . وقال أيضا ﴿ **عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا ۝ إلا من ارتضى من رسول** ﴾(٣٣) . وإنما خصهم الله عز وجل بمؤهلات من المزايا والفضائل والأخلاق ، تؤهلهم لتلقي الوحي ، والاضطلاع بأعباء الرسالة ليكونوا قدوة للناس وأسوة ، يقتدى بهم في أمور الدين والدنيا ، فيجب علينا ، أن نؤمن بأن رسل الله معصومون عن أية نقيصة تقدح في دينهم وطاعتهم لله جل وعلا ، أو في مقدرتهم على تبليغ الرسالة التي حملوها(٣٤) . فقد قال سبحانه في حقهم : ﴿ **أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . أولئك الذين هدى الله ، فبهداهم اقتده** ﴾(٣٥) ، فهم قد كملهم الله سبحانه في الأمانة والصدق والفطانة والتبليغ وغيرها من الأخلاق التي لا بد منها للقيام بالحمل الذي حملهم الله اياه ، وبالمسؤولية التي أناطها بهم . وقد شهد الله تعالى لهم بالصدق ، فقال عز شأنه عن إسماعيل عليه السلام : ﴿ **إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا** ﴾(٣٦) ، وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ **واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا** ﴾(٣٧) إلى غير ذلك من الآيات الربانية التى شهدت لهم بالصدق والهدى .

ويجب علينا أن نؤمن بأن الله سبحانه أيدهم بالمعجزات الباهرات ، والآيات الظاهرات ، الدالة على صدقهم فيما جاءوا به من عند ربهم تبارك وتعالى . والمعجزات هي ما يجريه الله على أيدي رسله وأنبيائه من خوارق

---

(٣٢)الاعراف ـــ الآية ١٨٨ .

(٣٣)الجن ـــ الايتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٣٤)انظر شرح النووي على صحيح مسلم جـ ٣ ص ٥٣ .

(٣٥)الانعام ـــ الآيتان ٨٩ ، ٩٠ .

(٣٦)مريم ـــ الآية ٥٤ .

(٣٧)مريم ـــ الآية ٤١ .

العادات التي يَتَحَدَّوْنَ بها العباد[٣٨] . فنؤمن بكل ما ذكر في القرآن الكريم منها ، وبما وردت فيه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

وهذا القدر من المزايا يتساوى فيه جميع من اصطفى الله من الرسل ، ونؤمن مع هذه المماثلة أن الله فضل بعضهم على بعض ، لقوله عز من قائل : ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض : منهم كلم الله ، ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس** ﴾[٣٩] . ونؤمن أن أفضلهم وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا محمد بن عبد الله ﷺ ، وقد فسر بعض السلف قوله تعالى : ﴿ **ورفع بعضهم درجات** ﴾ بأنه سيدنا محمد ﷺ[٤٠] . وفي ذلك أحاديث صحيحة ، منها : ما صح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول لله ﷺ قال : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع)[٤١] . وما رواه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال : سمعت رسول لله ﷺ يقول : (إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم)[٤٢] . فهذه الأحاديث وغيرها تدل بوضوح على أن محمد بن عبد الله ﷺ هو أفضل الخلق كلهم[٤٣] .

* * *

---

(٣٨)انظر لمع الادلة لامام الحرمين ص ١١٠ .

(٣٩)البقرة ــ الآية ٢٥٣ .

(٤٠)انظر تفسير الطبري ج ٥ ص ٣٧٨ .

(٤١)اخرجه الامام مسلم وغيره : انظر صحيح بشرح النووي ج ١٥ ص ٣٧ ، ٣٨ .

(٤٢)اخرجه الامام مسلم والترمذي ، وقال عنه : حديث حسن صحيح ــ انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ج ٥ ص ٢٦ ، والترمذي بشرح ابن العربي المالكي ج ١٣ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٤٣)وأما ما ورد عن رسول الله ﷺ انه قال (لا تفضلوني على موسى) وهو حديث متفق عليه ، فالجواب عليه أن المذموم الذي نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام هو التفضيل على وجه الفخر ، أو على وجه الانتقاص بالمفضول ، فان الحديث المذكور كان له سبب يدل على هذا ، فانه كان قد قال يهودي : لا والذي اصطفي موسى على البشر فلطمه ، مسلم ، وقال : اتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، فجاء اليهودي واشتكى من المسلم الذي لطمه ، فقال النبي ﷺ هذا ــ وعلى هذا نحمل أيضا قوله ﷺ (لاتفضلوا بين انبياء الله) ــ انظر صحيح مسلم وشرح النووي عليه ج ١٥ ص ٣٧ ، ١٢٠ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٠ ، ١٧١ .

الإيمان بمحمد ﷺ :

ويجب علينا أن نؤمن بأن محمد بن عبد الله ﷺ نبي الله ورسوله وعبده وصفيه ، ولم يعبد صنما ، ولم يشرك بالله طرفة عين قط ، ولم يرتكب صغيرة ولا كبيرة قط(٤٤) .

ونؤمن أنه خاتم الأنبياء ، لما ورد في كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ : فأما القرآن فقد قال سبحانه : ﴿ **ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾(٤٥) . وأما السنة ، فقد قال ﷺ : (مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، قال : فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)(٤٦) ، وقال أيضا : (أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحي بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي(٤٧) ، وأنا العاقب ، والعاقب الذي ليس بعده نبي)(٤٨) .

ونعتقد اعتقادا جازما أنه لا نبوة بعده ﷺ ، وأن كل من ادعاها بعده فهو كذاب ، قال رسول لله ﷺ : (وأنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبين لا نبي بعدي)(٤٩) .

كذلك يجب أن نؤمن بأنه عليه الصلاة والسلام إمام المتقين ، الذي يقتدى به في الخير كله ، وأنه وحده الجدير بالاقتداء والتأسي به دون غيره ، قال تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** (٥٠)وقال ايضا ، ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما** ﴾(٥١) .

---

(٤٤)انظر الفقه الاكبر مع شرحه ملا علي القاري ص ٥٩ ـــ ٦١ .
(٤٥)الاحزاب ـــ من الآية ٤٠ .
(٤٦)متفق عليه واللفظ لمسلم ـــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٥ ص ٥١ .
(٤٧)ورد في رواية اخرى (يحشر الناس على قدمي) ، ومعناها : يحشرون على اثري وزمان نبوتي وليس بعدي نبي ، وقيل : يتبعوني ـــ انظر شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٥ ص ١٠٥ .
(٤٨)متفق عليه واللفظ لمسلم ـــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٥ ص ١٠٤ .
(٤٩)أخرجه مسلم ـــ شرح العقيدة الطحاوية ص ١٦٨
(٥٠)آل عمران ـــ الآية ٣١ .
(٥١)النساء ـــ الآية ٦٥ .

كما نؤمن أنه عليه الصلاة والسلام حبيب الرحمن ، وأن له أعلى مراتب محبة الله عز وجل ، وهي الخلة ، فقد قال رسول الله ﷺ : (لو كنت متخذا خليلا لا تخذت أبا بكر خليلا ، ولكنه أخي وصاحبي وقد اتخذ الله عز وجل صاحبكم خليلا)(٥٢) .

كما يجب أن نعتقد أنه مبعوث الى عامة الجن وكافة الورى بالحق والهدى : فقد حكى الله سبحانه في القرآن قول الجن : ﴿ **يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم** ﴾(٥٣) .

وأما أنه صلوات الله وسلامه عليه مبعوث للناس جميعا ، فقد قال سبحانه وتعالى في ذلك : ﴿ **وما أرسلناك إلّا كافة للناس بشيرا ونذيرا** ﴾(٥٤) ، وقال : ﴿ **قل : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا** ﴾(٥٥)وقال أيضا : ﴿ **تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيرا** ﴾(٥٦) . وقال ﷺ : (فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون)(٥٧) . قال شارح العقيدة الطحاوية : (وكونه ﷺ مبعوثا إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة)(٥٨) .

ويجب علينا أن نقدم محبته على الوالد والولد والنفس(٥٩) ، عن أنس رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى أكون

---

(٥٢)صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٥ ص ١٥٢ .
(٥٣)الاحقاف ــ الآية ٣١ .
(٥٤)سبأ ــ الآية ٢٨ .
(٥٥) الاعراف ــ من الآية ١٥٨ .
(٥٦)الفرقان ــ الآية ١ .
(٥٧) متفق عليه واللفظ لمسلم ــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ٥ ص ٥ . هذا وقد ذكر ابن الجوزي كثيرا مما فضّل به محمد ﷺ على عدد من الأنبياء والرسل ، في آخر الجزء الأول من الوفا بأحوال المصطفى .
(٥٨)شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧٨ .
(٥٩)انظر الوفا بأحوال المصطفى جـ ١ ص ٣٨٢ .

أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين)(٦٠) . وعن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له عمر : يا رسول الله : لأنت أحب إلي من كل شي إلا نفسي . فقال النبي ﷺ : (لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك) ، قال عمر : فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي . فقال النبي ﷺ : (الآن يا عمر)(٦١) .

كذلك يجب علينا أن نؤمن بأن الله جل وعلا قد أيده بالمعجزات الدالة بيقين على صدقه ﷺ في كل ما جاء به ، وأن القرآن العظيم معجزته الباهرة ، تحدى به العالمين ، فعجزوا عن الإتيان بمثله ، أو بمثل ، بعض منه ، قال تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم ، من دون الله ، إن كنتم صادقين ۝ فإن لم تفعلوا ۝ ولن تفعلوا ۝ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ۝ أعدت للكافرين** ﴾(٦٢) .

ونؤمن أن الله عز وجل أيده بالمعجزات الحسية ، المذكورة في الأحاديث الصحيحة ، مثل انشقاق القمر ، وتسليم الحجر عليه ، وحنين الجذع إليه ، ونبوع الماء من بين أصابعه ، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل ، وشهادة الشاة المشوية أمامه ، واظلال السحاب له قبل مبعثه ، وما كان من حال أبي جهل وصخرته حين أراد أن يضربها على رأسه ، وما كان من شاة أم معبد حين مسح بيده المباركة على ضرعها ، ورمية التراب في وجوه المشركين ، وإصابتهم به ، وإخباره بالمغيبات التي وقعت كما أخبر عليه الصلاة والسلام ، واستجابة الله سبحانه لدعائه ، وعصمته من القتل ، وغير ذلك مما ألفت فيه الكتب ، وصنفت فيه المصنفات الواسعة)(٦٣) .

(٦٠) متفق عليه — انظر : صحيح البخاري ج ١ ص ٤٩ ، وصحيح مسلم بشرح النووي ج ٢ ص ١٥ .

(٦١) أخرجه البخاري في كتاب الايمان والنذور .

(٦٢) البقرة — الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

(٦٣) تجد هذه المعجزات وغيرها من دلائل نبوة محمد ﷺ في كثير من كتب السيرة ، والحديث ، كما أفرد البخاري بابا لذلك سماه (باب علامات النبوة) ، وكذلك صنع مسلم بن الحجاج القشيري في باب (معجزات الرسول ﷺ) ، وأفرادها بعض العلماء مؤلفات خاصة مثل : كتاب (دلائل

وقد ورد في معجزاته الحسية أخبار كثيرة ، بعضها متواتر ، وكثير منها مشهور وهي في مجموعها تفيد العلم اليقيني ، بوقوع تلك المعجزات أولا ، وصدق هذا الرسول صلوات الله وسلامه عليه(٦٤) .

كما نؤمن أن الله سبحانه قد أيده بالحجج البالغة ، والأدلة الظاهرة ، الماثلة في ذاته وصفاته وأخلاقه .

فنؤمن أن الله عز وجل حباه خلقة وصورة ، يحكم المتفرس فيها بأنها دالة على نبوته ، وصدقه عليه الصلاة والسلام(٦٥) ، وما أحسن قول حسان بن ثابت رضي الله عنه :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

ونؤمن بان الله سبحانه وتعالى حباه أخلاق القرآن كلها ، مما يدل على صدقه وتأييد الله له : فما سمع أحد منه كذبا ، لا في أمور الدين ، ولا في أمور الدنيا ، ولا قبل البعثة ولا بعدها ، ولو صدر عنه شيء من ذلك مرة واحدة لاجتهد أعداؤه في نشره وإظهاره . وما فعل فعلا قبيحا أو منفرا ، لا قبل النبوة ولا بعدها ، وما فر عن أحد من أعدائه مهما عظم الخوف واشتد الأمر مثل يوم أحد ويوم الأحزاب . وكان عظيم الرحمة والشفقة بأمته ، حتى خاطبه ربه تبارك وتعالى بالتخفيف من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾(٦٦) ، وقال أيضا : ﴿ **عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم** ﴾(٦٧) ، وكان في أعظم درجات الكرم والسخاء ، وكان زاهدا في الدنيا ، قانعا باليسير منها ، لا يدخر شيئا ، وكان في غاية الفصاحة ، وأعطي جوامع الكلم ، وكان حليما صفوحا ، لا يغضب الالله تعالى ، متواضعا للمؤمنين ، عابدا لله ، مجاهدا في سبيله متوكلا عليه . وقد

= النبوة) للامام ابي نعيم احمد بن عبد الله الاصبهاني صاحب حلية الاولياء ، وكتاب (اعلام النبوة) لابي الحسن علي بن محمد الماوردي ، وكتاب (دلائل النبوة) للبيهقي ، وكتاب (الوفا بأحوال المصطفى) لابن الجوزي .

(٦٤)انظر : الوفا بأحوال المصطفى جـ ١ ص ٣٣٩ .

(٦٥)ايثار الحق على الخلق ص ٨٠ .

(٦٦) فاطر ــ من الآية ٨ .

(٦٧)التوبة ــ الآية ١٢٨.

ظل عليه صلوات الله وسلامه على صفاته وأخلاقه الربانية من أول عمره الى آخره ، ما غير ولا بدل ، وهذا ما أشار اليه تعالى في قوله : ﴿ **وما أنا من المتكلفين** ﴾(٦٨) . والمتكلف لا يمكنه الثبات على ذلك طول عمره . وقد كان فى هذه الخصال وغيرها من الأخلاق الكريمة ، فى كل واحدة منها في الغاية القصوى من الكمال ولا يتفقُ ذلك لأحد من الخلق ، غير اوْلئك الذين عصمهم الله تعالى . فكان اجتماع هذه الصفات والأخلاق له عليه الصلاة والسلام من أعظم دلائل نبوته(٦٩) .

ولهذا فانا نجد كثيرا من العقلاء قد حكموا بصدقه عليه الصلاة والسلام ، لما يعرفونه من أخلاقه ، وصدقه ، وسيرته العطرة : فهذه خديجة رضي الله تعالى عنها ، لما كانت تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق الامين ، فعندما أخبرها بما لقيه من الوحي ، وقال لها : (إني قد خشيت على نفسي) ، قالت : (كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق)(٧٠) .

وكذلك هرقل ملك الروم ، فان النبي ﷺ لما كتب إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام ، طلب من كان في بلاده من العرب ، وكان أبو سفيان في طائفة من قريش في تجارة إلى بلاد الشام ، فاستدعاهم هرقل إلى مجلسه ، وحوله

عظماء الروم ودعا بترجمانه وشرع يسألهم عن أحوال النبي ﷺ ، فيصل بعد ما سمع منهم إلى نتيجة قاطعة ، وهي : أن ما سمع من أحوال محمد ﷺ وصفاته وسيرته فيهم لتدل على صدقه فيما جاء به ، وأنه نبي مرسل . ومن المفيد في هذا المقام أن نثبت هذا الحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان كما نقله إمام المحدثين وأميرهم ، البخاري في صحيحه ، لما فيه من العظة والعبرة ، والدليل على أن رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، قد أنعم عليه ربه تبارك وتعالى بالحجج البالغة والبراهين القاطعة على صدقه ، الماثلة في أخلاقه وصفاته وأحواله ، فضلا عما أيده به من القرآن العظيم والمعجزات

---

(٦٨)ص ــ الآية ٨٦ .

(٦٩)انظر ايثار الحق على الخلق ص ٨٠ .

(٧٠)أخرجه البخاري ــ انظر : صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١ ص ٢٠ .

الزاهرة : فقد قال البخاري رحمه الله تعالى : (حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، قال أخبرنا شعيب عن الزهري ، قال : أخبرنا عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجارا بالشام في المدة(٧١) التي كان رسول الله ﷺ هادن فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه :

فقال :أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم إنه نبي ؟

فقال أبو سفيان : فقلت أنا أقربهم نسبا .

فقال :أدنوه مني ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره . ثم قال لترجمانه : قل لهم : إني سائل هذا عن هذا الرجل ، فإن كذبني فكذبوه ـــ فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبا لكذبت عنه(٧٢) ـــ ثم كان أول ما سألني عنه أن :

قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب .

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟

قلت : لا

قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟

قلت : لا .

قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

قلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ .

قلت : بل يزيدون .

قال . فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟

قلت : لا .

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قلت : لا .

---

(٧١) يعني مدة صلح الحديبية .

(٧٢) الكلام لأبي سفيان .

قال : فهل يغدر ؟
قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .
قال ابو سفيان :ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة .
قال هرقل : فهل قاتلتموه ؟
قلت : نعم .
قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟
قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .
قال : ماذا يأمركم ؟
قلت : يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، واتركوا ما يقول آباؤكم ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها . وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ، فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يأتي بقول قبله . وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ، فذكرت أن لا ، قلت لو كان من آبائه ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه . وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم اتباع الرسل . وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ، فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب . وسألتك : هل يغدر ، فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك : بم يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص اليه ، لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه ....)[٧٣] .

(٧٣)انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١ ص ٢٦ ــ ٣١ .

الإيمان بكتب الله عز وجل

ومن أركان الإيمان ، أن نؤمن بالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله . فكما أن الله عز وجل قد أنزل القرآن على محمد ﷺ ، فقد أنزل كتبه من قبل على سائر الرسل .

ومن هذه الكتب ما سماه الله في القرآن الكريم ، ومنها ما لم يسم . والذي أخبرنا به عز وجل منها :

١ ــ التوراة التي أنزلت على موسى عليه السلام ، حيث قال سبحانه ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار . بما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء** ﴾[١] .

٢ ــ والإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام ، حيث قال تعالى : ﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين** ﴾[٢] .

٣ ــ والزبور الذي نزل على داود عليه السلام قال تعالى ﴿ **وآتينا داود زبورا** ﴾[٣] .

٤ ــ والصحف التي أنزلها الله على إبراهيم وموسى ، التي أخبر عنها الله تعالى بقوله : ﴿ **أم لم ينبأ بما في صحف موسى ۝ وابراهيم الذي وفى ۝ ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ۝ وأن سعيه سوف يرى ۝ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى** ﴾[٤] . وبقوله أيضا : ﴿ **قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ۝ بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى . إن هذا لفي الصحف**

---

(١) المائدة ــ الآية ٤٤ .

(٢) المائدة ــ الآية ٤٦ .

(٣) الاسراء ــ الآية ٥٥ .

(٤) النجم ــ الآيات ٣٦ ــ ٤٢ .

الأولى ، صحف إبراهيم وموسى ﴾[٥] .

وأما الكتب الأخرى التي نزلت على سائر الرسل ، فلم يخبرنا الله تعالى عن أسمائها ، وإنما أخبرنا سبحانه أن لكل نبي أرسله الله ، رسالة بلغها قومه ، فقال : **﴿ كان الناس أمة واحدة ، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ° وأنزل معهم الكتاب بالحق ° ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾**[٦]فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التي لم تسم إجمالا ، ولا يجوز لنا أن ننسب كتابا إلى الله تعالى سوى ما نسبه إلى نفسه مما أخبرنا عنه فى القرآن الكريم :

كما يجب أن نؤمن بأن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى ، وتوحيد الله سبحانه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، وأن ما نسب إليها مما يخالف ذلك إنما هو من تحريف البشر وصنعهم . قال تعالى عن التوراة : **﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ﴾**[٧] . وقال تعالى عن الإنجيل : **﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة . وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾**[٨] .

ويجب علينا أن نؤمن بأن القرآن العظيم هو آخر كتاب نزل من عند الله تعالى ، وأن الله عز وجل قد خصه بمزايا تميز بها عن جميع ما تقدمه من الكتب المنزلة من أهمها :

١ ــ أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلهية ، وجاء مؤيدا ومصدقا لما جاء في الكتب السابقة من توحيد الله وعبادته ووجوب طاعته . وجمع كل ما كان متفرقا في تلك الكتب من الحسنات والفضائل . وجاء مهيمنا ورقيبا ، يقر ما فيها من حق ، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير ، قال تعالى : **﴿ وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾**[٩] . وانه جاء بشريعة عامة للبشر فيها كل ما

---

(٥) الاعلى ــ الآيات ١٤ ــ١٩ .

(٦) البقرة ــ الآية ٢١٣ .

(٧) المائدة ــ الآية ٤٤ .

(٨) المائدة ــ الآية ٤٦ .

(٩) المائدة ــ الآية ٤٨ .

يلزمهم لسعادتهم في الدارين ، نسخ بها جميع الشرائع العملية الخاصة بالأقوام السابقة ، وأثبت فيها الأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان .

٢ ــ إن القرآن هو الكتاب الرباني الوحيد الذي تعهد الله بحفظه ، فقال عز من قائل : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[١٠] ، وقال أيضا : ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد** ﴾[١١] .

وهذه مزية متفرعة عن مزية أخرى ، وهي أن القرآن أنزله الله على رسوله محمد ﷺ للناس كافة ، وليس خاصا بقوم معينين ، كما كانت تنزل الكتب السابقة فكان حفظه من التحريف ، وصيانته من عبث الناس ، ليبقى ما فيه حجة الله على الناس ، قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وأما الكتب الأخرى ، فقد وجه الكلام في كل واحد منها إلى أمة خاصة دون سائر الأمم . وهي وإن اتفقت في أصل الدين ، إلا أن ما نزل فيها من الشرائع والأحكام كان خاصا بأزمنة معينة وأقوام معينين ، قال تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾[١٢] . لذلك لم يتعهد الله سبحانه بحفظ أي منها على مدى الأزمان كما هو الحال بالنسبة للقرآن . بل أخبر عز وجل في آخر كتبه عن التحريف الذي وقع على تلك الكتب : فعن التحريف والتغيير الذي . أدخله اليهود على التوراة قال سبحانه : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ، وهم يعلمون** ﴾[١٣] . وقال أيضا : ﴿ **من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه** ﴾[١٤] .

وأما عن التحريف الذي أدخله النصارى على الإنجيل قال تعالى : ﴿ **ومن**

---

(١٠) الحجر ـ الآية ٩ .

(١١) فصلت ــ الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

(١٢) المائدة ــ الآية ٤٨ .

(١٣) البقرة ــ الآية ٧٥ .

(١٤) النساء ــ الآية ٤٦ .

الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم ، فنسوا حظا مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء ، إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون . يأأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾(١٥) .

هذا ومن التحريفات التي أدخلها اليهود والنصارى في دينهم ما زعمه اليهود من أن العزير ابن الله سبحانه ، وما زعمه النصارى أن المسيح ابن الله ، قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾(١٦) . فصحح لهم القرآن هذا الانحراف الذي صنعوه بأنفسهم ، فبين لهم أن الله سبحانه منزه عن أن يكون له ولد ، فقال تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد** ﴾(١٧) . وقرر أن الرسل جميعا بشر ، خصهم الله بالوحي ، وبما يؤهلهم لتلقيه وتبليغه للناس ، قال سبحانه مخاطبا رسوله ﷺ : ﴿ **قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم أله واحد** ﴾(١٨) .

ومن التحريف الذي اقترفه النصارى ، واخبرنا به الله عز وجل في القرآن الكريم ما أدخلوه على حقيقة النبوة * من تأليه جماعة منهم لعيسى ابن مريم ، وقول بعضهم بالتثليث ، قال تعالى : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾(١٩) . وقال أيضا : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلّا إله واحد** ﴾(٢٠) فجاء القرآن الكريم ، وبين هذا التحريف وبين العقيدة السليمة عن عيسى وأمه ، فقال تعالى : ﴿ **وما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى**

---

(١٥) المائدة — الآيتان ١٤ ، ١٥ .

(١٦) التوبة — الآية ٣٠ .

(١٧) سورة الاخلاص .

(١٨) الكهف — الآية ١١٠ .

(١٩) المائدة — الآية ٧٢ .

(٢٠) المائدة — الآية ٧٣ .

يؤفكون ﴾(٢١) .

والحق الذي لا يمارى فيه منصف أنه لا يوجد اليوم على ظهر الأرض كتاب تصلح نسبته إلى الخالق تبارك وتعالى سوى القرآن الكريم يدل على هذه الحقيقة أدلة حسية فضلا عما أخبر به القرآن عن التحريف الواقع في الكتب الموجودة ، من هذ الادلة :

أ ــ أن الكتب التى نزلت قبل القرآن ، قد ضاعت نسخها الأصلية ، ولم يبق في أيدي الناس إلا تراجمها . أما القرآن فإنه لا يزال محفوظا بسوره وآياته وكلماته وحركاته ، كما تلاه جبريل على رسول الله ﷺ ، وكما تلاه رسول الله ﷺ على صحابته رضوان الله عليهم(٢٢) .

ب ــ أن هذه الكتب قد اختلط فيها كلام الله بكلام الناس : من تفسير وتاريخ وسير الأنبياء وتلاميذهم ، واستنباطات الفقهاء ، فلا يعرف فيهاكلام الله من كلام البشر . وأما القرآن فهو جميعه كلام الله تعالى ، ولم يختلط به غيره من حديث الرسول ﷺ أو أقوال الصحابة ، أو غيرهم،(٢٣) ، قال أبو الوفا علي بن عقيل : (إذا أردت أن تعلم أن القرآن ليس من قول رسول ﷺ ﷺ إنما هو ملقي عليه ، فانظر إلى كلامه كيف يمتاز عن القرآن ، وتلمح ما بين الكلامين والأسلوبين ، ومعلوم أن كلام الإنسان يتشابه ، وما للنبي ﷺ كلمة تشاكل القرآن)(٢٤) ، وقال ايضا : (ومن إعجاز القرآن أنه لا يمكن أحد أن يستخرج منه آية قد أخذ معناها من كلام قد سبق ، ، فانه مازال الناس يكشف بعضهم عن بعض ، فيقال مثلا ، المتنبي أخذ من البحتري)(٢٥) .

جـ ــ أن تلك الكتب ليس منها كتاب تصح نسبته إلى الرسول الذي ينسب إليه ، فليس لأي منها سند تاريخي موثوق ، فالأسفار الموجودة ضمن ما يسمى بالعهد القديم ، ويطلق عليه التوراة ، إنما دونت بعد موسى عليه السلام

(٢١) المائدة ــ الآية ٧٥ .

(٢٢) مبادىء الاسلام ، المودودي ص ٧٧ .

(٢٣) المرجع السابق .

(٢٤) انظر : الوفا بأحوال المصطفي جـ ١ ص ٢٧٠ .

(٢٥) المرجع السابق .

بقرون عديدة يقول محمد فريد وجدى نقلا عن دائرة معارف لاروس ما خلاصته : (العلم العصري ولا سيما النقد الألماني أثبت بعد ابحاث مستفيضة فى الآثار القديمة والتاريخ وعلم اللغات أن التوراة لم يكتبها موسى عليه السلام ، وأنها عمل أحبار لم يذكروا اسمهم ، ألفوها على التعاقب ، معتمدين فى تأليفها على روايات سماعية ، سمعوها قبل أسر بابل ، بل ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الأسفار الخمسة ليس فيها كل الروايات الإسرائيلية ، ولكنها تحتوي على إشارات ورموز وحكايات)(٢٦) .

وأما القرآن العظيم فهو الكتاب الوحيد الذي ثبتت نسبته بصورة قطعية إلى الرسول الذي أوحي إليه ، وهو محمد ﷺ ، فقد نقل هذا الكتاب بسوره وآياته ، وطريقة ترتيبها ، وكيفية تلاوته إلى كل عصر جاء بعد عصر نزوله ، بالتواتر ، بحيث لا يشك في أن القرآن الذي نتلوه هو الذي نزله الله على رسوله الكريم ﷺ(٢٧) .

د ـــ ومن الأدلة على وقوع التحريف في تلك الكتب تعدد نسخها واختلافها فيما نقلته من الأقوال والآراء(٢٨) .

هـ ـــ ومن القرائن القاطعة على وقوع التحريف في هذه الكتب ما تضمنته من العقائد الفاسدة والتصورات الباطلة عن الخالق سبحانه ، وعن رسله الكرام عليهم السلام ، فإنك تجد فيها تشبيه الخالق بالإنسان ، والقدح بالأنبياء بما يمس شرفهم ويتنافى مع عصمتهم(٢٩) .

---

(٢٦)انظر : العقائد الاسلامية لنديم الملاح ص ٥٧ .

(٢٧)مبادىء الاسلام ـــ المودودي ص ٧٨ .

(٢٨)انظر : العقائد الإسلامية ـــ سيد سابق ص ١٦٨ ، فقد جاء فيها : ويكفي لصحة التدليل على التحريف في الاناجيل المتداولة بأيدى النصارى الآن ، أنهاأربعة اختيرت من نحو سبعين انجيلا ، وهذه الأناجيل تناولت الكتابة عن سيرة سيدنا عيسى عليه السلام ، ومؤلفوها معروفون ، وأسماؤهم مكتوبه عليها ، وقد قرر نقاد المسيحين أنفسهم أن عقائد الأناجيل هى رأي بولس دون سائر الحواريين ، ودون أقرب الأقربين إلى عيسى . وقد وجد في مكتبة أمير من الأمراء في باريس نسخة من انجيل برنابة ، وقد طبعته مطبعة المنار بعد ترجمته إلى العربية وهو يخالف الأناجيل الاربعة مخالفة كبيرة .

(٢٩)من ذلك ما جاء في التوراة المتداولة ، في سفر التكوين ٣/ ٢٢ ، ففيه (وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا ، عارفا بالخير والشر) وفيه ايضا ، (فحزن الرب أنه عمل الانسان=

وإزاء هذا التحريف والتغيير الذي طرأ على الكتب السابقة ، فإن الإيمان
يكون بالتصديق أنها من عند الله في أساسها ، نزلها على رسله ، لنفس
الغرض الذي أنزل من أجله القرآن . ولا نؤمن بشيء من محتوياتها أنه من عند
الله إلا بما ذكره القرآن أو الرسول  . وأما الإيمان بالقرآن الكريم ، فيجب
أن نؤمن بأنه كلام الله الخالص ، وهو الحق ، وان كل لفظ فيه محفوظ ،
ويجب اتباع أمره ، واجتناب نهيه ، وتصديق خبره ، ورفض ما يخالفه .

* * *

ويتأسف في قلبه) ومما جاء فيه أيضا مما يمس شرف الأنبياء ويتناف مع عصمتهم ما قالوه عن إبراهيم
عليه السلام إنه كذاب ، وإن لوطا زنى بابنتيه ، وان هارون دعا الاسرائيليين إلى عبادة العجل ،
وأن داود زنا ، وأن سليمان عبد الاصنام ارضاء لزوجته ، فهل ثم دليل على التحريف اقوى من
هذا ـــ نقلا عن العقائد الإسلامية لسيد سابق ص ١٦٧ .

الإيمان باليوم الآخر

ومعناه بصورة إجمالية : الإيمان بكل ما أخبر به الله عز وجل في كتابه ، وأخبر به رسوله ﷺ ، مما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه ونعيمه ، والبعث والحشر والصحف والحساب والميزان والحوض والصراط والشفاعة والجنة والنار ، وما أعد الله تعالى لأهلهما جميعا .

اهتمام القرآن بهذا الركن وحكمته :

ولقد حفل القرآن الكريم بذكر اليوم الآخر ، واهتم بتقريره في كل موقع ، ونبه إليه في كل مناسبة ، وأكد وقوعه بشتى الأساليب العربية .

ومن مظاهر هذا الاهتمام بهذا اليوم العظيم في كتاب الله ، أنه كثيرا ما ربط الإيمان به بالإيمان بالله عز وجل ، ومن أمثلة ذلك : قوله تعالى : ﴿ **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ **من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ **ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾[3] ، وقوله تعالى :﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** ﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿ **اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾[5] ، وأمثال هذه الآيات كثير جدا في كتاب الله عز وجل .

ومن مظاهره أيضا ، إكثار القرآن من ذكر اليوم الآخر ، حتى أنك لا نكاد تمر على صحيفة من صحائف القرآن إلا وتجد فيها حديثا عن اليوم الآخر ، وما سيكون فيه من الأحداث والأحوال ، بأساليب كثيرة ومتنوعة . كذلك تجد القرآن يفصل أحوال ذلك اليوم تفصيلا قلما تجده في أمور الغيب الأخرى .

---

(١) البقرة ـــ الآية ١٧٧ .
(٢) البقرة ـــ الآية ٦٢ .
(٣) البقرة ـــ الآية ٢٣٢
(٤) التوبة ـــ الآية ٢٩
(٥) العنكبوت ـــ الآية ٣٦

ومن مظاهره أيضا كثرة ما سماه الله من الأسماء ، التي يدل كل واحد منها على ما سيقع فيه من الأهوال ، فمن أسمائه في القرآن : القيامة ، والساعة ، الآخرة ويوم الدين ، ويوم الحساب ، ويوم الفتح ، ويوم التلاق ، ويوم الجمع ، ويوم التغابن ، ويوم الخلود ، ويوم الخروج ، ويوم الحسرة ،ويوم التناد ، والآزفة ، والطامة ، والصاخة ، والحاقة ، والغاشية ، والواقعة وغيرها[٦].

وأما حكمة ذلك الاهتمام البالغ بهذا الركن فمنها :

أن الإيمان باليوم ، الآخر له أثر عظيم في حياة الإنسان ، ذلك أن الايمان به وبما فيه من جنة ونار وحساب وعقاب ، وثواب ، وفوز، وخسران له أشد الأثر في توجيه الإنسان وانضباطه والتزامه بالعمل الصالح وتقوى الله عز وجل ، وشتان ما بين اثنين: أحدهما لا يعتقد ببعث ولا حساب على أعماله وأقواله ، ولا يقيده غير مصلحته الشخصية ومنفعته الذاتيه ، وآخر يعتقد بيوم يحاكم فيه الإنسان على أعماله وأقواله أمام أعدل العادلين فيثاب على الخير ، ويعاقب على الشر . فالأول منفلت من أي ضابط سوى هواه وشهوته ، والغاية عنده غاية أنانية تبرر أية وسيلة وأي خلق وأي عمل ، مهما كان ضرره. والآخر منضبط في حدود الحق والخير والصلاح ، وهي الأمور التي لها وزن واعتبار عند الله في ذلك اليوم ، كما قال تعالى : ﴿ **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾[٧] .

ويشير إلى هذه الحكمة أسلوب القرآن في الربط بين الإيمان باليوم الآخر والعمل الصالح في كثير من الأحيان ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين** ﴾[٨] . وقوله عز وجل : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾[٩] . وقوله ايضا : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم**

---

(٦) انظر : العقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٢٦١ ــ ٢٦٤ .

(٧) الاعراف ــ الآيتان ٨ ، ٩ .

(٨) الماعون ــ الآيات ١ ــ ٣ .

(٩) التوبة ــ الآية ١٨ .

الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾(١٠)وقوله تعالى : **﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾**(١١) ، وقوله : **﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ﴾**(١٢) ، وقوله **﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾**(١٣) ، وقوله **﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون ﴾**(١٤) ، وغيرها كثير .

فإنه لما كان الإنسان مفطورا على طلب المصلحة لنفسه ، ودفع المفسدة عنها ، كان الإيمان باليوم الآخر مقويا للوازع النفسي عنده ، ذلك الذي يرغب في الخير ويصد عن الشر . ولذلك كانت عناية القرآن بكثرة التذكير به ، والتفنن في تصويره حتى يتعمق ذلك الوازع في قلب المؤمن ويشتد تأثيره .

ولعل من حكمة الاهتمام البالغ بالتذكير باليوم الآخر ، كثرة نسيان العباد له ، وغفلتهم عنه ، بسبب تثاقلهم إلى الأرض ، وحبهم لمتاع الدنيا ، فيكون الإيمان به وبما فيه من عذاب ونعيم مخففا من الغلو في حب الدنيا ، فيعلم العباد أن شهوات الدنيا كلها لا تستحق منهم الطلب والجهد والتنافس فيها ، وأن الذي يستحق ذلك منهم إنما هو ما أعد لهم في ذلك اليوم العظيم ، ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى **﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾**(١٥) .

ولعل من حكمته أيضا أن وجود ذلك اليوم كان وما يزال يثير استغراب الكافرين وتعجبهم ، لما يرونه ببصيرتهم القاصرة ، من مخالفة البعث لما يرونه من تحول إلى رفات وعظام بعد الموت ، قال تعالى عن أمثال هؤلاء : ﴿ ق »

---

(١٠)التوبه ــ الآية ٤٤ ، ٤٥ .
(١١)المجادلة ــ الآية ٢٢ .
(١٢)الممتحنة ــ الآية ٦ .
(١٣)الطلاق ــ الآية٢ .
(١٤)الانعام ــ الآية ٩٢ .
(١٥)التوبة ــ الآية ٣٨ .

والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب :أءذا متنا وكنا تراباً ، ذلك رجع بعيد ﴾[١٦] . فبين لهم الله سبحانه في كثير من الآيات التي سنذكر بعضها فيما بعد ، أن هذا الحس الذي يواجهون به هذه الحقيقة حس عاجز وقاصر ، لأن أمثال البعث في حياة الإنسان كثيرة ، ولكنها لاتعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

أدلة الإيمان باليوم الآخر ورد شبه المنكرين له :

ولقد دل على الإيمان باليوم الآخر ، كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ كما يدل عليه العقل والفطرة السليمة . فأكثر سبحانه من ذكره في كتابه ، وأقام عليه الأدلة ، ورد شبه المنكرين للبعث في كثير من المواضع ، كما فصل في القرآن أمور ذلك اليوم وحوادثه تفصيلا لم يسبق له مثيل في الكتب السابقة . مع أن كل رسول أرسله الله ، بشر قومه وأنذرهم بهذا اليوم العظيم ، وكفر كل من ينكره أو يشك فيه .

قال تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو ، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه** ﴾[١٧] ، وقال : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾[١٨] ، وقال أيضا : ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا** ﴾[١٩] .

ويخبرنا القرآن عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا** ﴾[٢٠] ، وعن إبراهيم عليه السلام أنه قال : ﴿ **والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين** ﴾[٢١] ، وقال سبحانه لموسى عليه السلام : ﴿ **إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه ، فتردى** ﴾[٢٢] . وقد أمر الله سبحانه نبيه محمدا ﷺ أن يقسم به على البعث

(١٦)ق ــ الآيات ١ ــ ٣ .

(١٧)النساء ــ الآية ٨٧ .

(١٨)البقرة ــ الآية ١٧٧ .

(١٩)النساء ــ الآية ١٣٦

(٢٠)نوح ــ الآيتان ١٧ ، ١٨ .

(٢١)الشعراء ــ الآية ٨٢ .

(٢٢)طه ــ الآيتان ١٥ ، ١٦

في أكثر من موضع ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل : بلى وربي لتبعثن** ﴾[٢٣] .

والذين ينكرون البعث إنما يكذبون رسل الله جميعا ، أولئك الذين قامت الأدلة العقلية والحسية القاطعة على صدقهم في كل ما أخبروا به ، وتكذيبهم في أى خبر حجر على العقل الذي حكم بصدقهم ، وتكذيب له ، وعناد لا معنى له .

والمنكرون للبعث ليس لهم دليل على إنكارهم ، ذلك أنه أمر من أمور الغيب الذي لا يعلمه الا الله ، والضابط في هذه الأمور أنه لا سبيل لأحد في إثباتها أو إنكارها إلا سبيل واحد ، هو إعلام الله عز وجل ، فمن قامت الحجج القاطعة على تلقيه من عند الله تعالى ، فهو الصادق فيما يخبر به عن شيء من هذه الامور[٢٤] . وهذا أمر لم يثبت إلّا للرسل الكرام ، عليهم الصلاة والسلام ، فهم الذين أيدهم الله بالمعجزات ، وأطلعهم على بعض الغيب ، وقد تقدم اتفاقهم على الإخبار باليوم الآخر .

وإنما أثار المنكرون للبعث بعض الشبهات والشكوك حول وجود ذلك اليوم كاستبعادهم العودة إلى الحياة بعد تحولهم الى رفات وعظام وتراب ، فقالوا ، كما أخبر الله عنهم : ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيدا** ﴾[٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ **وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون** ﴾[٢٦] ، وشبههم جميعا لا تعدو الاستبعاد والاستعظام والتعجب .

---

(٢٣) التغابن ــ الآية ٧ .

(٢٤) وهذا الضابط بدهية من بدهيات العقول ، فاننا نعلم بالبديهية أنه لا يمكن لاحد أن يثبت أو ينفي وجود شيء في مكان أو زمان الا بأن يطلع او يخبره مطلع اذا كان وجود هذا الشيء او عدمه لا يتناقض مع العقل ، وليس مستحيلا في حكمه ، فلو ان شخصا من العامة اثبت أو نفى وجود نجم في موقع من مواقع السماء ، ولم يخبره عالم فلكي ، حكمنا بكذبه ، وكذلك أي شخص يزعم عدم وجود اليوم الآخر ، نحكم بكذبه ، حتى ولو لم يخبرنا بوجوده أحد ، فكيف وقد أخبر بذلك من يستحيل في حقهم الكذب ، وهم الانبياء والرسل ، والناس كلهم بالنسبة لعالم الغيب عوام ، والمطلع عليه هو الله وحده ، فلا نتبع في شأنه الا من علمهم الله ، وهم رسله الكرام .

(٢٥) ق ــ الآية ٣ .

(٢٦) الجاثية ــ الآية ٢٤ .

وقد رد الله سبحانه على هذه الشبه ، وبين تفاهتها في أكثر من موضع في كتابه العزيز ، وبين لهم أن الإيمان بالمعاد لا ينكره العقل ، بل يؤيده ، ولا يخالف المعهود ، بل له أمثلة في حياة الناس ، وشواهد من صنع الخالق ، من ذلك :

١ ـ **قال تعالى** :

﴿ وقالوا أءذا كنا عظاما ورفاتا أءنا لمبعوثون خلقا جديدا قل : كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة ، فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون : متى هو قل عسى أن يكون قريبا ، يوم يدعوكم ، فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلا ﴾[٢٧] .

فانظر إلى هذه الشبهات التي أثاروها ، وما يثيره المنكرون في كل عصر لا يتعداها : إنهم يستعظمون على الله تحويل ما تؤول إليه الأجسام من الرفات والعظام إلى خلق جديد يحس ويشعر ، ويستكثرون عليه قدرته على ذلك ، ويستبعدون هذا الأمر لأنهم لا يعلمون متى هو . وهي شبهات ـ كما ترى ـ مبعثها الجهل بطبيعة الحياة والموت والغفلة عن قدرة الله عز وجل ، والتعامي عن آثار هذه القدرة المطلقة في الإنشاء من العدم ، وكان يكفيهم ـ لو كانوا يعقلون ـ أن يتذكروا قدرة الله عندما خلقهم أول مرة ، ولم يكونوا شيئا ، ليوقنوا بصدق الباري فيما أخبرهم عن المعاد والحساب والثواب والعقاب . فالقضية بسيطة ، والجواب مفحم مع بساطته وبداهته : فإن الإنسان قد وجد نفسه مخلوقا بعد أن لم يكن ، فلا بد له من خالق أوجده من العدم ، ثم تحول من حال إلى حال بمفارقة الحياة ، فلا بد من فاعل لهذا التحول ، وليس هو الا الله الذي خلق أول مرة ، ولو كان غيره لاستطاع أن يدفع عن نفسه الموت ، فإذا أخبر بعد ذلك هذا الخالق المحيي المميت بأنه سيحيي الإنسان مرة أخرى ، ويعيد خلقه ، كانت مناقشته في ذلك عنادا واستكبارا ، قال تعالى : **﴿ قل : الله يحييكم ، ثم يميتكم ، ثم يجمعكم إلى يوم القيامة ، لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾**[٢٨] .

---

(٢٧) الاسراء الآية ٤٩ ـ ٥٢ .

(٢٨) الجاثية ـ الآية ٢٦ .

٢ ــ وقال تعالى :

﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه . قال من يحيى العظام وهي رميم ؟ قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم . الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم ﴾(٢٩) .

يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية في شرح هذه الآيات الكريمة : **﴿ فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة ، أو بمثلها بألفاظ تشبه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضح الأدلة وصحة البرهان لما قدر ، فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد اقتضى جوابا ، فكان في قوله تعالى ﴿ ونسي خلقه ﴾** ما وفّى الجواب وأقام الحجة ، وأزال الشبهة . ولما أراد سبحانه تأكيد الحجة وزيادة تقريرها ، قال : **﴿ قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾** ، فاحتج بالإبداء على الإعادة ، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى ، إذ كل عاقل يعلم ضروريا أن من قدر على هذه قدر على هذه وأنه لو كان عاجزا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز ، ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق ، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله : **﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾** ، فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته ومواده وصورته ، فكذلك الثاني . فإذا كان تام العلم ، كامل القدرة ، كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم ؟ . ثم أكد الأمر بحجة قاهرة ، وبرهان ظاهر يتضمن جوابا عن سؤال ملحد آخر يقول : العظام إذا صارت رميما عادت طبيعتها باردة يابسة والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة . . . . . فقال سبحانه **﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾** . فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء بالرطوبة والبرودة ، فالذي يخرج من الشيء ضده ، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ، ولا تستعصي عليه ، هو الذي يفعل ما أنكره الملحد ودفعه . ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشيء الأجل الأعظم على الأيسر الأصغر ، فإن كل

(٢٩) يس ــ الآية ٧٨ ــ ٨١ .

.اما يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر . فمن .. على حمل قنطار فهو على حمل أوقية أشد اقتدارا ، فقال سبحانه : ﴿ أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ ، فالذي .. السموات والأرض ، على جلالتهما ، وعظم شأنهما ، وكبر أجسامهما ، ..عهما ، وعجيب خلقهما ، أقدر على أن يحيى عظاما قد صارت رميما ، .يردها إلى حالتها الأولى ﴾(٣٠) .

٣ ــ وقال عز وجل :

﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ، لكيلا يعلم من بعد علم شيئا . وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بان الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتي ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ﴾(٣١) .

فتدبر هذه الآيات الكريمات من سورة الحج ، فإن فيها من الأدلة على البعث والآيات البينات على قدرة الله في إحياء الموتى ، ما يمحو كل شك من القلوب ، حول هذه الحقيقة ، ويزيل كل استغراب ، ويفند شبهات المعاندين :

أ ــ ففيها أولا دليل إنشاء الخلق ، وبدئهم من تراب ليس فيه مظهر من مظاهر الحياة وقد تقدم الكلام عن هذا الدليل .

ب ــ وفيها إبراز لمظهر من مظاهر قدرة الله في خلق الإنسان ونقله من طور إلى طور ، وحال إلى حال أخرى تختلف عن الأولى كل الاختلاف ، فإن من نقله من النطفة إلى العلقة ، ثم إلى المضغة ، ثم شق سمعه وبصره ، وركب فيه الحواس والقوى ، والعظام والأعصاب ، وغيرها ، ثم أحكم خلقه غاية الإحكام ، وأخرجه على هذا الشكل والصورة ، التي هي أتم الصور وأحسن

(٣٠) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٦٠ ، ٤٦١ .
(٣١) الحج ــ الآيات ٥ ــ ٧ .

الأشكال ، كما قال تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** ﴾(٣٢) ، كيف يعجز عن بعثه وإعادة الحياة إليه ؟ فليس هذا إلا عملية نقل من حال إلى حال أخرى ، والمعاند يرى أمثالها في نفسه ، وفي كل إنسان على وجه هذه الأرض .

ولقد نبه الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى ، بعد تفسيره للآيات السابقة إلى معنى لطيف تضمنته تلك الآيات ، فقال : (وإن هذه الأطوار التي يمر بها الجنين ، ثم يمر بها الطفل بعد أن يرى النور لتشير إلى أن الإرادة المدبرة لهذه الأطوار ستدفع بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال ، إذ أن الإنسان لا يبلغ كماله في حياة الأرض ، فهو يقف ثم يتراجع « لكيلا يعلم من بعد علم شيئا » فلا بد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان .

فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة . . . فهي تدل على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة ، وهي تدل على البعث ، لأن الإرادة المدبرة تكمل تطوير الإنسان في الدار الآخرة .

هكذا تلتقي نواميس الخلق والإعادة ، ونواميس الحياة والبعث ، ونواميس الحساب والجزاء ، وتشهد كلها بوجود الخالق المدبر الذي ليس في وجوده جدال)(٣٣) .

هذا وفي ذكر أطوار الإنسان ، وتكونه من النطفة والعلقة لفتة أخرى : ففيه توجيه أنظار المعاندين ، المنكرين للبعث وإحياء الموتى ، إلى أن هذا الفعل الرباني ماثل في كل واحد منهم ، وفي كل إنسان ، فإنه قبل أن يكون خلقا سويا ، كان نطفة من ماء مهين ، لا قيمة لها ، وعلقة ومضغة ، أي قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، وجميعها مراحل حقيرة أشبه ما يكون فيها الإنسان بالميت ، ومع ذلك فإن الله سبحانه يخلق فيها الحياة ، ويشكلها ، ويودع فيها أسباب الحياة ، إلى أن تغدو في نهاية الأمر بشرا سويا ، يفكر ويشعر ، ويخاصم ، ويجادل ، فما أشبه هذا الصنيع الرباني بإحياء الموتى الذي يستنكره المنكرون للبعث ، ولذلك قال عز وجل : ﴿ **ألم يك نطفة من مني**

---

(٣٢) التين ــ الآية ٤ .

(٣٣) في ظلال القرآن ــ المجلد الخامس ص ٥٨٣ .

يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ﴾(٣٤) .

حـ ــ وفي الآيات السابقة دليل آخر على البعث ، وآية أخرى على قدرة الله في إحياء الموتى : هذه الأرض القاحلة ، لا ترى فيها أثرا لحياة ، ولا ينبت فيها شيء فإذا أنزل الله عليها المطر ، ظهرت فيها الحياة ، وأنبتت من الزروع ، وأشتات النبات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها . كما قال تعالى : **﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى . إنه على كل شيء قدير ﴾**(٣٥) ، وقد سئل رسول الله ﷺ : كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال : (أما مررت بوادي أهلك ممحلا ؟ قال : بلى ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قال : بلى ، قال : فكذلك يحيي الله الموتى ، وذلك آيته في خلقه)(٣٦) .

٤ ــ وقال تعالى :

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾(٣٧) ، وقال أيضا : **﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾**(٣٨) .

فهاتان الآيتان وأمثالهما تقرران أن الإيمان بالمعاد ، والحساب والجزاء هو من مقتضيات توحيد الله في صفاته الكاملة ، وأسمائه الحسنى ، فهذا الركن من لوازم الركن الأول من أركان الإيمان ، ومن كفر به لم يكن مؤمنا بالله عز وجل ، لأن ذلك يستلزم كفره بحكمة ربه ، وعدله في خلقه ، وتعطيل صفاته سبحانه وتعالى .

ومن لوازم هذا الكفر احتقار الإنسان لنفسه ، باعتقاده أنه خلق عبثا لا لحكمة بالغة ، وأن وجوده في الأرض موقوت محدود بهذا العمر القصير ، المليء

---

(٣٤) القيامة ــ الآيات ٣٧ ــ ٤٠ .
(٣٥) فصلت ــ الآية ٣٩ .
(٣٦) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه ــ انظر تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٠٨ وصحيح الجامع الصغير ــ المجلد الأول ص ٤٢٠ .
(٣٧) المؤمنون ــ الآية ١١٥ .
(٣٨) القيامة ــ الآية ٣٦ .

بالنكد والهموم والمصائب والظلم والبغي والآثام ، وأنه يترك سدى ، فلا يجزى الظالم بظلمه ، والعادل بعدله ، والمصلح بإصلاحه ، والمفسد بإفساده والمسيء بإساءته ، فالإيمان بالبعث واليوم الآخر هو الذي يليق بجلال الله وعدله وحكمته . ويحكم به العقل ، وتطمئن إليه الفطرة السليمة)[٣٩] .

تفصيل الإيمان باليوم الآخر :

وإذا كان الإيمان باليوم الآخر من أهم الأركان التي يقوم عليها الإيمان ، فإنه لا يتحقق ولا يكون تاما وكاملا ، إلا بأمرين :

الأول : أن يؤمن العبد باليوم الآخر بصورة إجمالية ، وهذا هو الحد الأدنى لتحصيل هذا الركن من أركان الإيمان .

الثاني : أن يؤمن بكل ما أخبره به رسول الله ﷺ من أمور الغيب التي تكون بعد الموت ، ونذكر فيما يلي أهم ما وردت به الأحاديث الصحيحة ، والآيات الكريمة من هذه الأمور :

١ ـ فتنة القبر وسؤال الملكين

فيجب أن نؤمن بما أخبر به الرسول ﷺ من فتنة القبر وسؤال الملكين للإنسان عن ربه ودينه ونبيه ، فقد أخبر عليه الصلاة والسلام في الأحاديث الصحيحة أن الناس يمتحنون في قبورهم ، فيقال للعبد : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول المؤمن : ربي الله ، والإسلام ديني ، ومحمد ﷺ نبيي ، وأما المرتاب فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ، فيضرب ويعذب .

ومن الأحاديث الواردة في ذلك :

ما أخرجه البخاري ومسلم عن أسماء رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : (ما من شيء لم أكن أريته إلا رأيته في مقامي ، حتى الجنة والنار فأوحى إلي أنكم تفتنون في قبوركم ، مثل أو قريبا من فتنة المسيح الدجال ، يقال : ما علمك بهذا الرجل ؟ فأما المؤمن أو المو قن فيقول : هو محمد رسول الله ،

---

(٣٩) الوحي المحمدي ص ١٧٨ ، ١٧٩ . مبادىء الاسلام للمودودي ص ٩١ ، العقائد الاسلامية ص ٢٧٩ . ٢٨٠ ، شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

ماءنا بالبينات والهدى ، فأجبنا واتبعنا ، هو محمد ،ثلاثا ، فيقال : نم صالحا ، قد علمنا أن كنت لموقنا به . وأما المنافق أو المرتاب فيقول : لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته)(٤٠) .

وما أخرجه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن العبد إذا وضع في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، إنه ليسمع قرع نعالهم ، قال : يأتيه ملكان ، فيقعدانه ، فيقولان له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ قال : فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، قال : فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة . قال نبي الله ﷺ : فيراهما جميعا ، قال قتادة :(وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعا ويملأ عليه خضرا إلى يوم يبعثون . وأما المنافق والكافر ، فيقال له : ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدري ،كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لا دريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد ضربة ، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين)(٤١) .

وما أخرجه البخاري ومسلم : عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن النبي ﷺ ، قال ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، قال : نزلت في عذاب القبر ، فيقال له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ونبيي محمد ﷺ ، فذلك قوله عز وجل : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾(٤٢) .

وهناك أحاديث صحيحة كثيرة وردت باثبات فتنة القبر وسؤال الملكين .

٢ ــ عذاب القبر ونعيمه :

وبعد فتنة القبر يجب أن نؤمن بما أخبر به الصادق ، عليه الصلاة والسلام ، من عذاب القبر ونعيمه ، وقد تظاهرت على هذا الأمر دلائل من

(٤٠) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١ ص ١٤٨ . وهو حديث متفق عليه واللفظ للبخاري .

(٤١) متفق عليه ــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ ص ٢٠٣ وصحيح البخاري مع فتح الباري جـ ٣ ص ١٨٤ .

(٤٢) ابراهيم ــ الآية ٢٧ . والحديث متفق عليه واللفظ لمسلم ــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ ص ٢٠٤ ،وصحيح البخاري مع فتح الباري جـ ٣ ص ١٨١ .

الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿ **وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة * أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾[٤٣] .

فقد توعد الله سبحانه آل فرعون بنوعين من العذاب :

الاول : أشار إليه بقوله تعالى ﴿ **النار يعرضون عليها غدوا وعشيا** ﴾ .

والثاني : أشار إليه بقوله تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ ، وقد عطف الثاني على الأول ، والعطف يقتضي التغاير بين المعطوف والمعطوف عليه ، فلابد أن يكون المشار إليه أولا غير الثاني . فإذا كان العذاب الثاني بعد قيام الساعة ، فلابد أن يكون الأول واقعا بهم ما بين الموت والنشور ، وهو عذاب القبر .

وأشار الله عز وجل إلى عذاب يكون بعد الموت في قوله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم * أخرجوا أنفسكم ، اليوم تجزون عذاب الهون** ﴾[٤٤] ، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية أنه قال : هذا عند الموت ، والبسط الضرب ، يضربون وجوههم وأدبارهم . قال ابن حجر : ويشهد له قوله تعالى في سورة القتال : ﴿ **فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾[٤٥] ، ثم قال : (وهذا وإن كان قبل الدفن فهو من جملة العذاب الواقع قبل يوم القيامة ، وإنما إضيف العذاب إلى القبر لكون معظمه يقع فيه)[٤٦] .

وأما الأحاديث الصحيحة المثبتة لعذاب القبر فكثيرة جدا ، تبلغ حد التواتر ، يقول النووي في شرحه لصحيح مسلم : (إعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة ، قال تعالى : ﴿ **النار يعرضون عليها غدوا وعشيا** ﴾ وتظاهرت به الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ من رواية جماعة من الصحابة في مواطن كثيرة . ولا يمتنع في

(٤٣) غافر ــ من الآية ٤٥ ، والآية ٤٦ .
(٤٤) الانعام ــ الآية ــ٩٣ .
(٤٥) محمد ــ الآية ٢٧ .
(٤٦) انظر فتح الباري جـ ٣ ص ١٨٠ .

العقل أن يعيد الله تعالى الحياة في جزء من الجسد ، ويعذبه ، وإذا لم يمنعه العقل ، وورد به الشرع وجب قبوله واعتقاده)(٤٧) .

وقد أورد الإمام مسلم في صحيحه أحاديث كثيرة ، في إثبات عذاب القبر ، وسماع النبي ﷺ من يعذب فيه ، وسماع الموتى قرع نعال دافنيهم ، وكلامه ﷺ لأهل القليب ، وقوله : ما أنتم بأسمع منهم ، والفسح للميت في قبره إن كان من الناجين ، وعرض مقعده من الجنة أو النار عليه ، وغير ذلك (٤٨) .

ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار على بغلة له ، ونحن معه ، إذ حادت به ، فكادت تلقيه ، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة ، فقال ﷺ : من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ فقال رجل : أنا . قال : فمتى مات هؤلاء ؟ قال : ماتوا في الاشراك ، فقال : إن هذه الأمة تبتلى في قبورها ، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه ، ثم أقبل علينا بوجهه فقال : تعوذوا بالله من عذاب النار ، فقالوا : نعوذ بالله من عذاب النار . فقال : تعوذوا بالله من عذاب القبر ، قالوا-: نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن . قال تعوذوا بالله من فتنة الدجال ، قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال)(٤٩) .

ومن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : مر النبي ﷺ على قبرين فقال : إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، ثم قال : بلى ، أما أحدهما فكان يسعى بالنميمة ، وأما أحدهما فكان لا يستتر من بوله(٥٠) .

ومن ذلك أيضا ما أخرجه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (إن أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة

(٤٧) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١٧ ص ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٤٨) انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ ص ٢٠٠ ــ ٢٠٧ .

(٤٩) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ ص ٢٠٢ .

(٥٠) متفق عليه واللفظ للبخاري ــ انظر صحيح البخاري مع الباري جـ ٣ ص ١٨٨ .

والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن من كان أهل النار فمن أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة)(٥١) .

وأما كيفية عذاب القبر ونعيمه ، وكيفية عودة الروح إلى الميت ، فلا يجوز فيه الزيادة على ما صح عن رسول الله ﷺ ، يقول شارح العقيدة الطحاوية (وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ ، في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلا ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ، ولا نتكلم في كيفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لا عهد له به في هذه الدار ، والشرع لا يأتي بما تحيله العقول ، ولكنه قد يأتي بما تحار فيه العقول . فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود في الدنيا ، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا . .

وأعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه ، قبر أو لم يقبر ، أكلته السباع ، أو احترق حتى صار رمادا ونسف في الهواء أو صلب أو غرق في البحر ، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبور ، وما ورد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك ، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير ، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله ، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان)(٥٢) .

ويقول ابن القيم : (مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب ، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه ، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة ، وأنها تتصل بالبدن أحيانا ، ويحصل له معها النعيم أو العذاب ، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد ، وقاموا من قبورهم لرب العباد ، ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى)(٥٣) .

---

(٥١) متفق عليه — انظر صحيح للبخاري مع فتح الباري جـ ٣ ص ١١٨ ، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ ص ٢٠٠ .

(٥٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٥١ ، ٤٥٢ .

(٥٣) العقائد الاسلامية — سيد سابق ص ٢٣٧ .

٣ ــ أشراط الساعة :

ويجب علينا أن نؤمن أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن موعدها لا يعلمه الا الله أخفاه عن الناس كلهم ، بما فيهم الرسل والأنبياء ، وأنه ليس لأحد من سبيل إلى معرفة ما بقي من عمر الدنيا ، قال تعالى : ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل : إنما علمها عند ربي ، لا يجليها لوقتها الا هو ، ثقلت في السموات والارض ، لا تأتيكم إلّا بغتة ، يسألونك كأنك حفي عنها ، قل : إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾(٥٤) .

ولكن يجب أن نؤمن بما ثبت عن رسول الله ﷺ من علاماتها وأشراطها .

هذا وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه ذكر للساعة علامات صغرى معظمها يدور حول فساد الناس في آخر الزمان ، وظهور الفتن بينهم ، وبعدهم عن هدى الله وطريق الرسل . وعلامات كبرى .

فأما العلامات الصغرى فقد ورد فيها جملة من الأحاديث الصحيحة نذكر منها :

أ ــ ما أخرجه البخاري ومسلم من قول الرسول ﷺ : (بعثت أنا والساعة كهاتين) ، وأشار بالسبابة والوسطى(٥٥) . فهذا يدل على أن بعثة الرسول ﷺ ، وختم النبوة والرسالة به ، من علامات قرب الساعة ، ففي الحديث دلالة على أن النبي عليه الصلاة والسلام ليس بينه وبين الساعة نبي آخر ، فهي تليه ، وتأتي بعده ، وهذا إخبار بقرب وقوعها(٥٦) .

ب ــ وفي حديث جبريل أنه سأل الرسول ﷺ عن الساعة ، فقال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، قال : فأخبرني عن أمارتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها(٥٧) ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في

---

(٥٤) الاعراف ــ الآية ١٨٧ .

(٥٥) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي ــ أنظر صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١١.ص ٢٩٣ .

(٥٦) العقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٢٤٥ . فتح الباري ج ١١ ص ٢٩٣ .

(٥٧) قال ابن حجر في معنى هذا (أن يكثر العقوق في الاولاد ، فيعامل الولد ، أمه معاملة السيد أمته ، من الاهانة بالسب والضرب والاستخدام ، فأطلق عليه ربها مجازا لذلك ، أو المراد بالرب المربي ، =

جـ ـ وأخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان (٥٩) ، يكون بينهما مقتلة عظيمة دعوتهما واحدة . وحتى يبعث (٦٠) دجالون كذابون قريب من ثلاثين (٦١) كل يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم . (٦٢) ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان (٦٣) ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج وهو القتل . وحتى يكثر فيكم المال ، فيفيض ، حتى يهم رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه ، فيقول الذي يعرضه عليه : لا أرب لي به ، وحتى يتطاول الناس في البنيان . وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربها (٦٤) ، فإذا طلعت ، ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع

= فيكون حقيقة ، وهذا أوجه الاوجه عندي ، ولان المقام يدل على أن المراد حالة تكون مع كونها تدل على فساد الاحوال مستغربة . ومحصله ان الساعة يقرب قيامها عند انعكاس الامور بحيث يصير المربى مربيا والسافل عاليا وهو مناسب لقوله في العلامة الاخرى : ان تصير الحفاة ملوك الارض) ـ انظر فتح الباري جـ ١ ص ١٠١ .

(٥٨) متفق عليه ـ انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١ ص ٩٩ ، ١٠٠ ، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ١ ص ١٥٨ . وعبارة البخاري (ان تلد الأمة ربها) . ومعنى تطاول رعاء الشاء في البنيان قال فيه القرطبي : (المقصود : الاخبار عن تبدل الحال بأن يستولي أهل البادية على الامر ويتملكوا البلاد بالقهر فتكثر أموالهم وتنصرف هممهم الى تشييد البنيان والتفاخر به ، وقد شاهدنا ذلك في هذه الازمان) ـ نقل هذا عن القرطبي ابن حجر في فتح الباري جـ ١ ص ١٠١ .

(٥٩) قال ابن حجر : المقصود فئة علي ومن معه ، وفئة معاوية ومن معه ـ فتح الباري ، جـ ١٢ ص ٧٢ .

(٦٠) أي يظهر .

(٦١) وأمثال هؤلاء الاسود العنسي صاحب صنعاء ، ومسيلمة الكذاب صاحب اليمامه ، وممن ادعى النبوة طليحة بن خويلد ، وسجاح ، وقد رجع هذان الاخيران عن دعواهما . ومن هؤلاء من المتأخرين مؤسس القاديانية والبهائية ـ انظر فتح الباري جـ ١٣ ص ٧٣ ، والعقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٢٤٦ .

(٦٢) أي يقبض علماء الدين والدعاة الى الله عز وجل .

(٦٣) المراد نزع البركة من كل شيء حتى من الزمان ، فتكون السنة في بركتها والانتفاع بها كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة كاليوم ، واليوم كالساعة ـ فتح الباري جـ ١٣ ص ١٣ وتيسير الوصول جـ ٤ ص ٩١ .

(٦٤) هذه من العلامات الكبرى وبقية العلامات المذكورة في الحديث صغرى .

نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا .

ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته(٦٥) ، فلا يطعمه . ولتقومن الساعة وهو يليط(٦٦) حوضه فلا يسقي منه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه ، فلا يطعمها)(٦٧) .

د ــ وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويفشو الزنا ، ويشرب الخمر ، ويكثر النساء ، ويقل الرجال حتى ليكون لخمسين امرأة قيم واحد) .

هـ ــ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال لرسول الله ﷺ : متى الساعة ؟ فقال : (إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة) قال : وكيف إضاعتها ؟ قال : (إذا أسند الأمر لغير أهله فانتظر الساعة)(٦٨) .

و ــ وعن أبي هريرة أيضا أن النبي ﷺ قال : (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون حتى يختبيء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم ، يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود)(٦٩) .

وهناك أحاديث صحيحة أخرى ذكرت لنا علامات أخرى تظهر قبل قيام الساعة ويمكن الرجوع اليها في كتب الصحاح(٧٠) .

وأما العلامات الكبرى فقد ورد فى بعض الأخبار الصحيحة عن رسول الله ﷺ ذكر عشر منها ، وذلك كحديث حذيفة بن أسيد الغفارى ، حيث قال : (اطلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة . قال : إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان

(٦٥) اللقحة : هي الناقة ذات اللبن .

(٦٦) أي يصلحه بالطين .

(٦٧) أخرجه البخاري ــ انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١٣ ص ٧٠ ــ ٧٦ .

(٦٨) انظر : البخاري مع فتح الباري جـ ١١ ص ٢٧٩ .

(٦٩) أخرجه الشيخان : واللفظ لمسلم ــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٤٤ .

(٧٠) تجد ذلك في الصحيحين ، في كتاب الفتن وأشتراط الساعة . وكتاب الرقاق وفي مواضع أخرى متفرقة .

والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسى بن مريم ﷺ ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم)(٧١) .

وفيما يلي نبين لك أهم وأشهر هذه الآيات حسب ما ذكره العلماء ، وخاصة شراح الحديث الشريف .

أ ــ طلوع الشمس من المغرب :

وهذه الآية بداية التغيير الذي يحدثه الله على نظام الكون في الحياة الدنيا ، حيث تظهر آيات غير مألوفة للبشر ، إيذانا بقرب وقوع الساعة ، الذي يكون معه تغيير شامل لنظام الكون ، كما ذكره الله سبحانه وتعالى في كثير من سور القرآن الكريم ، فأول هذا التغيير كما ورد في كثير من الأحاديث طلوع الشمس من المغرب على خلاف ما نعهده من طلوعها من المشرق ، والذي أطلعها من المشرق قادر على تغيير مسارها فهو خالقها ومدبر أمرها .

وقد ورد في بعض الأحاديث الصحيحة عن الرسول ﷺ أن هذه الآية تكون أول(٧٢)العلامات الكبرى ظهورا ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : (إن أول الآيات خروجا طلوع

---

(٧١) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٨ ص ٢٧ .

(٧٢) قال ابن حجر فيما يتعلق بترتيب ظهور علامات الساعة الكبرى ما نصه : (فالذي يترجح من مجموع الاخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الاحوال العامة في معظم الارض ، وينتهي ذلك بموت عيسى بن مريم . وان طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغيير احوال العالم العلوي وينتهي ذلك بقيام الساعة ، ولعل خروج الدابة يقع في ذلك اليوم الذي تطلع فيه الشمس من المغرب . . . والحكمة في ذلك أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة ، فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلا للمقصود من اغلاق باب التوبة . وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التي تحشر الناس من المشرق الى المغرب) ــ فتح الباري ج ١١ ص ٢٩٦ ــ ٢٩٧ . فيتحصل من كلام ابن حجر ان الآيات الكبرى ثلاثة انواع : المؤذنة بتغيير الاحوال العامة في الارض ، والمؤذنة بتغيير أحوال العالم العلوى ، والمؤذنة بقيام الساعة . وأن المقصود بأولية طلوع الشمس من المغرب الوارد في حديث عبد الله بن عمرو ، انها أول آية من النوع الثاني ، وهو النوع الذي اذا ظهر اغلق باب التوبة ، واغلق باب الايمان .

الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا)(٧٣) .

وقد تقدم في حديث أبي هريرة السابق أن هذه الآية اذا ظهرت ، ورآها الناس آمنوا أجمعون ، وذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها إذا لم تكن قد آمنت من قبل . وهو ما أشار الله تعالى إليه بقوله : ﴿ **يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت في إيمانها خيرا** ﴾(٧٤)وقد قال كثير من المفسرين ما حاصله : معنى الآية ، أن الكافر لا ينفعه إيمانه بعد طلوع الشمس من المغرب ، وكذلك العاصي لا تنفعه توبته ، ومن لم يعمل صالحا من قبل ، ولو كان مؤمنا ، لا ينفعه العمل بعد طلوعها من المغرب(٧٥) .

ب ــ خروج الدابة :

وهذه الآية أشار إليها الله تعالى في القرآن حيث قال عز وجل : ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾(٧٦) .

وقد ورد ذكر خروج الدابة في أحاديث كثيرة ، بعضها صحيح ، وقد تقدم بعضها ، وليس فيما صح من تلك الأخبار وصف لهذه الدابة التي يخرجها الله عز وجل قبيل قيام الساعة ، وما ذكر من أوصافها في بعض الكتب ورد في روايات لم تبلغ حد الصحة ، والمؤمن لا تعنيه معرفة هذه الأوصاف ، وحسبه أن يقف عند النص القرآني والحديث الصحيح الذي يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة ، وأنه إذا ما انتهى الأجل الذي تنفع فيه التوبة ، وحق القول على الباقين ، فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك ، وإنما يقضي عليهم بما هم عليه ، عندئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم ، وتعرف على المؤمن وعلى الكافر . وإذا كان الناس لا يعهدون تكلم الدواب ، فإن الخالق القادر يمكنها من ذلك ، فيفهم منها الناس ويعلمون أنها الخارقة المنبئة بقيام الساعة أو

---

(٧٣) أخرجه مسلم وابو داود ــ انظر فتح الباري جـ ١١ ص ٢٩٧ . وسنن ابي داود في باب امارات الساعة . وتيسير الوصول في باب (أشراط متفرقة) وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٧٧ .

(٧٤) الأنعام ــ الآية ١٥٨ .

(٧٥) فتح الباري جـ ١١ ص ٢٩٧ .

(٧٦) النمل ــ الآية ٨٢ .

اقترابها ، وقد كانو من قبل لا يؤمنون بآيات الله ، ولا يصدقون بيوم القيامة(٧٧) .

جـ ــ ظهور الدجال :

والدجال هو الكذاب شديد الدجل ، والدجل في اللغة هو التغطية ، وسمي الكذاب دجالا لأنه يغطي الحق بباطله ، ومن أمارات الساعة الكبرى ظهور شخص سماه الرسول ﷺ بالدجال ، لكثرة تدجيله وكذبه ، يدعى الألوهية ، ويحاول أن يفتن الناس عن دينهم بما يحدثه من خوارق العادات وعجائب الأمور ، باذن الله سبحانه وتعالى ، فيفتن به بعض الناس ، ويثبت الله الذين آمنوا ، فلا ينخدعون بدجله وضلاله ، ثم يأذن الله بالقضاء على فتنته ، فينزل عيسى عليه السلام ، فيقتله : جاء في شرح النووي على صحيح مسلم : (الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده ، وإنه شخص بعينه ، ابتلى الله به عباده ، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى ، من إحياء الميت الذي يقتله ، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه ، وجنته وناره ، ونهريه ، واتباع كنوز الأرض له ، وأمره السماء أن تمطر فتمطر ، والأرض أن تنبت فتنبت فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته ، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك ، فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ويبطل أمره ، ويقتله عيسى ﷺ ، ويثبت الله الذين آمنوا . هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار ، خلافا لمن انكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة ، وخلافا لمن ادعى أنه صحيح الوجود ، وأن الذي يدعيه مخارف وخيالات لا حقائق لها ، وزعموا أنه لو كان حقا لم يوثق بمعجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . وهذا غلط من جميعهم ، لأنه لم يدع النبوة ، فيكون ما معه كالتصديق له ،وانما يدعي الألوهية ، وهو في نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ، ووجود دلائل الحدوث فيه ، ونقص صورته ، وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه ، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه . ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس ، لسد الحاجة والفاقة ، رغبة في سد الرمق ، أو تقية وخوفا

(٧٧) في ظلال القرآن ــ المجلد السادس ص ٣٠٨ .

.ن أذاه ، لان فتنته عظيمة جدا تدهش العقول ، وتحير الألباب ، مع سرعة .روره في الأمر ، فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ودلائل الحدوث فيه . نقص ، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة . ولهذا حذرت الأنبياء صلوات . وسلامه عليهم أجمعين من فتنته ، ونبهوا على نقصه ، ودلائل إبطاله . وأما أهل التوفيق ، فلا يغترون به ، ولا يخدعون لما معه ، لما ذكرنا من الدلائل .كذبة له ، مع ما سبق لهم من العلم بحاله)[78] .

هذا وقد ورد في ذكر الدجال جملة أحاديث صحيحة ، نذكر منها :

- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : (قام رسول الله ﷺ في الناس ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه ، ولكني سأقول لكم فيه قولا لم يقله نبي لقومه : إنه أعور وإن الله ليس بأعور)[79] .

- روى حذيفة بن اليمان رضي عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لأنا أعلم بما مع الدجال منه : معه نهران يجريان ، أحدهما رأي العين ماء أبيض والآخر رأي العين نار تأجج فإما أدركن أحد فليأت النهر الذي يراه نارا ، وليغمض ثم ليطأطيء رأسه ، فيشرب منه ، فإنه ماء بارد وإن الدجال ممسوح العين ، عليها ظفرة[80]غليظة مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب)[81] .

- وعن النواس بن سمعان قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع[82] ، حتى ظنناه في طائفة النخل[83] ، فلما رحنا إليه ، عرف ذلك فينا ، فقال : ما شأنكم ؟ قلنا : يا رسول الله ، ذكرت

(٧٨) انظر شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١٨ ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٧٩) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١٣ ص ٨٠ ، صحيح مسلم بشرح النووي ، جـ ١٨ ص ٥٩ .

(٨٠) بفتح الظاء والفاء ، وهي جلدة تغشى البصر ، او لحمة تنبت عند المآقي .

(٨١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٩١ .

(٨٢) المقصود : حقر من شأنه بما يتصف به من العور وغيره وبما سيؤول أمره اليه من الاضمحلال ، ورفع اي عظم من فتنته والمحنة به ، حتى حذر كل نبي من فتنته — انظر شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١٨ ص ٦٣ .

(٨٣) اي على مقربة من نخل المدينة .

الدجال غداة فخفضت فيه ، ورفعت ، حتى ظنناه في طائفة النخل ، فقال : غير الدجال أخوفني عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم ، فأنا حجيجه دونكم ، وان يخرج ، ولست فيكم ، فامرؤ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم : إنه شاب قطط(٨٤) ، عينه طافئة ، كأنني أشبهه بعبد العزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، إنه خارج خلة(٨٥) بين الشام والعراق ، فعاث يمينا وعاث شمالا ، يا عباد الله ، فاثبتوا . قلنا : يا رسول الله : وما لبثه في الأرض ؟ قال أربعون يوما : يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم : قلنا : يا رسول الله ، فذلك اليوم الذي كسنة ، اتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره . قلنا : يا رسول الله : وما إسراعه في الأرض ؟ قال : كالغيث استدبرته الريح ، فيأتي على القوم ، فيدعوهم ، فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء ، فتمطر والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم(٨٦) ، أطول ما كانت ذرى(٨٧) ، وأسبغه ضروعاً(٨٨) ، وأمده خواصر(٨٩) ، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحلين ، ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل(٩٠) . ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا ، فيضربه بالسيف ، فيقطعه جزلتين(٩١) ، رمية الغرض(٩٢) ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين(٩٣) ، واضعا كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه

---

(٨٤) شديد جعودة الشعر .
(٨٥) اي سيظهر في مكان بين الشام والعراق .
(٨٦) السارحة هي الماشية التى تسرح ، أي تذهب أول النهار الى المرعى .
(٨٧) الذرى ، بضم الذال هي الاعالي والأسنمة .
(٨٨) اي ضروعها كثيرة اللبن .
(٨٩) أمده خواصر : اي لكثرة امتلائها من الشبع .
(٩٠)أي كجماعة النحل ، واليعاسيب هي ذكور النحل .
(٩١) اي قطعتين .
(٩٢) اي يجعل بين الجزلتين مقدار رمية الغرض .
(٩٣) اي ثوبين مصبوغين .

طر ، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحل(٩٤) لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ، ونفسه ينتهي حيث ينتهى طرفه . فيطلبه حتى يدركه بباب لد ، فيقتله . . .)(٩٥) .

هذه الاحاديث وغيرها حجة لمذهب أهل السنة في وجوب الاعتقاد بظهور الدجال حسب ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما وصفه به من الصفات ، وما يؤول أمره إليه ، وأنه من العلامات الكبرى لقيام الساعة .

فإذا قيل : كيف يجري الله الآيات الباهرة على يده ، والمعجزات لا تكون إلا للأنبياء فقد قال الخطابي في الجواب عن هذا التساؤل : (الجواب أنه على سبيل الفتنة للعباد ، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق في دعواه ، وهو أنه أعور ، مكتوب على جبهته كافر يقرؤه كل مسلم ، فدعواه داحضة مع وسم الكفر ونقص الذات والقدر ، إذ لو كان إلها لأزال ذلك عن وجهه ، وآيات الأنبياء سالمة من المعارضة ، فلا يشتبهان)(٩٦) . ويقول ابن حجر(وفي الدجال مع ذلك دلالة بينة لمن عقل ، على كذبه، لأنه ذو أجزاء مؤلفة ، وتأثير الصنعة فيه ظاهر ، مع ظهور الآفة به من عور عينيه فإذا دعا الناس إلى أنه ربهم ، فأسوأ حال من يراه من ذوي العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسوي خلق غيره ويعدله ، ويحسنه ، ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأقل ما يجب أن يقول : يا من يزعم أنه خالق السماء والأرض صور نفسك وعدلها ، وأزل عنها العاهة فإن زعمت أن الرب لا يحدث في نفسه شيئا فأزل ما هو مكتوب بين عينيك)(٩٧) .

د ــ نزول عيسى عليه السلام :

فقد دلت السنة ، وأجمعت الأمة على أن عيسى عليه السلام ينزل فى آخر الزمان : قرب الساعة ، أثناء وجود الدجال ، فيقتله ، ويحكم بشريعة

---

(٩٤) أي لا يمكن ولا يقع لكافر .

(٩٥) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٦٣ وما بعدها .

(٩٦) نقله ابن حجر في فتح الباري جـ ١٣ ص ٨٩ .

(٩٧) المرجع السابق .

الإسلام ، ويحيي من شأنها ما تركه الناس ، ثم يمكث في الأرض ما شاء الله أن يمكث ، ثم يموت ، ويصلي عليه المسلمون ويدفن ، وقد ورد بذلك أحاديث صحيحة كثيرة ، تقدم بعضها ، فيجب على كل مسلم أن يصدق به ، وأن يعتقد بما أخبر به كتاب ربنا من أن عيسى عليه السلام لم يقتله اليهود وانما رفعه الله إليه ، وأنه لن يموت حتى ينزل قبل قيام الساعة ، فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وقولهم : إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم . وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه ، وكان الله عزيزا حكيما . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ، ويوم القيامه يكون عليهم شهيدا** ﴾(٩٨) .

فانظر إلى قوله تعالى ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾ . وفي تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته** ﴾ ، قال ابن كثير : (قال ابن جرير : وأولى هذه الأقوال بالصحة القول الأول ، وهو أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام . ولا شك أن هذا الذي قاله ابن جرير هو الصحيح ، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك ، وإنما شبه لهم ، فقتلوا الشبه ، وهم لا يتبينون ذلك ، ثم أنه رفعه إليه ، وأنه باق حي ، وأنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلت عليه الأحاديث المتواترة . . . فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، فأخبرت هذه الآية الكريمة أنه يؤمن به جميع أهل الكتاب حينئذ ولا يتخلف عن التصديق به واحد منهم . . .)(٩٩) .

ومن الأحاديث الواردة في ذكر نزول عيسى عليه السلام ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلًا فيكسر

---

(٩٨) النساء ــ الآيات ١٥٧ ــ ١٥٩ .

(٩٩) تفسير ابن كثير حـ ١ ص ٥٧٧ .

الصليب(١٠٠) ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية(١٠١) ، ويفيض المال(١٠٢) ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا(١٠٣) ، من الدنيا وما فيها(١٠٤) . والأحاديث في هذا كثيرة صحيحة(١٠٥) . قال القاضي عياض : (نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال حق و صحيح عند أهل السنة للأحاديث الصحيحة في ذلك ، وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله ، موجب إثباته . وأنكر ذلك بعض المعتزله ومن وافقهم ، وزعموا أن الأحاديث مردودة بقوله تعالى ﴿ وخاتم النبيين ﴾ ، وبقوله ﷺ (لا نبي بعدي) وبإجماع المسلمين ، أنه لا نبي بعد نبينا ﷺ ، وأن شرعيته مؤبدة إلى يوم القيامة لا تنسخ . وهذا استدلال فاسد ، لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أنه ينزل نبيا بشرع ينسخ شرعنا ، ولا في هذه الأحاديث ولا في غيرها شيء من هذا ، بل صحت هذه الأحاديث أنه ينزل يحكم بشرعنا ، ويحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس)(١٠٦) .

هـ ــ ظهور يأجوج ومأجوج :

وقد ورد ذكر هذه العلامة في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا . قالوا : يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ، فهل

---

(١٠٠) المراد بذلك أنه عليه السلام يكسره حقيقة ، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه ، وقيل : ان المراد من كسره اظهار كذب النصارى حيث ادعوا أن اليهود صلبوا عيسى عليه السلام على خشب ــ انظر الدين الخالص جـ ١ ص ٩٢ .

(١٠١) المقصود بوضع الجزية : أن عيسى عليه السلام يسقطها عن أهل الكتاب فلا يقبل منهم الا الاسلام وليس معنى ذلك أن عيسى عليه السلام ينسخ حكما من شريعة الاسلام ولكن هذا الحديث يدل على ان قبول الجزية في شريعة الاسلام ملغيا بنزول سيدنا عيسى عليه السلام ــ المرجع السابق جـ ١ ص ٩٣ .

(١٠٢) أي يكثر المال بسبب ما ينشره عيسى عليه السلام من العدل بين الناس .

(١٠٣) المقصود أن رغبات الناس تقل في اقتناء المال لقصر آمالهم وعلمهم بقرب وقوع الساعة ، وتكثر رغبتهم في طاعة الله عز وجل .

(١٠٤) متفق عليه .

(١٠٥) انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ٧ ص ٣٠٢ ، مطبعة الحلبي وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ١٨٩ وصحيح الترمذي جـ ٩ ص ٧٦ وسنن ابن ماجه ــ المجلد الثاني ، كتاب الفتن ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، والفتح الرباني جـ ٢ ص ١٤٣ الطبعة الأولى .

(١٠٦) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١٨ ص ٧٥ ، ٧٦ .

نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ قال : ما مكني فيه ربي خير ، فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتوني زبر الحديد ، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جعله نارا ، قال : آتوني أفرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا . قال : هذا رحمة من ربي ، فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا ﴾(١٠٧) . **قال عز وجل : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ، وهم**

(١٠٧) الكهف ــ الآيات ٩٢ ــ ٩٨ . ويقول سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآيات : (ونحن لا نستطيع أن نجزم بشيء عن المكان الذي بلغ اليه ذو القرنين ﴿ **بين السدين** ﴾ ولا ما هما هذان السدان . كل ما يؤخذ من النص أنه وصل الى منطقة بين حاجزين طبيعيين ، أو بين سدين صناعيين ، تفصلهما فجوة أو ممر ، فوجد هنالك قوما متخلفين ﴿ **لا يكادون يفقهون قولا** ﴾ وعندما وجدوه قويا وتوسموا فيه القدرة والصلاح ، عرضوا عليه أن يقيم لهم سدا في وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين ، ويغيرون عليهم من ذلك الممر ، فيعيثون في أراضيهم فسادا ، ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم ، وذلك في مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم . وتبعا للمنهج الصالح الذي اعلنه ذلك الحاكم الصالح من مقاومة الفساد في الارض فقد رد عليهم عرضهم الذي عرضوه من المال ، وتطوع باقامة السد ، ورأى أن أيسر طريق لاقامته هي ردم الممر بين الحاجزين الطبيعيين ، فطلب الى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية ﴿ **فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما** ﴾ ، فجمعوا له قطع الحديد ، وكوموها في الفتحة بين الحاجزين ، فأصبحا كأنهما صدفتان تغلفان ذلك الكوم بينهما ﴿ **حتى اذا ساوى بين الصدفين** ﴾ وأصبح الركام بمساواة القمتين ﴿ **قال : انفخوا** ﴾ على النار لتسخين الحديد ﴿ **حتى اذا جعله نارا** ﴾ كله لشدة توهجه واحمراره ﴿ **قال : آتوني أفرغ عليه قطرا** ﴾ اي نحاسا مذابا يتخلل الحديد ، ويختلط به ، فيزيده صلابة . وقد استخدمت هذه الطريقة حديثا في تقوية الحديد ، فوجد أن اضافة نسبة من النحاس اليه تضاعف مقاومته وصلابته وكان هذا الذي هدى الله اليه ذا القرنين ، وسجله في كتابه الخالد سبقا للعلم البشري الحديث بقرون لا يعلم عددها الا الله . بذلك التحم الحاجزين ، واغلق الطريق على يأجوج ومأجوج ، ﴿ **فما اسطاعوا ان يظهروه** ﴾ يتسوروه ﴿ **وما استطاعوا له نقبا** ﴾ فينفذوا منه ، وتعذر عليهم أن يهاجموا اؤلئك القوم الضعاف المتخلفين ، فأمنوا واطمأنوا . ونظر ذو القرنين الى العمل الفخم الذي قام به فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم ولكنه ذكر الله فشكره ، ورد اليه العمل الصالح الذي وفقه اليه ، وتبرأ من قوته الى قوة الله ، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الارض سطحا أجرد مستويا ، ثم قال رحمه الله : (وبعد فمن يأجوج ومأجوج ؟ واين هم الآن ؟ وماذا كان من أمرهم وماذا سيكون ؟ كل هذه اسئلة تصعب الاجابة عليها على وجه التحقيق ، فنحن لا نعرف عنهم الا ما ورد في القرآن ، وفي بعض الاثر الصحيح . والقرآن يذكر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين ﴿ **فأذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا** ﴾ ــ انظر في ظلال القرآن ــ المجلد الخامس ، ص ٤١١ ــ ٤١٣ .

من كل حدب ينسلون . واقترب الوعد الحق ، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا ، بل كنا ظالمين ﴾(١٠٨) .

ومما ورد في ذكرهم من الأحاديث الصحيحة ما أخرجه الشيخان عن زينب ابنة جحش رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوما فزعا يقول : (لا إله الا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه ، وحلق بأصبعيه : الإبهام والتي تليها) قالت زينب ابنة جحش : يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : (نعم إذا كثر الخبث)(١٠٩) .

ومنها ما أخرجه الإمام مسلم وغيره من حديث النواس بن سمعان الذي تقدم ذكره وفيه خبر الدجال ونزول عيسى ، وذكر يأجوج ومأجوج ، حيث قال رسول الله ﷺ : (ويبعث الله يأجوج ومأجوج ، وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية ، فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء)(١١٠) .

وهناك أحاديث صحيحة أخرى ذكرت يأجوج ومأجوج ، ومجموع النصوص الواردة بذكرهم يفيد العلم اليقيني بظهور هذه الأمة المفسدة ، في أواخر عمر هذه الدنيا فكان لابد للمؤمن من تصديق ما ورد به القرآن والخبر الصحيح من أمرهم ، وأما تحديد الزمن الذي تظهر فيه هذه الأمة ، والتفصيلات المتعلقة بأشكالهم وأوصافهم ، ومكان وجودهم قبل ظهورهم ، فكل هذا من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى .

٤ ــ بداية اليوم الآخر :

ويجب أن نؤمن بعد ذلك بما أخبر به الله عز وجل في كتابه الكريم ، ولا سيما في سورتي التكوير والانفطار ، بكل ما يحدث في آخر يوم من أيام الدنيا ، وبدء اليوم الآخر . فإن مجموع الآيات الكريمة تدل على أن اليوم الآخر يبدأ بإحداث تغيير عام في هذا الكون فتنشق السماء ، وتتناثر النجوم ،

---

(١٠٨) الأنبياء ــ ٩٦ ــ ٩٧ .

(١٠٩) صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١٣ ص ٩١ وما بعدها .

(١١٠) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٨ ص ٦٨ .

وتتصادم الكواكب ، وتتفتت الأرض ، وتغدو صعيدا جرزا ، وتصبح الجبال كثيبا مهيلا ، ويخرب كل شيء ، ويدمر كل ما عرفه الناس في هذا الوجود ، قال تعالى :﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾(١١١) ، ويكون هذا على إثر النفخة الاولى ، ينفخها اسرافيل بأمر ربه ، فيصعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله تعالى(١١٢) قال عز وجل : ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾(١١٣) . وقال : ﴿ **فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية** ﴾(١١٤) . وروى ابو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض)(١١٥) .

٥ ــ البعث :

ونؤمن بعدها أن الله سبحانه يأمر بالنفخة الثانية(١١٦) ، فتعود الحياة على إثرها إلى الأموات ، وهذا هو يوم البعث وهو إعادة الإنسان روحا وجسدا كما كان في الدنيا ، ثم يخرج الله الناس من الأجداث أحياء فيقول الكفار والمنافقون حينئذ ﴿ **يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا** ﴾(١١٧) ، ويقول المؤمنون ، ﴿ **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾(١١٨) ، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن محمدا ﷺ هو أول من يخرج من قبره ، فقد قال ﷺ :

---

(١١١) ابراهيم ــ الآية ٤٨ .

(١١٢) انظر فتح الباري ج ١١ ص ٣١٣ .

(١١٣) الزمر ــ الآية ٦٨ .

(١١٤) الحاقة ــ الآيات ١٣ ــ١٦ .

(١١٥) صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١١ ص ٣١٣ .

(١١٦) أشار الله سبحانه الى النفخة الاولى والثانية في قوله عز وجل : ﴿ **يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة** ﴾ ، فالراجفة هي النفخة الاولى ، والرادفة هي الثانية ، هكذا ورد من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما ــ انظر : صحيح البخاري وفتح الباري ، ج ١ ص ٣١٠ ، ٣١١ .

(١١٧) يس ــ الآية ٥٢ .

(١١٨) يس ــ الآية ٥٢ .

(يصعق الناس حين يصعقون فأكون أول من قام . فإذا موسى آخذ بالعرش ، فما أدري أكان فيمن صعق)[119] .

٦ ــ الحشر :

ونؤمن أنه يكون الحشر بعد بعث الخلائق وإخراجهم من قبورهم ، قال تعالى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ، ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا** ﴾[120] .

والحشر هو سوقهم جميعا إلى الموقف ، وهو المكان الذي يقفون فيه انتظارا لفصل القضاء بينهم . فبعد بعث الناس يأمر الله ملائكته ، فتسوقهم إلى الموقف ، وحالهم كما خلقوا أول مرة : حفاة غير منتعلين ، عراة غير مكتسين ، غرلًا غير مختتنين ، فقد صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا . قلت : يا رسول الله ، ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ : يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض)[121] .

وروى ابن عباس رضي الله عنهما قال : خطب رسول الله ﷺ فقال : (يا أيها الناس انكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلا ، ثم قال : كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعدا علينا إنا كنا فاعلين . . . إلى آخر الآية ، ثم قال : ألا وان أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم . ألا وإنه يجاء برجال من أمتي ، فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح)[122] ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم)[123] .

---

(١١٩) صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١١ ص ٣١٢ .

(١٢٠) مريم ــ الآيتان ٨٥ ، ٨٦ .

(١٢١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ ص ١٩٢ ، ١٩٣ . صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١١ ص ٣٢٥ .

(١٢٢) أي عيسى عليه الصلاة والسلام .

(١٢٣) انظر : صحيح البخاري مع فتح الباري ، جـ ٨ ص ٢٣٠ ، جـ ١١ ص ٣٢٢ .

وفي الموقف يصيب الخلائق كرب شديد ، فقد روى المقداد بن الأسود عن رسول الله ﷺ أنه قال : (تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل[١٢٤] ، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما ، وأشار ﷺ بيده إلى فيه)[١٢٥] ، وفي أثناء ذلك يكون أناس في ظل الله عز وجل كما أخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأبي سعيد رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه ، وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة ، فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)[١٢٦] .

فإذا اشتد الأمر بالناس ، وعظم الكرب في هذا الموقف العظيم ، استشفعوا إلى الله عز وجل بالرسل والأنبياء أن ينقذهم مما هم فيه ، ويعجل لهم فصل القضاء وكل رسول يحيلهم على من بعده ، حتى يأتون نبينا محمدا ﷺ ، فيشفع فيهم ويقبل الباري شفاعته[١٢٧] ، فينصرف الناس إلى فصل القضاء .

---

(١٢٤) قال سليم بن عامر — راوي الحديث عن المقداد — فوالله ما ادري ما يعني بالميل : أمسافة الارض أم الميل الذي يكتحل به العين . صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ ص ١٩٦ .

(١٢٥) المرجع السابق .

(١٢٦) انظر : صحيح البخاري بحاشية السندي جـ ١ ص ١٧٠ وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ٧ ص ١٢٠ ١٢١ ، ١٢٢ ، واللفظ له . والسنن الكبر جـ ١٠ ص ٨٧ ، وسنن النسائي جـ ٨ ، ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(١٢٧) وهذه هي الشفاعة العظمى الخاصة بنبينا محمد ﷺ من بين سائر اخوانه من الانبياء والمرسلين ، عليهم الصلاة والسلام . وهي متفق عليها بين الامة ، لانها ثبتت بالاحاديث الصحيحة ، وهي من المقام المحمود الذي وعد به الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ الاسراء — الآية ٧٩ — أنظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، أحاديث الشفاعة في صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٣ ص ٥٤ — ٧٧ ، وشرح العقيدة الواسطية ص ١٢٨ ، والعقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٢٧٤ .

٧ — جزاء الأعمال :

ونؤمن بجزاء الأعمال في اليوم الآخر ، فيجزى العباد ، ويجازون على كل ما كسبوه في الحياة الدنيا من خير أو شر ، قال عز وجل : ﴿ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ، ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾(١٢٨)والدين هو الجزاء ، فيقال : كما تدين تدان ، أي كما تُجَازِي تُجَازَى(١٢٩) ، وقال سبحانه : ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون** ﴾(١٣٠) ..وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : (يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)(١٣١) .

٨ — العرض والحساب :

ونؤمن أن الجزاء يكون بعد محاكمة عادلة ، يعرض فيها الناس على ربهم ، وتقام فيها الحجج عليهم ولهم ، ويطلعون على أعمالهم ، ويقرؤون صحفهم ، فيجب أن نؤمن بالعرض والحساب ، وقراءة الكتاب ، فجميعها حق ، ودل عليها الكتاب والسنة وإجماع علماء المسلمين .

فأما العرض ، فدليله قوله تعالى : ﴿ **فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾(١٣٢) ، وقوله تعالى : ﴿ **وعرضوا على ربك صفا ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة** ﴾(١٣٣) .

فيجب على كل مسلم أن يؤمن بأن كل عبد يعرض على ربه ، فيتولى سبحانه حسابه بنفسه ، وبدون وساطة : عن عدي بن حاتم ، رضي الله عنه ،

---

(١٢٨) النور — الآية ٢٥ .

(١٢٩) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٦٥ .

(١٣٠) القصص — الآية ٨٤ .

(١٣١) من حديث قدسي طويل رواه مسلم — انظر رياض الصالحين ص ٦٢ ، ٦٣ .

(١٣٢) الحاقة — الآيات ١٥ — ١٨ .

(١٣٣) الكهف — الآية ٤٨ .

أن النبي ﷺ قال : (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة ، ليس بينه وبينه ترجمان ، ثم ينظر فلا يرى شيئا قدامه ، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار ، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة)(١٣٤) .

ويدخل في معنى العرض إبراز الأعمال وإظهارها ، فيعرف صاحبها بذنوبه ، فإن كان من أهل النجاة ، وهو الذي يؤتي كتابه بيمينه ، تجاوز الله عن ذنوبه ، ولم يناقشه الحساب ، وأدخله الجنة ، ولم يعذبه بالنار . وأما من كثرت معاصيه ، وأوتي كتابه وراء ظهره ، فذلك يناقش الحساب ، ويسأل عن كل صغيرة وكبيرة ، فقد حدثت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ، فقلت : يا رسول الله : أليس قد قال الله : فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب)(١٣٥) ،والمراد بالمناقشة الاستقصاء في المحاسبة ، والمطالبة بالجليل والحقير وترك المسامحة(١٣٦) .

وأما أخذ العباد صحائف أعمالهم يوم القيامة ، وقراءتهم لها ، فحق يجب الإيمان به ومن أنكره كفر ، قال تعالى : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾(١٣٧) . ويجب علينا أن نؤمن بما جاء في قوله تعالى عن هذا الأمر ، حيث قال : ﴿ **يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه : فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ، وينقلب إلى أهله مسرورا ، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ، فسوف يدعو ثبورا ، ويصلى سعيرا ، إنه كان في أهله مسرورا ، إنه ظن أن لن يحور ، بلى إن ربه كان به بصيرا** ﴾(١٣٨) .

والمراد بهذه الصحف التي يقرؤها العباد ، الكتب التي كتبت فيها الملائكة

---

(١٣٤) صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١١ ص ٣٤٠ .

(١٣٥) صحيح البخاري ج ١١ ص ١٣٨ .

(١٣٦) فتح الباري ج ١١ ص ٣٣٧ .

(١٣٧) الاسراء — الآيتان ١٣ ، ١٤ .

(١٣٨) الانشقاق — الآيات ٦ — ١٥ .

ما فعلوه في الحياة الدنيا[١٣٩] ، فقد عرفت أن من أركان الإيمان التصديق بما أخبر به الله سبحانه عن ملائكته وأعمالهم ، والإيمان بهم يكون بتصديق كل ما أخبر عنهم ربهم إجمالا وتفصيلا . وأنه يجب علينا أن نؤمن بأن الله عز وجل وكل بنا من ملائكته من يحفظنا ، ويكتب أعمالنا وأقوالنا ، وهم الحافظون الكرام الكاتبون ، الذين قال عنهم سبحانه وتعالى : ﴿ **وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين ، يعلمون ماتفعلون** ﴾[١٤٠] . وقال أيضا : ﴿ **هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾[١٤١] . فما يستنسخه هؤلاء الكرام يقرؤه العباد يوم القيامة .

وأما الحساب فالمراد به توقيف الله تعالى العباد ، قبل الإنصراف من المحشر ، على أعمالهم ، وأقوالهم واعتقاداتهم ، خيرا كانت أو شرا ، وذلك بعد أخذهم صحائفهم فيعرفون على أعمالهم ، وما لهم وما عليهم ، قال تعالى : ﴿ **ثم إلى ربهم مرجعهم ، فينبئهم بما كانوا يعملون** ﴾[١٤٢] .

ثم إن الناس في الحساب متفاوتون :

فمنهم من يحاسب حسابا يسيرا ، يعرض عليه عمله ، فيطلعه الله على سيئاته ، بحيث لا يطلع عليها أحد ، ثم يعفو عنه ، ويأمر به إلى الجنة .

ومنهم من يناقش الحساب ، بأن يسأل عن كل جزئية ، ويطالب بالعذر والحجة فلا يقبل منه عذر ولا حجة ، فيهلك مع الهالكين ، ويأمر الله تعالى مناديا ينادي عليه بسيئات أعماله ، فيفتضح بين الخلائق . فعلى المؤمن أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ، ويبادر بالأعمال الصالحة قبل الأوان ، ويؤمن بالحساب ويستعد له ، فقد قال تعالى ﴿ **وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين** ﴾[١٤٣] ، وقال رسول الله ﷺ : (لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيم أفناه ؟ وعن عمله فيم فعل فيه ؟ وعن ماله من

---

(١٣٩) شرح البيجوري على جوهرة التوحيد ص ـ٢١٢ .

(١٤٠) الانفطار ـ الآيات ١٠ ـ ١٢ .

(١٤١) الجاثية ـ الآية ٢٩ .

(١٤٢) الانعام ـ الآية ١٠٨ .

(١٤٣) الانبياء ـ الآية ٤٧ .

أين اكتسبه ؟ وفيم أنفقه ؟ وعن جسمه فيم أبلاه ؟)(١٤٤) .

وقد دلت الأحاديث الصحيحة أن قوما من أمة محمد ﷺ يتفضل عليهم ربهم ، ويستثنيهم من هذا الحساب ، ويدخلهم الجنة من غير حساب ولا عذاب ، فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب)(١٤٥) .

وأما كيفية الحساب فنؤمن بما ورد في القرآن عنها ، وفي حديث رسول الله ﷺ ، ولا نزيد ولا ننقص ، ولا نسأل عن أكثر مما ورد : فنؤمن أن الله سبحانه يذكر كل عبد بما قدمه في الحياة الدنيا من خير أو شر ، ويشهد على العباد جميع من يستشهدهم الله عليهم(١٤٦) ، فتشهد الأرض بما حدث على ظهرها ، كما قال عزوجل : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان : ما لها ؟ يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم : فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾(١٤٧) . فقد ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **يومئذ تحدث أخبارها** ﴾ فقال : أتدرون ما أخبارها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : فإن أخبارها أن تشهد على عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا ، قال : فهذه أخبارها)(١٤٨) .

ونؤمن أيضا بأنه يكون في هذا الحساب شهادة الأعضاء : من ألسنة وأيد وأرجل وجلود وغيرها على كل ما فعله العبد ، وبما أخبر الله تعالى من تجاوز

---

(١٤٤) اخرجه الترمذي وقال عنه حديث حسن صحيح . انظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ٩ ص ٢٥٣ .

(١٤٥) صحيح مسلم بشرح النووي ج ٣ ص ٨٨ .

(١٤٦) قال محمود خطاب السبكي : (واعلم أنه سيشهد على العاصي أحد عشر شاهدا في اليوم المشهود : اللسان والايدي والارجل والسمع والبصر والجلد والارض والليل والنهار ، والحفظة الكرام والمال) ثم ساق على ذلك عددا من الآيات والاحاديث — انظر : الدين الخالص ج ـ ١ ص ١٠٥ وما بعدها .

(١٤٧) سورة الزلزلة الآيتان ٧ ، ٨ .

(١٤٨) رواه الترمذي ، وقال حسن غريب — انظر صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ج ٩ ص ٢٦٠ .

أعداء الله مع هذه الشهود ، قال عز وجل : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ﴾(١٤٩) .

ونؤمن أيضا بما أخبرنا به رسول الله ﷺ من رحمة الله عز وجل بعباده المؤمنين عند الحساب ، دون الكافرين ، فيخلو سبحانه بعبده المؤمن ، ويقرره بذنوبه ، ويستر عليه ، ولا يناقشه الحساب . فقد ورد أنه قيل لابن عمر رضي الله عنهما : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى (مناجاة الله لعبده المؤمن في الآخرة) ؟ قال : سمعته يقول : (يدنو أحدكم من ربه ، حتى يضع كنفه عليه ، فيقول : أعملت كذا وكذا ؟ فيقول نعم . ويقول : أعملت كذا وكذا ، فيقول : نعم . فيقرره ثم يقول : إني سترت عليك في الدنيا ، وإني أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى صحيفة حسناته . وأما الكفار ، فينادى على رؤوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين)(١٥٠) .

٩ ــ الحوض :

ويجب علينا أن نؤمن بما أخبر به المصطفى ﷺ عن الحوض الذي تفضل الله به عليه وعلى أمته ، فإن الأحاديث الواردة في ذلك تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة أكثر من ثلاثين صحابيا(١٥١) .

ويكون أول من يرده نبينا محمد ﷺ ، ثم ترده بعده أمته ، ويطرد عنه الكفار ،وطائفة من العصاة وأهل الكبائر(١٥٢) . وذلك بعد الانتهاء من

(١٤٩) فصلت ــ الآيات ١٩ ــ ٢٢ .

(١٥٠) متفق عليه ــ انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١٣ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(١٥١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٠ ، وشرح النووي على صحيح مسلم جـ ١٥ ص ٥٣ وشرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ص ١١٥ ، شرح البيجوري على الجوهرة ص ٢٢٣ ، والدين الخالص جـ ١ ص ١١١ .

(١٥٢) الدين الخالص جـ ١ ص ١١١ .

الموقف ، بما فيه من أهوال وعرض وحساب وقراءة الصحف ، وغيرها ، قال رسول الله ﷺ : (أنا فرطكم)(١٥٣) على الحوض ، من ورد شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبدا وليردَنّ عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ، ثم يحال بيني وبينهم فيقول ﷺ : إنهم أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما عملوا بعدك ، فأقول : سحقا سحقا لمن بدل بعدي)(١٥٤) . وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ، ثم انصرف إلى المنبر فقال : (إني فرط لكم ، وأنا شهيد عليكم ، والله لأنظر إلى حوضي الآن ، وإني قد اعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض ، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ، ولكن أخاف أن تتنافسوا فيها)(١٥٥) . وأخرج البخارى ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال : (إني على الحوض حتى أنظر من يرد علي منكم ، وسيؤخذ أناس دوني فأقول : يارب مني ومن أمتي ، فيقال : أما شعرت ما عملوا بعدك ، والله ما برحوا بعدك يرجعون على أعقابهم)(١٥٦) .

هذا ونؤمن بما ورد في صفته على لسان رسول الله ﷺ . ونحمله على ظاهره ، لا نزيد عليه ولا ننقص منه ، قال شارح العقيدة الطحاوية : (والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض : أنه حوض عظيم ، ومورد كريم ، يمد من شراب الجنة ، من نهر الكوثر ، الذي هو أشد بياضا من اللبن ، وأبرد من الثلج وأحلى من العسل ، وأطيب ريحا من المسك ، وهو في غاية الاتساع ، عرضه وطوله سواء ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر . وفي بعض الأحاديث : أنه كلما شرب منه وهو في زيادة واتساع . . فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء)(١٥٧) .

ومن الأحاديث الواردة في صفة الحوض ما أخرجه البخاري عن عبد الله

---

(١٥٣) الفرط هو من يتقدم الواردة ليرتاد لهم الماء ، ويهيء لهم الارشية والدلاء والمعنى : انا متقدمكم وسابقكم الى الحوض .

(١٥٤) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٥ ، ص ٥٣ ، ٥٤ .

(١٥٥) متفق عليه ـ انظر صحيح البخاري ـ كتاب الجنائز ـ باب الصلاة على الشهيد . وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٥ ص ٥٧ .

(١٥٦) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٥ ص ٥٥ .

(١٥٧) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥١ .

بن عمرو رضي الله عنهما أنه قال : قال النبي ﷺ : (حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه(١٥٨)كنجوم السماء ، من شرب منها فلا يظمأ أبدا)(١٥٩) .

والأحاديث الصحيحة الواردة في ذكر حوض نبينا ﷺ كثيرة ، بلغت حد التواتر ، وتصديقها من الإيمان ، قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : (أحاديث الحوض صحيحة ، والإيمان به فرض ، التصديق به من الإيمان ، وهو على ظاهره عند أهل السنة والجماعة ، لا يتأول ، ولا يختلف فيه . . وحديثه متواتر النقل ، رواه خلائق من الصحابة فذكره مسلم من رواية ابن عمرو بن العاص وعائشة وأم سلمة وعقبة بن عامر وابن مسعود وحذيفة وحارثة بن وهب ، وأبي ذر وثوبان وأنس وجابر بن سمرة ، رواه غير مسلم من رواية أبي بكر الصديق ، وزيد بن أرقم وأبي أمامه وعبد الله بن زيد وأبي برزة وسويد بن حبلة وعبد الله بن الصنابحي والبراء بن عازب ، وأسماء بنت أبي بكر وخوله بنت قيس وغيرهم . . . وفي بعض هذا ما يقتضي كون الحديث متواترا)(١٦٠) .

هذا وقد ورد في بعض الأحاديث الصحيحة أن لكل نبي حوضا ، وأن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها واردا(١٦١) .

١٠ ــ الميزان :

ويجب علينا أن نؤمن بما أخبر به الله عز وجل ، ورسوله ، ﷺ من أن أعمال العباد ، خيرها وشرها ، توزن يوم القيامة بميزان ، إظهارا لعدل الله فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾(١٦٢) . وقال تعالى : ﴿ **والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت**

(١٥٨)أي آنيته أو أباريقه .

(١٥٩) صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١١ ص ٣٩٦ ــ ٣٩٨ . وهو في صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٥ ص ٥٥ .

(١٦٠) نقله عن القاضي عياض النووي في شرحه على صحيح مسلم جـ ١٥ ص ٥٣ .

(١٦١) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥١ ، شرح البيجوري على الجوهرة ص ٢٢٣ ، والدين الخالص جـ ١ ص ١١١ .

(١٦٢) الانبياء ــ الآية ٤٧ .

موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾(١٦٣) . وقال أيضا :**﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ﴾**(١٦٤) .

وتدل الأخبار على أنه ميزان حقيقي ، له كفتان ، وأن الله سبحانه يحول أعمال العباد الى أجسام لها ثقل ، فتوضع الحسنات في كفة والسيئات في كفة(١٦٥) . وفي ذلك قال ابن القيم في قصيدته المشهورة :

أفما تصدق أن أعمال العباد تحط يوم العرض في الميزان
وكذلك تثقل تارة وتخف أخرى ذاك في القرآن ذو تبيان
وله لسان كفتان تقيمه والكفتان إليه ناظرتان
ماذاك أمرا معنويا بل هو المحسوس حقا عند ذي الإيمان(١٦٦)

هذا ويكون وزن الأعمال بعد اتمام الحساب ، لأن الوزن للجزاء ، فيكون بعد المحاسبة التي هي لتقرير الأعمال الحادثة ، فيكون الوزن لإظهار مقاديرها ، ليكون الجزاء بحسبها(١٦٧) ولكن لا يكون وزن في حق الأنبياء والملائكة ، ومن استثناهم الله من الحساب) (١٦٨) .

١١ ــ الصراط :

ونؤمن أنه يكون بعد الحساب والميزان انصراف الناس من الموقف ، ليمروا فوق الجسر المنصوب على جهنم ، وهو الصراط .

والمرور على الصراط عام لجميع الناس : الأنبياء والصديقين ، والمؤمنين ، والكفار ، ومن يحاسب ومن لا يحاسب . ومن استقام على صراط الله الذي هو

---

(١٦٣) الاعراف ــ الآيتان ٨ ، ٩ .
(١٦٤) القارعة ــ الآيات من ٦ ــ ٨ .
(١٦٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٧٢ ، شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس ، ص ١٢٣ ، الدين الخالص جـ ١ ص ١٠٧ .
(١٦٦) انظر قصيدة ابن القيم مع شرحها جـ ٢ ص ٥٩٣ .
(١٦٧) نقل ذلك عن القرطبي شارح العقيدة الطحاوية ص ٤٧٢ .
(١٦٨)شرح البيجوري على الجوهرة ص ٢١٥ .

دين الحق في الدنيا ، استقام على هذا الصراط(١٦٩) في الآخرة . وقد ورد فى بعض الأحاديث الصحيحة أن الناس يمرون عليه ، وتكون سهولة ذلك عليهم بقدر أعمالهم في الحياة الدنيا : فمنهم من يمر كانقضاض الكواكب ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر يرمل رملا ، فيمرون على قدر أعمالهم ، حتى يمر المقل في العمل الصالح ، تخريد وتعلق يد ، وتخر رجل وتعلق رجل ، وتصيب جوانبه النار ، فيخلصون ، فإذا خلصوا قالوا : الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك ، لقد اعطانا الله ما لم يعط أحد(١٧٠) .

هذا وقد ورد في ذكر الصراط جملة أحاديث صحيحة ، نذكر لك منها هذا الحديث الذي أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه :

فقد أخبر أن ناسا قالوا لرسول الله ﷺ : يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : فإنكم ترونه كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت(١٧١) الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها(١٧٢)فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم ، فيقولون : نعوذ بالله منك(١٧٣) ، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله

---

(١٦٩) أصل الصراط ــ الطريق ، ويلفظ بالسين أيضا ، واشتقاقه من سرط أي ابتلع ، وقيل سمي بذلك لانه يسترط السابلة (المارة) ، أي يبتلعهم ــ انظر المصباح المنير .

(١٧٠) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٧٠ ، والعقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس ص ١٢٦ .

(١٧١) قال اهل اللغة : الطاغوت كل ما عبد من دون الله تعالى ــ انظر شرح النووي على صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٨ .

(١٧٢) قال العلماء : انما بقوا في زمرة المؤمنين ، لانهم كانوا في الدنيا متسترين بهم فيسترون بهم أيضا في الآخرة ، ويسلكون مسلكهم ، ويدخلون في جملتهم ويتبعونهم ويمشون في نورهم حتى يضرب الله بينهم بسور ، ويذهب عنهم نور المؤمنين . حتى يكون مقرهم الدرك الاسفل من النار ــ انظر شرح النووي على مسلم جـ ٣ ص ١٩ .

(١٧٣) قال القرطبي في تأويل ذلك : هو مقام هائل يمتحن الله به عباده ليميز الخبيث من الطيب ، وذلك أنه لما بقي المنافقون مختلطين بالمؤمنين زاعمين أنهم منهم ظانين أن ذلك يجوز في ذلك الوقت كما جاز في الدنيا امتحنهم الله بأن أتاهم بصورة هائلة قالت للجميع : أنا ربكم ، فأجابه

تعالى في صورته التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم ، وفي جهنم(١٧٤) ، كلاليب(١٧٥) ، مثل شوك السعدان(١٧٦) ، هل رأيتم السعدان ؟ قالوا نعم يارسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنه لا يعلم ما قدّر عظمها إلا الله ، تخطف الناس بأعمالهم(١٧٧)فمنهم المؤمن بقي بعمله(١٧٨) ، ومنهم المجازى حتى ينجى(١٧٩) .

هذا والمرور على الصراط هو الورود المذكور في قوله تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾(١٨٠) إنه لا ينجو منه أحد كما تقدم ، فقد روى الإمام مسلم أن رسول الله ﷺ قال : (لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد ، الذين بايعوا تحتها ، فقالت حفصه ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ ، فقال النبي ﷺ : قد قال الله عز وجل : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾(١٨١) ، فأشار ، عليه الصلاة والسلام إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها(١٨٢) ، فالجميع يمرون من فوق جهنم فوق الصراط وينجي الله المؤمنين ، ويذر الظالمين فيها جثيا ، ثم إذا عبر المؤمنون الصراط ، وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص من بعضهم لبعض ، فإذا

= المؤمنون بانكار ذلك لما سبق لهم من معرفته سبحانه وانه منزه عن صفات هذه الصورة ، فلهذا قالوا : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا — نقل هذا عن القرطبي ابن حجر في فتح الباري ج ١١ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

(١٧٤) لفظ البخاري (وبه) أي في الجسر المنصوب على جهنم .

(١٧٥) جمع كلوب بفتح الكاف وضم اللام المشددة ، وهو حديدة معطوفة الرأس .

(١٧٦) نبت له شوكة عظيمة من كل الجوانب .

(١٧٧) يجوز أن يكون المعنى تخطفهم بسبب أعمالهم ، ويجوز أن يكون معناه : تخطفهم على قدر أعمالهم شرح النووي على صحيح مسلم ج ٣ ص ٢١ .

(١٧٨) لفظ البخاري : (فمنهم الموبق بعمله ، ومنهم المخردل) أي المقطع أو المصروع .

(١٧٩) جزء من حديث أخرجه الشيخان ، واللفظ لمسلم — انظر صحيح البخاري ج ١١ ص ٣٦٧ وصحيح مسلم بشرح النووي ج ٣ ص ١٧ .

(١٨٠) مريم — الآية ٧١ .

(١٨١) مريم — الآية ٧٢ . والحديث أخرجه الامام مسلم — انظر صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ ص ٥٧ .

(١٨٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٧١ .

هذبوا أذن لهم في دخول الجنة ، روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال : (يخلص المؤمنون من النار ، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى اذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا)(١٨٣) .

١٢ ــ الجنة والنار :

وبعد ذلك كله نؤمن بوجود الجنة والنار ، وأنهما مخلوقتان من مخلوقات الله عز وجل أعدهما الله للثواب والعقاب ، وأنه سبحانه وتعالى خلقهما قبل الخلق ، وأنهما موجودتان الآن ، وأنهما باقيتان ولا تبيدان ، قال تعالى عن النار : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون** ﴾(١٨٤) . وقال أيضا : ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت ، وتقول : هل من مزيد** ﴾(١٨٥) . وقال عز وجل مخبرا عن بعض ما فيها : ﴿ **أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم** ﴾(١٨٦) وقال رسول الله ﷺ في وصف النار : (ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ، قيل : يارسول الله : إن كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها)(١٨٧) وقال علية الصلاة والسلام في وصف أخف العذاب في النار :

(إن أهون النار عذابا يوم القيامة لرجل توضع في أخمص قدميه جمرة يغلي منها دماغه)(١٨٨) .

وأما الجنة فقد أكثر الله سبحانه من ذكر نعيمها في كتابه الكريم ، من

(١٨٣) صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١١ ص ٣٣٦ .
(١٨٤) التحريم ــ الآية ٦ .
(١٨٥) ق ــ الآية ٣٠ .
(١٨٦) الصافات ــ الآيات ٦٢ ــ ٦٧ .
(١٨٧) صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ٦ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، الموطأ ص ٦١٤ .
(١٨٨) صحيح البخاري مع فتح الباري جـ١١ ص ٣٦١ .

ذلك : قوله تعالى : ﴿ إن المتقين في مقام أمين ۞ في جنات وعيون ۞ يلبسون من سندس واستبرق متقابلين ۞ كذلك وزوجناهم بحور عين ۞يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ۞لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ۞فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾(١٨٩) . وقال أيضا : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ۞هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ۞ من خشي الرحمن بالغيب ۞ وجاء بقلب منيب ۞ ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ۞ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾(١٩٠) ، وقال أيضا : ﴿ ان المتقين في جنات ونعيم ۞ فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون . متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين . والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ، كل امرىء بما كسب رهين . وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم . ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾(١٩١) . وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن رب العزة تبارك وتعالى فى وصف نعيم الجنة : (أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فاقرأوا إن شيئتم : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ...) .

كذلك نؤمن بما يكون من تحاور وتخاطب بين أهل الجنة وأهل النار ، فانظر إلى هذا المشهد في سورة الأعراف : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قالوا : نعم ، فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة كافرون ﴾(١٩٣) ، ثم قال سبحانه وتعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين ﴾(١٩٤) .

(١٨٩) الدخان — الآيات ٥١ — ٥٧ .
(١٩٠) ق — الآيات ٣١ — ٣٥ .
(١٩١) الطور — الآيات ١٧ — ٢٤ .
(١٩٢) صحيح البخاري مع فتح الباري ج ٦ ص ٢٤٧ .
(١٩٣) الاعراف — الآيتان ٤٤ ، ٤٥ .
(١٩٤) الاعراف — الآية ٥٠ .

وأما خلود الجنة والنار ، وخلود المؤمنين في الأولى والكافرين في الثانية فقد تكرر ذكره والتأكيد عليه في معظم المواقع التي ذكرت فيها الجنة والنار في كتاب الله عز وجل . وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ : (اذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة : لا موت ، يا أهل النار : لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم)(١٩٥) .

* * *

(١٩٥) صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١١ ص ٣٥١ .

الإيمان بقضاء الله وقدره

الإيمان بالقدر أحد أركان العقيدة الإسلامية ، وهو الركن السادس للإيمان ، فمن كفر بقدر الله خرج من دين الله عز وجل .

وقد تقدم حديث عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال — عندما سأله جبريل عن الإيمان — : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره)[١] .

تعريف القضاء والقدر :

اختلفت عبارات العلماء في تعريف القضاء والقدر ، فمنهم من جعلهما شيئا واحدا ومنهم من عرف القضاء تعريفا مغايرا للقدر ، فقال :

القدر : علم الله تعالى بما تكون عليه المخلوقات في المستقبل[٢] .

والقضاء : إيجاد الله تعالى الأشياء حسب علمه وإرادته .

وقد عكس بعضهم ، فجعل تعريف القضاء السابق للقدر ، وتعريف القدر للقضاء ، والأمر محتمل[٣] .

ومن عرفهما تعريفا واحدا قال : (هو النظام المحكم الذي وضعه الله لهذا الوجود والقوانين العامة ، والسنن التي ربط بها الأسباب بمسبباتها)[٤] . وهذا المعنى هو ما وردت به آيات القرآن التي ذكرت القدر ، مثل قوله تعالى : ﴿ **وكل شيء عنده بمقدار** ﴾[٥]وقوله تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾[٦] ، وقوله تعالى : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[٧] .

---

(١) انظر تخريج الحديث في ص ٥ .
(٢) تبسيط العقائد الاسلامية لحسن ايوب ص ٧٧ .
(٣) طبرى اليقينيات الكونية ص ١٤٧ .
(٤) العقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٩٥ .
(٥) الرعد — الآية ٨ .
(٦) الحجر — الآية ٢١ .
(٧) القمر — الآية ٤٩ .

وما أجمل جواب الإمام أحمد عندما سئل عن القدر فقال : القدر قدرة الرحمن يقول ابن القيم في قصيدته الكافية الشافية(٨) :

محقيقة القدر الذي حار الورى في شأنه هو قدرة الرحمن
استحسن ابن عقيل ذا من أحمد لما حكاه عن الرضى الرباني

والحق أن تعريف أحمد رحمه الله تعالى قد كفى وشفى ، فالقدر يعني ما قرره الله سبحانه في قوله تعالى : ﴿ **قل إن الأمر كله لله** ﴾ (٩) ، وفي قوله : ﴿ **وإليه يرجع الأمر كله** ﴾(١٠) ، وفي قوله : ﴿ **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء** ﴾(١١) ، وقوله﴿ **يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه** ﴾(١٢) ، وغير ذلك من الآيات التي تدل على أنه لا يحدث شيء في الكون إلا بإرادة الله ومشيئته) .

وعقيدة القدر مبنية في حقيقتها على الإيمان بصفات الله العلى ، وأسمائه الحسنى ، ومنها : العلم ، والقدرة ، والإرادة قال تعالى : ﴿ **وهو بكل شيء عليم** ﴾(١٣) وقال : ﴿ **وهو على كل شيء قدير** ﴾(١٤) . وقال : ﴿ **فعال لما يريد** ﴾(١٥) .

قال الطحاوي : (وكل شيء يجري بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ ، لا مشيئة العباد إلا ما شاء الله ، فما شاء لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره)(١٦) .

معنى الإيمان بالقدر :

ويجب على كل مسلم أن يؤمن بالقدر ، خيره وشره ، حلوه ومره .

(٨) شرح قصيدة ابن القيم ج ١ ص ٢٥٤ .
(٩) آل عمران ـــ الآية ١٥٤ .
(١٠) هود ـــ الآية ١٢٣ .
(١١) يس ـــ الآية ٨٣ .
(١٢) يونس ـــ الآية ٣ .
(١٣) البقرة ـــ الآية ٢٩ .
(١٤) الحديد ـــ الآية ٢ .
(١٥) البروج ـــ الآية ١٦ .
(١٦) شرح العقيدة الطحاوية ص ١٥٣ .

ويقصد بالإيمان بالقدر الإيمان بعلم الله القديم ، والإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة . وفي بيان ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : (الإيمان بالقدر على درجتين ، كل درجة تتضمن شيئين :

فالدرجة الأولى :

الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون ، بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال . ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلق ، فأول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب ، قال ما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه ، وما اخطأه لم يكن ليصيبه ، جفت الأقلام وطويت الصحف ، كما قال تعالى : **﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ، إن ذلك في كتاب ، إن ذلك على الله يسير ﴾**(١٧) . وقال : **﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير ﴾**(١٨) .

وأما الدرجة الثانية :

فهي الإيمان بمشيئة الله النافذة ، وقدرته الشاملة . وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن . وأنه ما في السموات وما في الأرض من حركة ولا سكون الا بمشيئة الله سبحانه ، لا يكون في ملكه مالا يريد ، وأنه سبحانه على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات ، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ، ولا رب سواه . ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ، ويرضى عن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ولا يحب الكافرين ، ولا يرضى عن القوم الفاسقين ، ولا يأمر بالفحشاء ، ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يحب الفساد . والعباد فاعلون حقيقة ، والله خالق أفعالهم ، والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم ، و للعباد قدرة على أعمالهم ، ولهم إرادة ، و الله خالق قدرتهم وإرادتهم)(١٩) .

---

(١٧) الحج الآية ٧٠ .

(١٨) الحديد ــ الآية ٢٢ .

(١٩) انظر : الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ص ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

فيتحصل من كلام ابن تيمية رحمه الله أن الإيمان بالقدر يشتمل على اربع مراتب هي :

الاولى : الإيمان بعلم الله القديم وأنه علم أعمال العباد قبل أن يعملوها .

الثانية : كتابة ذلك في اللوح المحفوظ .

الثالثة : مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة .

الرابعة : إيجاد الله لكل المخلوقات ، وأنه الخالق وكل ماسواه مخلوق .

هذا وإن تقسيم القدر الذي يجب الإيمان به إلى خير وشر ، إنما هو باضافته إلى الناس والمخلوقات . أما بالنسبة لله عز وجل ، فالقدر خير كله ، والشر لا ينسب إلى الله[٢٠] . فعلم الله ومشيئته وكتابته وخلقه للاشياء والحوادث ، هذا كله حكمة وعدل ورحمة وخير ، فإن الشر لا يدخل في شيء من صفات الله تعالى ، ولا أفعاله ، ولا يلحق ذاته تبارك وتعالى نقص ولا شر ، فله الكمال المطلق والجلال التام[٢١] ، ولذلك لا يجوز إضافة الشر إلى الله مفردا ، وإنما يجوز أن يدخل الشر في العموم ، كقوله تعالى : ﴿ **الله خالق كل شيء** ﴾[٢٢]ويجوز أن يضاف إلى السبب كقوله تعالى : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق** ﴾[٢٣] ، ويجوز أن يذكر بحذف فاعله ، كقوله تعالى فيما حكاه عن الجن : ﴿ **وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا** ﴾[٢٤] .

والحق أن الله تعالى لم يخلق شراً محضا من جميع الوجوه ، فإن حكمته سبحانه تأبى ذلك ، فلا يمكن في جانبه تعالى أن يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه ، ولا مصلحة في خلقه بوجه ما ، فإنه تعالى بيده الخير كله والشر ليس إليه ، بل كل ما إليه فخير ، والشر إنما حصل لعدم النسبة إليه ، فلو نسب إليه

---

(٢٠) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية جـ ٨ ص ٩٤ ، ٩٥ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٢ والروضة الندية ص ٣٥٦ .

(٢١) انظر كتاب الحسنة والسيئة لابن تيمية ص ١٩٠ ، وتيسير العزيز الحميد ص ٦٢٥

(٢٢) الزمر — آية ٦٢ .

(٢٣) الفلق — الآيتان ١ ، ٢

(٢٤) الجن — آية ١٠

لم يكن شرا ، وهو من حيث نسبته إلى الله تعالى خلقا ومشيئتة ليس بشر (٢٥) .

فالمرض مثلا شر ومصيبة بالنسبة للإنسان عاجلا ، ولكنه خير في الآجل ، وخير بالنسبة لله عز وجل لما يعلم ما يعقبه من مغفرة الذنوب ، وتطهير النفوس . وكذلك سجن أعداء الله للمؤمنين شر في ظاهره لما فيه من الآلام والمحن ، ولكنه تمحيص للنفوس ، وتطهير للصفوف ، وتربية للأرواح ، فضلا عن الثواب الجزيل والخير العميم . وخلق إبليس فيه حكم كثيرة ظاهرة : كتوبة البشر بعد الزلل ، واستخراج عبودية المؤمنين لله تعالى بجهاد إبليس وحزبه ، والصبر على إغرائه وإغوائه ، والالتجاء إلى حمى الله ، واللياذ بركنه الركين (٢٦) .

وهكذا فإن كل ما كان شرا إنما هو أمر نسبي إضافي ، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به ، وشر بالنسبة إلى من هو شر في حقه ، فله

---

(٢٥) الدين الخالص ج ١ ص ١٤٤ ، الروضة الندية ص ٣٥٦ .

(٢٦) ذكر ابن قيم الجوزية احكما كثيرة مترتبة على خلق ابليس منها :

أ ــ ان تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فخلق هذه الذات التي هي أخبث الذوات وسبب كل شر في مقابلة ذات جبريل عليه السلام التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها ، وهي سبب كل خير . وظهرت قدرته سبحانه ايضا في خلق الليل والنهار والدواء والداء ، والحياة والموت ، والحسن والقبيح ، وغير ذلك مما يدل أعظم الدلالة كمال قدرته سبحانه .

ب ــ ظهور اثار اسماء الله القهرية ، مثل القهار ، والمنتقم ، والشديد العقاب ، والسريع الحساب ، ذي البطش الشديد ، المعز والمذل ، فهذه الاسماء والافعال لابد من وجود ما تتعلق به ، ولو كان الجن والانس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الاسماء .

جـ ــ ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه ، وعتقه لمن شاء من عبيده ، فلولا خلق الاسباب المفضية الى ظهور آثار هذه الاسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد .

د ــ ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة ، فهو يعز من يشاء ويذل من يشاء . وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكر له جميل صنعه .

هـ ــ اظهار واستخراج العبوديات المتنوعة التي لولا خلق ابليس لما ظهرت ، كالجهاد والموالاة والمحبة في الله ، والبغض في الله والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والتوبة الى الله والرجوع اليه . ومخالفة عدو الله والاستعاذة بالله منه ، والاتعاظ ، والحذر من الغرور ، وغير ذلك ــ نظر مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٩٤ .

وجهان هو من احداهما خير ، وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى ، خلقا وتكوينا ومشيئة ، لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها ، واطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها(٢٧) .

احتجاج الكفار بالقدر :

هذا وقد أراد المشركون أن يحتجوا بقدر الله ومشيئته على شركهم ، وأنه لو لم يشأ لهم الشرك لما وقعوا فيه ، فأبطل الله حجتهم ودحضها بقوله عز وجل :

﴿ سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا • إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون • قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم اجمعين ﴾(٢٨) . فهذا هو جواب رب العزة لمن يحتج بقدره سبحانه على معصيته ، ولله الحجة البالغة . وجوابه سبحانه للمحتجين بالقدر واضح كل الوضوح ، لقيامه على أمرين بدهيين مسلمين لا يماري فيهما إلا من استحب العمى على الهدى ، فاستحق الهلاك ، وهما :

الاول : أن الله عز وجل أذاق الكافرين الأول بأسه ، وأنزل بهم عقابه ، فلو لم يكونوا مختارين لما ارتكبوه من الجرائم والآثام والكفر والشرك ، لما عذبهم الله ، لانه عادل لا يظلم احدا .

والذي يحتج بقدر الله على الكفر والمعصية لا يعدو أحد اثنين :

فإما أن يكون مؤمنا بوجود الله ، وإما أن يكون منكرا ، فإذا كان الأول لزمه الاعتقاد بعدل الله وتنزيهه عن الظلم ، لأن الظلم نقص لا يليق بالخالق ، لأنه تجاوز الحد ، والله سبحانه لا يعتريه نقص بحال من الأحوال ، ولاشك في أن عقاب المكره على الفعل ظلم ، والاحتجاج بقدر الله على معصيته ، مع ظهور عقابه سبحانه للعصاة ، فيه نسبة الظلم إليه ، وهو أمر يتنافى مع الإيمان بالله عز وجل . وإن كان المحتج بالقدر منكرا لله فإن احتجاجه بالقدر تناقض ومماحكة لا يستحق الجواب .

---

(٢٧) الروضة الندية ص ٣٥٦ .

(٢٨) الانعام ـ الآيتان ١٤٨ ، ١٤٩ .

الثاني : أن المحتج بالقدر على كفره ومعصيته متقول على الله بغير علم ، إذ كيف يصح للكافر أو العاصي أن يحتج بأن الله كتب عليه الكفر او المعصية قبل صدور ذلك منه ، وقدر الله وقوعه غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل ، مع إنه مخاطب قبل إقدامه على عصيان ربه بطاعته والتزام أمره ؟ وبعبارة اقرب : كيف يصح لرجل أن يقول : كتب علي ربي أن أسرق فأنا ذاهب لتنفيذ قدره ؟ فهل اطلع على اللوح المحفوظ ، فقرأ ما فيه حتى يعلم ما كتب الله عليه ، في وقت كان مخاطبا بالامتناع عن معصية الله بالسرقة وغيرها ؟ .

وبمثل هذه الحجة البالغة أجاب سبحانه على هؤلاء المتذرعين بقدر الله في مواضع أخرى من القرآن ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون** ﴾[٢٩] .

والواقع أن هذا الأسلوب القرآني في الرد على أمثال هؤلاء جاء ليصحح للناس منهجهم في الفكر والنظر ، ويبين لهم أن المطلوب منهم هو تنفيذ أوامره سبحانه ، واجتناب نواهيه ، وليس المطلوب أن يبحثوا عن غيبه المستور ليكيفوا أنفسهم على حسبه . يقول الأستاذ سيد قطب رحمة الله تعالى عليه في ظلال آية الأنعام السابقة :

(واللمسة الثانية[٣٠] ، كانت بتصحيح منهج الفكر والنظر . . . إن الله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات ، وهذا ما يملكون أن يعلموه علما مستيقنا . . . فأما مشيئه الله فهي غيب لا وسيلة لهم إليه ، فكيف يعلمونه ؟ وإذا لم يعلموه يقينا فكيف يحيلون عليه . . . إن لله أوامر ونواهي معلومة علما قطعيا فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية يمضوا وراء الحدس والخرص في واد لا يعلمونه .

هذا هو فصل القول في هذه القضية : إن الله لا يكلف الناس أن يعلموا غيب مشيئته وقدره حتى يكيفوا أنفسهم على حسبه . إنما يكلفهم أن يعلموا أوامره ونواهيه ليكيفوا أنفسهم على حسبها . . وهم حين يحاولون هذا يقرر

---

(٢٩) الاعراف ــ الآية ٢٨

(٣٠) يقصد قوله تعالى « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ »

الله سبحانه أنه يهديهم إليه ، ويشرح صدورهم للإسلام . . وهذا حسبهم في القضية ، التي تبدو عندئذ ، في واقعها العملي ، يسيرة واضحة ، بريئة من غموض ذلك الجدل وتحكماته .

إن الله قادر لو شاء على أن يخلق بني آدم ابتداء بطبيعة لا تعرف إلا الهدى أو يقهرهم على الهدى ، أو يقذف بالهدى في قلوبهم ، فيهتدوا بلا قهر . . . ولكنه سبحانه شاء غير هذا ؟ شاء أن يبتلي بني آدم بالقدرة على الاتجاه على الهدى أو الضلال ، ليعين من يتجه منهم إلى الهدى على الهدى ، وليمد من يتجه منهم إلى الضلال في غيه وفي عميانه . . وجرت سنته بما شاء . . .

فالقضية واضحة ، مصوغة في أيسر صورة يدركها الإدراك البشري ، فأما المعاظلة فيها والمجادلة ، فهي غريبة على الحس الإسلامي ، وعلى المنهج الإسلامي . . . ولم ينته الجدل فيها في آية فلسفة أو أي لاهوت إلى نتيجة مريحة ، لأنه جدل يتناول القضية بأسلوب لا يناسب طبيعتها . . . .

وبعد فلقد جاء هذا الدين ليحقق واقعا عمليا ، تحدده أوامر ونواه واضحة ، فالإحالة إلى المشيئة الغيبية دخول في متاهة ، يرتادها العقل بغير دليل ، ومضيعة للجهد الذي ينبغي أن ينفق في العمل الإيجابي الواقعي)[٣١] .

فيا أخي القارىء : أنت مطالب قبل الفعل ، بطاعة الله وعدم معصيته ، وبعد الفعل : فإن أطعت الله ، فعليك شكره إذ هداك ، وإن عصيته فأنت مخاطب بوجوب التوبة والرجوع إليه ، وتستيقن بعدله وحكمته ، وأن تكره المعصية قبل وقوعك فيها ليصدك ذلك عنها ، وبعد وقوعها ليدفعك ذلك إلى التوبة إلى الله تعالى . ولتعلم أن ليس في كراهيتك للمعصية قدر الله وإنما أنت مطالب بكره ما يكره الله وحب ما يحب ، وأن توافق ربك في رضاه وسخطه ، فترضى بما رضي به وتسخط مما سخط الله منه . ولتعلم أيضا أن الله لا يحب الكفر ، ولا يرضاه لعباده ولا يحب أن يعصى ، ولا يرضى ذلك لعباده ، فقد قال سبحانه : ﴿ **إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم** ... ﴾[٣٢] .

(٣١) في ظلال القرآن ط دار الشروق جـ ٨ ص ١٢٢٧ .

(٣٢) الزمر — من الآية ٧ .

خفاء القدر وكراهية الخوض فيه :

ذاك ما يحتاج إليه المؤمن في القضاء والقدر ، فيكفيه أن يعلم معناه ودرجاته ، وأن يؤمن به ، وأن الله عليم بكل شيء ، وخالق كل شيء ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه عادل لا يظلم أحدا ، وأنه حكيم منزه من العبث ، ولا يحتاج هذا الموضوع إلى أكثر من ذلك . وما علم الله حاجتنا إليه بينه لنا ، وماطواه عنا لا يجوز أن نتكلف البحث عنه ، فنختلف ونهلك فإن عقولنا محدودة ، خلقها الله للإسهام في عمارة الأرض ، وليست وظيفتها اكتشاف الغيب الذي استأثر بعلمه خالقها . وليس أمامنا إلا التسليم والإيمان بما يعرفها الله عليه من أمور الغيب وقضاياه . ومن هذه القضايا : الصلة بين خلق الله للأفعال وإرادة الإنسان وفعله لهذه الأفعال .

وليست هذه هي القضية الغيبية الوحيدة التي لايدرك العقل كنهها ، فصفات الله عز وجل ندرك آثارها ، ولاندرك كيفياتها ، شأنها شأن الذات الإلهية التي لا يستطيع العقل البشري إدراكها(٣٣) .

ولهذا نهى الرسول ﷺ عن الخوض في القدر والتعمق فيه ، فقد أخرج الإمام أحمد بإسناده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر ، قال فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب ، قال : فقال لهم : مالكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ؟ بهذا هلك من كان قبلكم(٣٤) .

وقد جاء رجل عليا رضي الله تعالى عنه ، يسأله عن القدر فقال : طريق مظلم فلا تسلكه ، قال : أخبرني عن القدر ، قال : بحر عميق فلا تلجه ، قال : أخبرنى عن القدر ، قال : سر الله فلا تكلفه(٣٥) .

وما أحسن ما قاله الإمام الطحاوي رحمه الله : (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطلع على ذلك ملك مقرب ، ولا نبي مرسل . والتعمق

---

(٣٣) تبسيط العقائد الاسلامية لحسن ايوب ص ـ٨٤ .

(٣٤) انظر الفتح الرباني جـ ١ ص ١٤٢ ، وسنن ابن ماجه جـ ١ ص ٣٣ .

(٣٥) تيسير العزيز الحميد ص ٦٢٠ ، العقائد الاسلامية لسيد سابق ص ٩٩ ، والشريعة للاجري ص ٢٠٢ .

والنظر في ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان . فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾[٣٦] ، فمن سأل : لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين . فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى ، وهي درجة الراسخين في العلم ، لأن العلم علمان : علم في الخلق موجود ، وعلم في الخلق مفقود ،فإنكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود وترك طلب العلم المفقود)[٣٧] .

أثر عقيدة القدر في المسلم :

لقد بني هذا الدين على التسليم لحكمة الله وإرادته ، وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة الربانية في الأوامر والنواهي . وكذلك كان أصحاب الأنبياء . فإن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم ، فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به ، ثم العزم الجازم على امتثاله ، ثم المسارعة إليه والمبادرة به[٣٨] .

وهكذا كان الصحب الكرام ، فقد كانوا شديدي الأدب مع ربهم ، ومع رسول الله ﷺ ، فقد قال فيهم ابن عباس رضي الله عنهما : (ما رأيت قوما خيرا من اصحاب رسول الله ﷺ ، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض)[٣٩] .

وفي مسألة القدر أجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث أن كل كائن إلى يوم القيامة ، فهو مكتوب في أم الكتاب .

عن ابن الديلمي قال : أتيت أبي ابن كعب ، فقلت له : قد وقع في نفسي شيء من القدر ، فحدثني لعل الله يذهب من قلبي ، فقال : لو أن الله تعالى عذب أهل سمواته وأهل أرضه ، عذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت

---

(٣٦) الانبياء ــ الآية ٢٣ .

(٣٧) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٧٦ ، ٢٩٢ .

(٣٨) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩١ .

(٣٩) اعلام الموقعين جـ ط ص ٧١ .

رحمته خيرا لهم من أعمالهم ، ولو انفقت مثل أحد ذهبا في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك ، ولو مت على غير هذا لدخلت النار . قال : ثم أتيت ابن مسعود فقال مثل ذلك . ثم أتيت حذيفة ، فقال مثل ذلك . ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك(٤٠) .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، قال لابنه عند الموت : يابني ، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ماأصابك لم يكن ليخطئك ، وما اخطأك لم يكن ليصيبك ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أول ما خلق الله القلم ، قال له : اكتب ، فقال : يارب وماأكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة . يابني إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من مات على غير هذا فليس مني(٤١) .

هذا وقد كان لهذه العقيدة في نفوس أصحاب الرسول ﷺ أجل الأثر ، فقد انطلقوا في الأرض ، وهم يحملون عقيدة القدر ، كما علمهم إياها رسول الله ﷺ ، فقد قال لابن عباس رضي الله عنهما : (يا غلام احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك . وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف)(٤٢) .

هذه العقيدة سكبت في قلوبهم السكينة ، وأفاضت على نفوسهم الطمأنية ، وربتهم على العزة ، فارتاحت أعصابهم وهم منطلقون لتبليغ هذا الدين إلى البشرية ، وقد استصغروا قوى الأرض جميعا أمام إيمانهم بقدر الله . سئل سلمان الفارسي : ما قول الناس حتى تؤمن بالقدر خيره وشره ؟ فقال :

---

(٤٠) رواه ابو داود وابن ماجه وأحمد الطبراني وابن حبان ، وفي اسناده سعيد بن سنان الشيباني وثقه ابن معين ، وتكلم فيه احمد وغيره ــ انظر : جمع الفوائد من جامع الاصول ومجمع الزوائد ج ٢ ص ٣١٨ وكتاب الشريعة للآجري ص ٢٠٣ وصحيح الجامع الصغير ج ٥ ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٤١) رواه بو داود ــ انظر جمع الفوائد ج ض ص ٣٢٨ ، وكتاب الشريعة للآجري ص ٢١١ .

(٤٢) رواه الترمذي وقال : حسن صحيح ــ انظر جمع الفوائد ج ٢ ص ٣٢٩ .

(حتى تؤمن بالقدر : تعلم أن ما اخطأك لم يكن ليصيبك ، وماأصابك لم يكن ليخطئك)(٤٣) . ولم يكن هذا قول سلمان فحسب وإنما كان قول أصحاب رسول الله ﷺ جميعا .

فأية سعادة تضفيها على النفس هذه العقيدة ، وأية شجاعة انطوت عليها قلوب آمنت أن الأمر بيد الله ، وأن البشر لا أمر لهم : إن قوى الأرض جميعا لا تقف أمام إنسان يحمل هذا المبدأ ، ويكن بين جنباته هذا الإيمان . ومن هنا نجد التفسير الصحيح للأعمال التي حققها هذا الإيمان على يد العصبة المؤمنة التي انطلقت بهذا الدين . إنها أعمال تشبه الخوارق ، ولكنها حقائق . إن تلك الإنجازات العظيمة التي حققها رسول الله ﷺ وصحبه الكرام إن هي إلا ثمرة إيمانهم بالله واليوم الآخر وقدر الله عز وجل .

إن الإنسان الذي ينعم بعقيدة القدر ،ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن الأمة لو اجتمعت لن تضره إلا بشيء ، قد كتبه الله عليه ، وأنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، إن هذا الإنسان هو وحده الذي يتحرر من العبودية للعباد بدخوله في العبودية لرب العباد ، اذ كيف تنحني جبهته لأية قوة على ظهر الأرض .
وهو يعلم أن الأمر بيد خالق السموات والأرض ومن فيهن ؟ وكيف تذل نفسه لعبد من تراب ؟ يقول ابن رجب رحمه الله تعالى : (فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب ، فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب ؟ ام كيف يرضى التراب بسخط المالك الوهاب ؟ إن هذا لشيء عجاب)(٤٤) .

إن هذه العقيدة لتنتزع كل مظهر للجبن من القلب الذي تعمره ، فتدفع صاحبها الى جهاد الكفار والطغاة دون أن يحسب لوسائلهم وأساليبهم أي حساب ، لماذا ينشغل بالحساب لهم ، وقد ضمن له خالقه وخالقهم أن يستوفي رزقه وأجله ؟ ولماذا يجبن وهويعلم أن المقدور نازل به لا محالة ، وغير المقدور لن يحيق به أبدا ، فما أحسن قول من قال :

---

(٤٣) الشريعة للآجري ص ٢٠٦ .

(٤٤) انظر : جامع العلوم والحكم ص ٣٨٥ .

أي يومي من الموت أفر   يوم لا قدر أو يوم قدر
يوم لا قدر لا أرهبــــه   ومن المقدور لا ينجو الحذر

إن النفس المؤمنة بقدر الله سبحانه لتنعم بنعمة أخرى لا تعدلها نعم الدنيا كلها ، إنها نعمة الرضا في كل حال . ذلك أن هذه النفس ترى أن المقادير تجري بأمر الله عز وجل ، ومشيئته وتدبيره ، وأن الأحداث تنبثق بحكمة الله وإرادته ، وهو يعلم والناس لا يعلمون ، كما قال تعالى : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾[٤٥] .

فتعلم هذه النفس المؤمنة أن الله الذي قدر لها الخير أو الشر حكيم رحيم فلا تبطر بنعمة ، ولا تجزع من مصيبة ، فهي شاكرة في السراء ، صابرة في الضراء ، أمرها كله خير ، كما قال المصطفى عليه الصلاة والسلام : (عجبا للمؤمن ؟ إن أمره كله له خير ، وليس لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[٤٦] .

فالمؤمن من ينظر إلى المصيبة ، فيعلم أنها قدر الله ، فيطمئن ويرضى ، فيكون اكثر أدبا من أن يعترض على مولاه وخالقه ، وينظر إلى عاقبة المصيبة ومآلها من الثواب ، فيرضى ويصبر ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ انه قال : (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة ابتلي على قدر ذلك ، وإن كان فيه رقة ، هون عليه ، فما يزال البلاء بالرجل ، حتى يدعه يمشي على الأرض ، وليس عليه خطيئة)[٤٧] .

وقد عبر عن ذلك ابن القيم أجمل تعبير ، فقال :

وإذا اعترتك بلية فاصبر لها   صبر الكريم فإنه بك أكرم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما   تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

---

(٤٥) البقرة – الآية ٢١٦ .

(٤٦) رواه مسلم واحمد من حديث صهيب – انظر رياض الصالحين مع دليل الفالحين جـ ١ ص ١٤٧ .

(٤٧) متفق عليه .

وهذا علقمة رحمه الله يفسر قوله تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾(٤٨) ، فيقول : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم(٤٩) . وقال ابن عباس : يهدي قلبه اليقين ، فيعلم أن ما اصابه لم يكن ليخطئه ، وما اخطأه لم يكن ليصيبه(٥٠) .

ولقد ارتفعت نفوس الصحابة رضوان الله عليهم في ظلال هذا التصور الإيماني ، وسمت أرواحهم ، وارهفت ضمائرهم ، حتى استوت في نظرهم السراء والضراء ، وتماثل لديهم الشكر والصبر ، كما يقول عمر ، رضي الله عنه : (لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما أركب) .
ويقول ابو محمد الحريرى : (الصبر أن لا يفرق بين النعمة والمحنة مع سكون الخاطر فيهما) .

وقد سئل الإمام أحمد عن الرجل يكون معه مائه ألف دينار هل يكون زاهدا ؟ قال : نعم ، بشرط أن لا يفرح إذا زادت ، ولا يحزن إذا نقصت ، وقال بعض السلف : الزاهد من لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره(٥١) .
وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري ، رضي الله عنهما : (أما بعد ، فإن الخير كله في الرضا ، فإن استطعت أن ترضى ، وإلا فاصبر)(٥٢) . وقال ابن عطاء : (الرضى سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد أنه اختار له الأفضل)(٥٣) .

هذا والصبر واجب باتفاق العلماء . وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله ، وقيل عن الرضى : إنه واجب ، وقيل هو مستحب ، وقد أجمع العلماء على أن حكمه لا يقل عن الاستحباب(٥٤) .

---

(٤٨) التغابن — الآية ١١ .
(٤٩) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٥ .
(٥٠) المرجع السابق .
(٥١) انظر هذه الأقوال وغيرها في عدة الصابرين ص ٩٠ ، ٢٢٦ .
(٥٢) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٧٧ .
(٥٣) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٧٥ .
(٥٤) مدارج السالكين جـ٢ ص ١١٧ ، والروضة الندية ص ٤٨٩ .

وأساس الرضا الإيمان بقدر الله عز وجل ، كما تقدم ، واستشعار لطف الله بعباده ، قال عبد الواحد بن زيد : (الرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، ومستراح العابدين . وأهل الرضا ، يلاحظون ثواب المبتلي ، وخيرته لعبده في البلاء ، وأنه غير متهم في قضائه . وتارة يلاحظون ثواب الرضا بالقضاء ، فينسيهم ألم المقضي به ، وتارة يلاحظون عظمة المبتلي وجلاله وكماله ، فيستغرقون في مشاهدة ذلك حتى أنهم لا يشعرون بالألم ، بل ربما يتلذذون بما أصابهم لملاحظة صدوره من حبيبهم)(٥٥) .

ولتعلم أيها الأخ القارىء أن الرضا والصبر اللذين يثمرهما الإيمان بالقدر إنما هما الرضا بالمقدور من المصائب والنوائب ، والصبر على طاعة الله تعالى ، والصبر عن معصيته ، وعلى أنواع المكاره(٥٦) وليس المقصود الرضا بالكفر والعصيان والفسوق عن أمر الله ، ولا الصبر على الذل والضيم ، فان الله لا يرضى لعباده الكفر والمعصية والهوان فليكن رضاك تبعا لرضى ربك ، وصبرك في طاعة الله وفي سبيله .

إن الرضا بالقدر والصبر على البلاء ، والطمأنية إلى حكم الله عز وجل ، لهي أهم القواعد التي يقام عليها السكن النفسي ، وهي من أبرز الدوافع لإنطلاق جميع الطاقة البشرية للعمل في هذه الأرض ضمن منهج الله ، فلا التفات للوراء ، ولا محطات للتحسر والندم ، ولا لو كان كذا وكذا لكان كذا وكذا ، ولكن قدر الله وما شاء فعل .

ففي هذه العقيدة هدوء القلب وراحة البدن والنفس والأعصاب ، ومفارقة الهم ، والحزن ، فلا تمزق نفسي ، ولا توتر عصبي ، ولا شذوذ ، ولا انفصام ، وإنما رضا وسكينة وسعادة وراحة وطمأنية ، وبرد اليقين ، وقرة العين ، وهناءة الضمير ، وانشراح الصدر ، والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله ، وعلمه وحكمته ، فهو الملاذ والمعاذ من الوسواس والهواجس .

---

(٥٥) مدارج السالكين جـ ١ص ١٦٧ . والروضة الندية ص ٤٨٦ . وجامع العلوم والحكم ص ١٧٠ .

(٥٦) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٠١ .

إن الاعتقاد بعقيدة القدر يحدث في واقع الناس وفوق هذه الأرض نتائج ايجابية هائلة .

وأما المجتمعات التي تركت هذه العقيدة ، وفرغت من الإيمان بالله وتدبيره لشؤون الحياة والأحياء ، فنصيبها في الآخرة خلود في العذاب المهين ، وفي هذه الدنيا ضياع السعادة، وتمزق الأعصاب ، وضنك العيش وتوتر الحياة ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ **فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري : فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾(٥٧) .

الإيمان بالقدر لا ينافي الأخذ بالأسباب :

ويجب أن لايغيب عن بالنا أننا مأمورون بالأخذ بالأسباب ، مع التوكل على الله عز وجل ، والإيمان أن بيده ملكوت كل شيء ، والإيمان أن الأسباب لا تعطي النتائج إلا بأذن الله سبحانه وتعالى ، فالذي خلق الأسباب هو الذي خلق النتائج والثمار فمن أراد النسل الصالح فلا بد أن يتخذ لذلك سببا ، وهو الزواج الشرعي ، ولكن هذا الزواج قد يعطي الثمار ، وهي النسل ، وقد لا يعطي ، حسب إرادة العزيز الحكيم ، ومشيئة اللطيف الخبير : ﴿ **يهب لمن يشاء إناثا ، ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما * إنه عليم قدير** ﴾(٥٨) .

ولذا يحرم على المسلم ترك الأخذ بالأسباب ، فلو ترك إنسان السعي في طلب الرزق لكان آثما ، مع أن الرزق بيد الله تعالى .

وقد بين رسول الله ﷺ أن الأسباب المشروعة هي من القدر ، فقيل له : أرأيت رقي نسترقي بها ، وتقي نتقي بها ، وأدوية نتداوى بها ، هل ترد من قدر الله شيئا : فقال : هي من قدر الله(٥٩) .

فالالتفات إلى الأسباب ، واعتبارها مؤثرة في المسببات ، شرك في التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل ، والإعراض عن

---

(٥٧) طه ـ الآية ١٢٣ ، والآية ١٢٤ .

(٥٨) الشورى ـ بعض من الآية ٤٩ والآية ٥٠ .

(٥٩) انظر : زاد المعاد جـ ٢ ص ٦٦ .

الأسباب المأمور بها قدح في الشرع(٦٠) .

لذا فقد أمر النبي ﷺ بالتداوي : فقد روى أصحاب السنن عن اسامة ابن شريك قال : أتيت النبي ﷺ وأصحابه ، فكأنما على رؤوسهم الطير ، فسلمت ثم قعدت ، فجاء الأعراب من ههنا وههنا ، فقالوا : يارسول الله ، انتداوى فقال : تداووا ، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء ، غير داء واحد : الهرم)(٦١)وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء)(٦٢) . وبناء على هذا الأمر بالتداوي قال الفقهاء باستحبابه ، وبعضهم قال بوجوبه .

قال شارح العقيدة الطحاوية : (وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب ، وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب ، وهذا فاسد فإن الاكتساب : منه فرض ، ومنه مستحب ، ومنه مكروه ، ومنه حرام . . . وقد كان النبي ﷺ أفضل المتوكلين ، يلبس لأمة الحرب ، ويمشي في الأسواق للاكتساب)(٦٣) .

وهكذا كان فهم الصحابة الكرام ، رضوان الله عليهم ، للعلاقة بين الإيمان بالقدر ، وتعاطي الأسباب ، وأن هذا الثاني داخل في معنى الإيمان بالقدر ، ولا ينافيه ، وإنما هو مقتضى من مقتضياته . روى البخاري أن عمر رضي الله عنه لما خرج إلى الشام لقيه أمراء الأمصار ، وأخبروه بانتشار الوباء فيها ، فاستشار المهاجرين والأنصار ، ثم مهاجرة الفتح من مشايخ قريش ، فاجتمع المهاجرة على الرجوع ، بعدا عن الوباء . وأمر بذلك عمر ، فقال له أبو عبيدة : أفرارا من قدر الله ، فقال عمر : لو غيرك قالها يا ابا عبيدة . نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله أرأيت لو كان لك ابل هبطت واديا له عدوتان ، احداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله(٦٤) .

(٦٠) مجموع فتاوى ابن تيمية جـ ٨ ص ٥٢٨ .
(٦١) رواه الاربعه ، وقال الترمذي : حسن صحيح ــ انظر مختصر ابي داود ص ٣٤٦ .
(٦٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب .
(٦٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٠١ .
(٦٤) فتح الباري جـ ١٠ ص ١٥٠ ، ١٥١ ، الموطأ ص ٥٥٧ ، ٥٥٨ .

ولذا بَكَّت عمر بن الخطاب جماعة من أهل اليمن كانوا يحجون بلا زاد ، فذمهم ، قال معاوية بن قرة : لقي عمر بن الخطاب ناسا من أهل اليمن ، فقال : من أنتم ؟ قالوا : نحن المتوكلون . قال : بل أنتم المتآكلون ، إنما المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ، ثم يتوكل على الله[٦٥] .

يقول ابن قيم الجوزية : (لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى . . . وإن تعطيلها يقدح في نفس التوكل . . . وإن تركها عجزا ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ، ودفع ما يضره في دينه ودنياه ، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلا للحكمة والشرع ، فلا يجعل العبد عجزه توكلا ، ولا توكله عجزا . . .)[٦٦] .

وقال سهل بن عبد الله : من طعن في الحركة فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان ، فالتوكل حال النبي ﷺ ، والكسب سنته ، فمن عمل على حاله ، فلا يتركن سنته[٦٧] .

* * *

(٦٥) جامع العلوم والحكم ص ٣٨٤ .

(٦٦) زاد المعاد جـ ٣ ص ٦٧ .

(٦٧) مدارج السالكين جـ ٣ ص ١١٦ .

حقيقة الإيمان

تلك هي الأمور التي يجب أن نؤمن بها ، ولكن ما معنى الإيمان بها ؟ وكيف يكون ؟ وما الشيء الذي يصدق عليه هذا الاسم ؟

اختلف أهل العلم في هذا الموضوع على قولين(١) :

القول الأول : إن الإيمان اسم يقع على الإقرار باللسان ، والتصديق بالقلب ، والعمل بالجوارح . وهوالقول الذي ذهب إليه معظم أهل السنة(٢) .

القول الثاني : أن الإيمان اسم يقع على الإقرار باللسان والتصديق

---

(١) اختلاف الناس في هذا الامر على اكثر من قولين ، ولكن أهل السنة ليس عندهم فيه الا قولان ، والاقوال الاخرى سواهما لفرق اخرى ، وقد فصلت كثير من كتب العقيدة هذه الاقوال ، ولا حاجة لعرضها والرد عليها في هذا المقام ، لظهور بطلانها واتفاق علماء السنة على مجانبتها للحق والصواب المستخرج من كتاب الله وسنة رسوله . انظر تفصيل هذه الاقوال والرد عليها في شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣ وما بعدها .

(٢) قال ابن القيم :

وأشهد عليهم ان ايمان الورى   قول وفعل ثم عقد جنان

قال الشارح : مذهب اهل السنة ان الايمان تصديق بالجنان وعمل بالاركان وقول باللسان .
قال الامام الشافعي رحمه الله في الام : (وكان الاجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن ادركناهم يقولون « ان الايمان قول وعمل ونية لا تجزىء واحد من الثلاثة الا بالأخرى ») .
وقال الامام احمد بن حنبل (ولهذا كان القول ان الايمان قول وعمل عند أهل السنة ، من شعائر السنة) .

وروى ابو عمر الطلمنكي باسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمال قال : (املى علينا اسحق بن راهوية ان الايمان قول وعمل ، يزيد وينقص ، لاشك ان ذلك كما وصفنا ، وانما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والاثار العامة المحكمة ، واقوال اصحاب رسول الله ﷺ والتابعين على ذلك وكذلك من بعد التابعين من اهل العلم على كل شيء واحد لا يختلفون فيه ، وكذلك في عهد الاوزاعي بالشام وسفيان الثوري بالعراق ، ومالك بن انس بالحجاز . ومعمر باليمن ، على ما فسرنا وبينا ان الايمان قول وعمل يزيد وينقص) .
وقال الحافظ بن عبد البر في التمهيد (اجمع اهل الفقه والحديث على أن الايمان قول وعمل ولا عمل الا بنية ، والايمان عندهم يزيد بالطاعات وينقص بالمعصية ، والطاعات كلها عندهم ايمان ، الا ما ذكر عن ابي حنيفة واصحابه فانهم ذهبوا الى الطاعات لا تسمى ايمانا ، قالوا : انما الايمان التصديق والاقرار) .
شرح قصيدةابن القيم جـ ٢ ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ .

بالقلب ، ولا يدخل فيه العمل بالجوارح . ولكنهم يقولون : إن العمل بكل ما صح عن رسول الله من الشرائع والبيان حق وواجب على المؤمنين الذين اكتسبوا هذا الاسم بالإقرار والتصديق(٣) .

ومع أن الأدلة من الكتاب والسنة أظهر في القول الأول ، وأدل عليه من القول الآخر(٤) ، ومع أن كل فريق منهما حاول دعم وجهة نظره بجملة من الأدلة ، فإن الظاهر أن الخلاف بينهما خلاف نظري ، لا يترتب عليه أي أثر عملي ، وإن كان قد يترتب عليه خلافات نظرية أخرى ، يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية : (والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة ، اختلاف صوري ، فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب او جزءا من الإيمان مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ، بل هو في مشيئة الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه نزاع لفظي لا يترتب عليه فساد اعتقاد)(٥) .

وسبب ذلك ــ والله اعلم ــ أن العمل بالجوارح ، لا يختلف الفريقان في تحديد قيمته وأهميته في دين الله ، وإن اختلفوا في تكييفه ، إن كان جزءا من الإيمان أو مجرد مقتضى من مقتضياته ولازما من لوازمه ، فالذين اعتبروه جزءا من الإيمان لم يجعلوه كالإقرار باللسان والتصديق بالجنان ، من حيث ذهاب اسم الإيمان بذهابهما وعدم ذهاب هذا الاسم بعدم العمل ، والآخرون وإن لم يعتبروه من أجزاء الإيمان فهم يرون وجوبه ، لأنه من لوازم الإيمان .

وإذا كان كذلك ، فإن الخوض والتعمق في تلك القضية ليس له فائدة كبيرة والأولى الاهتمام بغيرها . ولكن من المفيد بيان بعض المعايير المستنبطة من ذلك القدر المشترك بين الفريقين ، والتي يمكن بها تحديد من يدخل من الناس في مسمى الإيمان ومن لا يدخل :

---

(٣) انظر العقيدة الطحاوية مع شرحها ص ٣٧٣ . وكتاب الارشاد للجويني ص ٣٩٩ ، والفقه الاكبر وشرحه لملا على القارى ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٤) انظر في ترجيح القول الاول : شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٨ ورسالة الايمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٥٤ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٤ .

١ ــ فقد اتفقوا على أنه لا يدخل في الإيمان من أقر بلسانه ، ظاهرا ، وكذب بقلبه ، وهؤلاء هم المنافقون ، الذين أخبر الله تعالى عنهم أنهم أشد عذابا من الجاحدين وأنهم في الدرك الأسفل من النار(٦) .

٢ ــ كما اتفقوا على أن المعرفة بالقلب لا تكفي في تحقيق اسم الإيمان ، فلا بد مع المعرفة والتصديق من الإقرار باللسان ، فإن فرعون وقومه كانوا يعرفون صدق موسى وهارون عليهما السلام ، وكانوا كافرين ، قال تعالى ، مخبرا عما قاله موسى لفرعون : ﴿ **لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر** ﴾(٧) وقال تعالى : ﴿ **وجحدوا بها ، واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾(٨) ، وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي ولم يؤمنوا به ، قال تعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون** ﴾(٩) ، بل إن إبليس كان عارفا بربه ، ولكنه إمام الكافرين(١٠) .

فأهل السنة متفقون على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة ، ولا يخلد في النار ، لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقادا جازما ، خاليا من الشكوك ، ونطق بالشهادتين ، فإن اقتصر على أحد هذين الأمرين لم يكن من أهل القبلة أصلا ، اللهم إلا إذا كان تخلفه عن النطق والإقرار باللسان ناشئا عن سبب قاهر لا قبل له به ، كمن عجز عن النطق لخلل في لسانه ، أو لعدم التمكن منه لمعاجلة المنية له قبل النطق ، أو لإكراه ملجيء منعه عن النطق(١١) .

٣ ــ وأجمع أهل السنة على أن الله يطلب من العباد قولا وعملا ، والمقصود بالقول : قول القلب وهو التصديق ، وقول اللسان وهو الإقرار ، إنما اختلافهم في كون هذا المطلوب جميعه داخلا تحت اسم الإيمان ، فبعضهم أدخله جميعه بما فيه من قول وعمل ، والآخرون أدخلوا جزءا منه ، وجعلوا

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٧ .
(٧) الإسراء ــ الآية ١٠٢ .
(٨) النمل ــ الآية ١٤ .
(٩) الانعام ــ الآية ٢٠ .
(١٠) كتاب الايمان للقاسم بن سلام ص ١٠٢ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
(١١) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٩

الجزء الآخر من مقتضياته وثماره[١٢] .

٤ ـــ وأجمعوا أيضا على أن العبد لو صدق بقلبه وأقر بلسانه ، وامتنع عن العمل بجوارحه فإنه يكون عاصيا لله ولرسوله ، ومستحقا للوعيد الذي ذكره الله في كتابه ، وأخبر به الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم[١٣] .

٥ ـــ وأجمعوا أيضا على أن مرتكب الكبيرة ليس كافرا ما دام غير مستحل لها ، وإن مات قبل التوبة عنها . فالجمهور من أهل السنة ، وإن جعلوا العمل جزءا من الإيمان ، إلا أنهم لم يقولوا بتكفير المصدق بقلبه المقر بلسانه إن لم يعمل ، والحنفية وإن أخرجوا العمل من الإيمان إلا أنهم اعتبروه من لوازمه ومقتضياته والكل متفقون على عدم التكفير بترك العمل[١٤] .

٦ ـــ ولا خلاف بين أهل السنة أن ما تقدم من تعريف الإيمان بالقول والتصديق والعمل إنما هو بالنظر إلى ما عند الله تعالى ، واستحقاق دخول الجنة وعدم الخلود في النار ، وإن الإيمان بالنظر إلى أحكام الدنيا ، فهو مجرد الإقرار باللسان ، والنطق بالشهادتين : فمن أقر بهما أجريت عليه الأحكام في الدنيا ، فطولب بالتزاماتهما ، وأعطي حقوقهما ، ولم يحكم عليه بكفر إلا إذا جاء بما ينقضهما من القول والعمل[١٥] .

ويدل على هذا الأصل حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال : بعثنا رسول الله فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلا فقال : لا إله إلا الله ، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك ، فذكرته للنبي ، فقال رسول الله (ﷺ) : أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟ قال : يارسول الله إنما قالها خوفا من السلاح ، قال : أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ[١٦] . فيدلك قوله عليه الصلاة والسلام (أفلا شققت عن قلبه) ، أننا مكلفون بالعمل بالظاهر وبما ينطق به اللسان ، وأما القلب فليس لنا طريق إلى معرفة ما فيه .

(١٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٤ .
(١٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٤ .
(١٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٥ .
(١٥) فتح الباري جـ ١ ص ٣٩ ، ٤٠ .
(١٦) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٩٩ .

زيادة الإيمان ونقصه :

وبناء على ما تقدم من اختلاف الفريقين السابقين في تحديد مسمى الإيمان ، اختلفوا أيضا في قضية أخرى هي زيادة الإيمان ونقصه ، فمن أدخل العمل في مسماه قال بذلك ، ومن قصره على الإقرار والتصديق لم يقل بها . أما وقد عرفت أن الخلاف في تحديد مسمى الإيمان خلاف نظري وصوري ، فكذلك الخلاف في هذه القضية ، ذلك أن الفريق الذي لا يرى زيادة الإيمان ونقصه يصرح بأن الناس يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح ويتفاوتون في الأجر والمكانة عند الله تعالى ، يقول الإمام الطحاوي في العقيدة الطحاوية : (والإيمان واحد ، وأهله في أصله سواء ، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى)[١٧] .

وعلى أية حال فإن ظواهر النصوص القرآنية الكريمة ، والنبوية الشريفة تدل على أن الإيمان يزيد وينقص ، من هذه النصوص قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾[١٨] . وقوله تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾[١٩] ، وقوله : ﴿ **هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم** ﴾[٢٠] . ومن الأحاديث الدالة على هذا قول النبي (ﷺ) : (**الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان**[٢١] ، وقوله أيضا : (**أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا**)[٢٢] ، وقوله (**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطيع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف**

(١٧) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٧٥ .

(١٨) الانفال ــ الآية ٢ .

(١٩) آل عمران ــ الآية ١٧٣ .

(٢٠) الفتح ــ الاية ٤ .

(٢١) متفق عليه واللفظ لمسلم ــ انظر صحيح البخاري مع فتح الباري ج ١ ص ٤٤ ، وصحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٦ .

(٢٢)رواه الترمذي والحاكم وقال : صحيح على شرطهما ، وقال الترمذي : حديث حسن ــ انظر : الترغيب والترهيب ج ٣ ص ٤٠٣ .

الإيمان)[٢٣] . وعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ، ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)[٢٤] .

ومن أقوال الصحابة الدالة عليه ، ما ورد عن أبي الدرداء (رضي الله عنه) أنه قال : (من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه ، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص) ، وكان عمر رضي الله عنه يقول لأصحابه : (هلموا نزداد إيمانا فيذكرون الله عز وجل) ، وأمثال هذا من النصوص والآثار الدالة على قوة الإيمان وضعفه بحسب العمل كثير[٢٥] .

وإذا كان ظاهر النصوص يدل على زيادة الإيمان ونقصه ، فلا داعي للخروج عن هذا الظاهر ، خاصة وإنه لا فائدة من التأويل ، ولا ثمرة في الخلاف .

على أن الأمر الأهم من كل ذلك أن يتعهد المؤمن إيمانه ويحاسب نفسه فيه إن كان زاد أم نقص ، وأن ينظر في أسباب نقصانه إن كان نقص ، فيتحاشاها ويبتعد عنها ، ويلتمس أسباب الزيادة والنماء وصلاح القلب ، كما كان يفعل الصحابة رضوان الله عليهم .

ومن أهم أسباب زيادة الإيمان ما يلي :

١ ــ العلم : فإن الاستزادة منه سبب في زيادة اليقين والمعرفة ، قال جندب بن عبد الله وابن عمر وغيرهما : (تعلمنا الإيمان ، تعلمنا القرآن فزدنا إيمانا)[٢٦] .والمقصود في هذا المقام العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، وآياته سبحانه وتعالى ، والعلم برسول الله (ﷺ) ، وما جاء به من الأخلاق

(٢٣) انظر : صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٢٢ .
(٢٤) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٢٧ .
(٢٥) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٨٦ .
(٢٦) انظر شرح قصيدة ابن القيم جـ ٢ ص ١٤١ .

والمناهج والتشريعات ، وسيرته في عبادته وجهاده ومعاملته ، والعلم بكتاب الله وما فيه من الأخبار والأمثال والحكم والعبر والفرقان .

ذلك أن أصل الإيمان هو الإقرار بألوهية الله وما يليق به من الصفات ، والاعتراف برسالة محمد (ﷺ) وبكل ما جاء به من عند ربه ، بصورة إجمالية وهي المتمثلة بالشهادتين ، فمن قالهما معتقدا بهما فقد حاز أصل الإيمان ولكنه لا يستوي مع من علم معناهما ومقتضياتهما ، بالتفصيل ، فلا يستوي من علم بالتفصيل ما أخبر به الرسول (ﷺ) مما يكون بعد الموت من السؤال والعذاب والنعيم ومن لم يعلم بذلك ، وإن كان هذا يدخل بصورة إجمالية في شهادة أن محمدا رسول الله ، وكذلك لا يستوي من علم أحوال الآخرة بما يكون فيها من بعث ونشور وعرض وقراءة الصحف وحساب وأهوال وحوض وصراط وجنة ونار ، مع من آمن باليوم الآخر إجمالا من غير تفصيل ، وكذلك من علم بالتفصيل سيرة المصطفى (ﷺ) وما فيها من كمال ، لا يستوي معه من لم يعرفها إلا بالإجمال . ولذا قال سبحانه : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾[٢٧] ، وقال : ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون** ﴾[٢٨] .

٢ ــ العمل : فإنه بالإكثار من العمل الصالح والطاعة يزداد اليقين ، ويقوى الإيمان وبالإقلال من العمل والإغراق في الشهوات والمعاصي يضعف الإيمان ، وقد يصل الحد ببعض الناس من كثرة معاصيهم إلى الإنكار والاستحلال وتكذيب الرسول (عليه الصلاة والسلام) تبريرا لفجورهم وفسوقهم ، فيدخلون بالكفر والعياذ بالله .

ذلك أن أساس الإيمان بالله ــ كما علمت ــ هو الإقرار له بالألوهية ، والإخلاص له بالعبودية ، وهذا الإقرار والاعتراف في االواقع نوعان : اعتراف نظري بالتصديق واعتراف عملي بالطاعة والتطبيق ، فمن اقتصر على الأول كان إيمانه بالله ناقصا ، وبقدر ما يزداد من الطاعة يزداد من الإيمان . ولابد لتمام الإيمان من النوعين كليهما .

---

(٢٧) فاطر ــ الآية ٢٨ .

(٢٨) الزمر ــ الآية ٩ .

٣ ــ الذكر والفكر : والمقصود بالأول ذكر الله بصفاته وما يليق بجلاله وعظمته ، وتلاوة كلامه وآياته ، فإنه يديم إيصال القلب بالخالق وقلته تورث النسيان والغفلة عن الله عز وجل ، وقد تقدم دعوة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لإخوانه من الصحابة إلى زيادة إيمانهم بذكر الله . وقد روي عن أبي جعفر عن جده عمير بن حبيب وهو من أصحاب رسول الله (ﷺ) قال (الإيمان يزيد وينقص ، قيل له وما زيادته ونقصانه ؟ قال (إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه) ، وكان عبد الله بن رواحة يأخذ بيد الرجل من أصحابه يقول : (قم بنا نؤمن ساعة فنجلس في مجلس ذكر)[٢٩] . كما أخبر(سبحانه وتعالى) أن من صفات المؤمنين أنهم يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ﴿ **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم** ... ﴾[٣٠] .

والمقصود بالفكر العمل على إدامة رؤية صنع الله بالتفكر فى مخلوقاته ، والنظر إلى آياته ومعجزاته . ذلك أن من الإيمان بالله الاستشعار بعظمته وقدرته وجليل صفاته وعظمة أفعاله ، وهذا الاستشعار متفرع عن دوام النظر إلى ملكوت الله عز وجل ، ووسيلة هذا النظر هو التفكر والاعتبار . ألا ترى لو أنك أخبرت بمهارة شخص في صناعة من الصناعات ، وأخبرك كثيرون عن قدرته في مضماره ، فإن إحساسك بمهارته يزداد إذا رأيت بعينيك نموذجا من صناعته ولو بصورة إجمالية ، فإذا شاهدت نماذج أكثر من صناعته ازداد ذلك الإحساس ، ويزداد أكثر وأكثر إذا أتيحت لك الفرصة بتفحص هذه الصناعات والتدقيق فيها . وصفات الله عز وجل وأفعاله العظيمة متجلية للجميع في هذا الكون العظيم ، ومن الناس من يخرون عليها صما وعميانا ولا يتجاوزون ما فيها من المتع والشهوات ، وهؤلاء هم الكافرون وضعاف الإيمان ، ومنهم من يقرأ فيها عظمة الله وعظمة سلطانه ، وقدرته وتدبيره فيزدادون إيمانا ويقينا . وهؤلاء الذين وصفهم الباري عز وجل بقوله : ﴿ **ويتفكرون في خلق السموات والأرض** ﴾[٣١] . وقال عنهم سبحانه :

---

(٢٩) شرح قصيدة ابن القيم حـ ٢ ص ١٤٠ ، ١٤١

(٣٠) آل عمران ــ الآية ١٩١

(٣١) آل عمران ــ الآية ١٩١

﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ﴾[٣٢] وأما أولئك فقال عنهم : **﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون ، صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾**[٣٣] .

* * *

(٣٢) الفرقان — الآية ٧٣ .

(٣٣) البقرة — الآيتان ١٧ ، ١٨ .

القسم الثاني

في

نواقض الإيمان

عرفت فيما تقدم ما يجب على المؤمن أن يقر به من الأمور ، ولاينكره ، كما عرفت في مبحث (حقيقة الإيمان) معنى الإيمان الذي يجب أن يتعلق بهذه الأمور .

ونخصص هذا القسم لمعرفة الأمور التي تنقض إيمان العبد ، وتخرجه من عداد المؤمنين ، وتدخله في عداد الكافرين .

على أن توضيح هذا الأمر يقتضى أن يقدم له ببحث يكشف لنا عن مبدأ الإيمان والإسلام ، أى الحد الذى إذا وصله العبد المكلف من البشر ، اعتبر مؤمنا ومسلما ، وإذا قصر عنه اعتبر كافرا ، وجرت عليه أحكام الكفر في الدنيا والآخرة ، إن لم يبدل ولم يغير ، ومات قبل أن يصل إلى ذلك الحد الذي يصير به مؤمنا ، وذلك لنكون على بينة من حدود دائرة الإيمان ، وحدود دائرة الكفر ، قبل الكلام فيما يخرج من الأولى ويدخل في الثانية .

ومن هنا كان هذا القسم مشتملا على مبحثين ، يعتبر الأول منهما مقدمة للثاني ، وهما :

الأول ــ متى يصير الكافر مؤمنا (كيفية الدخول في دين الله عز وجل) .

الثاني ــ متى يصير المؤمن كافرا (نواقض الإيمان) .

متى يصير الكافر مؤمنا

كيفية الدخول في دين الله عز وجل

يظهر لك مما تقدم أن أركان الإيمان لها إجمال وتفصيل ، وأن لكل ركن منها إجمالا وتفصيلا أيضا . فمن عرف تفصيل تلك الأركان ، وصدق بها ، وعمل بما تقتضيه من الأعمال ، كان ممن قال عنهم الله عز وجل : ﴿ **اولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾(١) .

ولكن شاءت حكمة الله ، تبارك وتعالى ، تيسيرا على عباده ، وتفضلا عليهم ، أن يجعل الباب الذي يلجه العباد إلى الإيمان دون ذلك التفصيل ، فاكتفى منهم بالإجمال الذي يندرج تحته التفصيل : فقبل منهم في مبدأ الأمر أن يقروا بألسنتهم وقلوبهم بأن الله سبحانه هو ربهم ومعبودهم بحق ، دون سواه ، وأن محمداً ﷺ هو رسول الله ، وأن جميع ما جاء به من عند ربه حق وصدق ، وواجب العمل به . وجعل لذلك عنوانا ، هو الكلمة الطيبة (لا إله إلاالله ، محمد رسول الله) .

فمن قال هذه الكلمة بلسانه ، وصدق بها بجنانه ، ولم يقرنها بما ينقضها من القول أو العمل أو الاعتقاد ، دخل في دين الله ، وفارق الكفر الذي كان عليه(٢) .

---

(١) الأنفال ــ الآية ٤ .

(٢) وقد يقول قائل : ولكن أركان الايمان كما جاءت في الحديث الصحيح أكثر من الايمان بالله ، والإيمان برسوله ، فكيف يكتفي بالشهادتين لدخول الايمان ؟ والجواب على ذلك : ان الايمان نوعان :ايمان مجمل ، وإيمان مفصل ، فالأول هو الإيمان بالله وبكل ما جاء به رسول الله ﷺ ، من غير تعرض لتفصيل ما جاء به ، فعندما يشهد العبد أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، يكون قد صدق بكل ما جاء به الرسول ﷺ وما أخبر به من أركان الإيمان . وأركان الاسلام ، وإن لم يعرفها بالتفصيل ، فإن مقتضى ما صدر منه من الشهادتين أنه اذا بلغه شيء مما جاء به الرسول ﷺ آمن به وصدق . لكن الذي بلغه التفصيل بالفعل . فآمن به وعمل به ، يكون أقوى ايمانا وأعظم فضلا عند الله تعالى .

وأما من آمن إيمانا مجملا ، ثم بلغه شيء مما جاء به الرسول ﷺ فلم يؤمن به كان ناقضا لما صدر منه من الشهادتين ، وكان مرتدا بذلك كما سيأتي ــ انظر : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ــ من كتاب مجموعة التوحيد : ص ٥١٠ ، وأصول السرخسي جـ ١ ص ٢٥٣ .

أدلة الأصل المتقدم :

والذي يدل على أن المطلوب هو الإقرار الإجمالي بأمور الإيمان ، وهو الإقرار بالشهادتين ، وليس الإقرار التفصيلي بكل خصلة من خصال الإيمان والإسلام ، هو جملة أحاديث صحيحة ، رتبت حصول الإيمان والإسلام ، واستحقاق دخول الجنة ، وعدم الخلود في النار ، على التصديق بأن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

وكذلك حوادث السيرة التي دلت على أن الرسول ﷺ ، والصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا يحكمون بدخول الشخص في الإسلام إذا نطق بالشهادتين ولايطالبونه في أول الأمر أن يقرنهما بغيرهما .

وفيما يلي نذكر لك بعض الأحاديث الصحيحة الدالة على ذلك الأصل ، ثم نتبعها بذكر بعض وقائع السيرة الدالة عليه :

الأحاديث :

فمن هذه الأحاديث :

١ ـــ قال رسول الله ﷺ : (أشهد أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك بهما ، إلا دخل الجنة)[٣] وفي رواية (لايلقى الله بهما عبد ، غير شاك ، فيحجب عن الجنة)[٤] .

٢ ـــ وقال ﷺ : (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)[٥] .

٣ ـــ وعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار)[٦] .

---

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١ ص ٢٢٤

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١ ص ٢٢٦ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١ ص ٢١٨ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١ ص ٢٢٩ .

وغير هذه الأحاديث مما هو في معناها كثير[٧] ، وكلها يدل على أن من مات على التوحيد ، ولقي الله عز وجل بالشهادتين دخل الجنة ، ولو في المآل ، ولم يخلد في النار ، وإن عذب فيها على ما كان منه من المعاصي والذنوب .

السنة العملية ووقائع السيرة :

وفي السنة العملية ، والسيرة المطهرة ، نجد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يشهد بالإسلام والإيمان ، لمن أقر بالشهادتين ومن ذلك :

١ ــ أخرج مسلم ومالك في الموطأ وأبو داود والنسائي من حديث معاوية بن الحكم السلمي أن النبي ﷺ ، قال لجارية أراد معاوية بن الحكم أن يعتقها عن كفارة : أين الله ؟ فقالت : في السماء ، فقال : من أنا ؟ قالت أنت رسول الله ؟ فقال : أعتقها[٨] .

٢ ــ وأخرج أبو داود والنسائي من حديث الشريد بن سويد الثقفي ، أن النبي ﷺ قال لجارية : من ربك ؟ قالت : الله . قال : فمن أنا : قالت رسول الله . قال أعتقها فإنها مؤمنة[٩] .

٣ ــ وفي قصة إسلام أبي بكر رضي الله عنه ، جاء في السيرة أنه لقي رسول الله ﷺ وقال له : أحق ما تقول قريش يا محمد ؟ من تركك آلهتنا ، وتسفيهك عقولنا ، وتكفيرك آباءنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : بلى إني رسول الله ونبيه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وأدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره ، والموالاة على طاعته ، وقرأ عليه القرآن . فأسلم وكفر بالأصنام وخلع الأنداد وأقر بحق الإسلام ، ورجع أبو بكر ، وهو مؤمن مصدق[١٠] .

وهذا الذي دعا رسول الله ﷺ إليه أبا بكر إنما هو في حقيقته الشهادتان .

---

(٧) انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١ ص ٢١٨ ــ ٢٤٠ .

(٨) انظر : الموطأ ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ونيل الاوطار جـ ٧ ص ٢٠٨ .

(٩) انظر : نيل الاوطار جـ ٧ ص ٢٠٨ .

(١٠) انظر : السيرة النبوية لابن كثير جـ ١ ص ٤٣٣ ، والسيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٤٤

٤ ــ وفي قصة إسلام خالد بن سعيد رضى الله عنه ، ورد في السيرة أنه لقي رسول الله ﷺ ، وهو بأجياد ، فقال : يامحمد ، إلام تدعو ؟ قال : أدعوك إلى الله وحده ، لاشريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لايسمع ولايضر ولاينفع ، ولايدرى من عبده ممن لايعبده . قال خالد : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله . فسر رسول الله ﷺ بإسلامه(١١)

٥ ــ وفي قصة إسلام أبي ذر الغفاري أنه قال : كنت ربع الإسلام ، أسلم قبلي ثلاثة نفر ، وأنا الرابع ، أتيت رسول الله ﷺ ، فقلت السلام عليك يارسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فرأيت الاستبشار في وجه رسول الله ﷺ(١٢) . وهذا سياق مختصر ، وقد أخرج البخاري قصة إسلام أبي ذر كاملة ، وفيه أن النبي ﷺ ، قال لأبي ذر بعد أن أسلم : ارجع إلى قومك ، فأخبرهم حتى يأتيك أمري ، فقال : والذي بعثك بالحق ، لأحرض بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم قام القوم ، فضربوه حتى أضجعوه(١٣) .

وفي هذا الخبر دلالة واضحة على أن الصحابة كانوا يدخلون الإسلام بالشهادتين .

٦ ــ وفي قصة إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي ، رضي الله عنه ، تحدثنا السيرة أنه كان سيدا مطاعا شريفا في دوس ، وكان قد قدم مكة ، فاجتمع به أشراف قريش وحذروه من رسول الله ﷺ ، ونهوه أن يجتمع به ، أو يسمع كلامه ، قال الطفيل : فوالله ما زالوا بي ، حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئا ، ولا أكلمه ، حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا (قطنا) ، فرقا

---

(١١) السيرة النبوية لابن كثير حـ ١ ص ٤٤٥ .

(١٢) السيرة النبوية لابن كثير حـ ١ ص ٤٤٧

(١٣) صحيح البخاري مع فتح الباري حـ ٧ ص ١٣٩ ، حياة الصحابة حـ ١ ص ٢٩٠ ، السيرة الحلبية حـ ١ ص ٤٥١ .

هذا وقد ورد في بعض الروايات أن أبا ذر كان خامس من أسلم ، وأن خالد بن سعيد كان الرابع انظر هذه الروايات في السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه ، فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة قال : فقمت منه قريبا ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، قال : فسمعت كلاما حسنا فقلت في نفسي واثكل أمي ، والله إني لرجل لبيب ، ما يخفى علي الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول : فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلته ، وإن كان قبيحا تركته ، قال : فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته ، فاتبعته حتى إذا دخل بيته ، دخلت عليه فقلت يامحمد ، إن قومك قالوا لي كذا وكذا (للذي قالوا) فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك ، حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك ، فسمعته قولا حسنا فاعرض علي أمرك . قال فعرض علي رسول الله ﷺ الإسلام وتلا علي القرآن ، فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ، ولا أمرا أعدل منه ، فأسلمت ، وشهدت شهادة الحق . . .)(١٤) . وشهادة الحق هي شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ ، كما جاءت مفسرة في بعض المواضع .

٧ ــ وفي قصة إسلام خالد بن الوليد ، تحكي لنا كتب السيرة أنه قدم على رسول الله ﷺ في المدينة ، وكان قد استكتبه أخوه الوليد بن الوليد يدعوه إلى القدوم والإسلام ، قال خالد : فلقيني أخي ، فقال : أسرع ، فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك فَسُرَّ لقدومك ، وهو ينتظركم (وكان معه عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة) ، فأسرعنا المشي ، فاطلعت عليه ، فما زال يتبسم إلي حتي وقفت عليه ، فسلمت عليه بالنبوة ، فرد علي السلام بوجه طلق : فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقال : تعال ، ثم قال رسول الله ﷺ : (الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير)(١٥) .

وهكذا كان مبدأ إسلام كثير من الصحابة ، رضوان الله عليهم ، قبل الهجرة وبعدها(١٦) .

---

(١٤) انظر : سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(١٥) السيرة النبوية لابن كثير جـ ٢ ص ٥٢٠ .

(١٦) انظر مثلا : قصة إسلام أبي العاص بن الربيع في سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ .

فهذه الوقائع ، وتلك الأحاديث الصحيحة تدل مجتمعة على أمر واحد اتفق عليه أهل السنة ، وهو أن الدخول في دين الله لا يكون إلا بالشهادتين ، وليس لأحد بعد هذه النصوص أن يحكم بإسلام أحد إذا لم يقر بهما بلسانه وقلبه ، كما أنه ليس لأحد بعدها أن يحكم بكفر أحد إذا أقرَّ بهما ، ولم يصدر منه ما ينقضهما أو ينقض إحداهما .

هذا ولا يكفي للدخول في الإسلام مجرد إحدى الشهادتين ، ولا بد منهما جميعاً . وقد يقال : قد ورد في بعض الأحاديث المتقدمة ، وغيرها ، الاكتفاء بالشهادة الأولى (لا إله إلا الله) . والجواب . أن المقصود هو الشهادتان ، لأنه جاء مفسرا في الأحاديث الاخرى بهما جميعا(١٧) .

ولا خلاف بين العلماء أن النطق بالشهادتين والتصديق بهما لا يكون منجيا من الخلود في النار ، وكافيا في دخول الإيمان والإسلام ، إذا كان مقترنا بما ينقضهما أو ينقض إحداهما : فلا يحكم بإيمان إنسان جاء يقول : أقر بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ولكن لا أعترف بوجوب الزكاة والحج ، أو بحرمة الزنا أو الربا أو القتل أو غير ذلك من أحكام الإسلام التي أخبر بها القرآن أو الرسول محمد ﷺ ، ولكني أعتقد أنها كانت خاصة بقوم أو بجيل معين ، أو قرن إقراره بالشهادتين بتفسير خاص لهما يؤول إلى إنكار توحيد الله في بعض صفاته وأسمائه . أو أقر بهما وهو ينكر بعض القرآن ولو آية أو كلمة أو حرفا ، فلا تنفعه الشهادتان وقد جاء معهما بما يكذب به القرآن أو الرسول عليه الصلاة والسلام(١٨) .

وكذلك من كان على ملة لا تكفي الشهادتان في نقض مبدأ من مبادئها أو أكثر ، ولابد في حقه من أن يتبرأ من ذلك المبدأ بالإضافة إلى الشهادتين ، فلو أن شخصا كان يعتقد بالتوحيد ، وبأن محمداً رسول الله ، ولكن إلى قوم معينين أو زمن معين ، فإن نطقه بالشهادتين لا يكون كافيا لاعتباره مسلما

= وقصة إسلام عمر بن الخطاب في عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير لابن سيد الناس ، وقصة إسلام حمزة في السيرة الحلبية جـ ١ ص ٤٧٧ .

(١٧) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٩ ، ٢١٩ .

(١٨) انظر : رسالة كشف الشبهات لمحمد بن عبد الوهاب من جملة رسائل مطبوعة بعنوان : مجموعة العلمية السعودية من درر علماء السلف الصالح ص ١٤١ ، ١٤٢ .

لأن اعترافه برسالة محمد ﷺ لا ينفي ما كان مشهورا من اعتقاده باختصاصها بقوم أو بزمن ، فلابد مع هذا من أن يقر بأن محمداً رسول الله إلى الناس أجمعين(١٩) .

وقد ذكر بعض العلماء في هذا الموضوع ، قاعدة عامة ، مفادها أنه لا يحكم بإسلام الشخص إلا إذا أقر بالشهادتين ، وكان هذا الإقرار كافيا في نقض جميع معتقداته الباطلة التي اشتهر بها ، فإن لم يكن كذلك كان لا بد من النطق بهما والتبري من المعتقدات الباطلة التي لم يندرج نقضها تحت الشهادتين(٢٠) .

ويجدر بالملاحظة في هذا المقام أن كلمة (لا إله إلا الله) تنقض جميع التصورات الباطلة عن الخالق ، وربوبيته ، وألوهيته ، ذلك أنها تقتضي كما علمت توحيد الله في ذاته ، وفي صفاته وأسمائه وأفعاله ، وتنزيهه عن كل ما لايليق به ، فمن نطق بها كان متبرئا من جميع اعتقاداته الباطلة حول الخالق عز وجل . وأما الشهادة الأخرى فإنها تنقض معظم التصورات الباطلة حول مكانة نبينا محمد ﷺ ، وحول ما أخبر به من المغيبات جميعها(٢١) ، ولا تنقض بعضها ، كما تقدم من اعتقاد بعض الناس بخصوصية رسالته إلى بعض الأقوام ، فلا بد في حق هؤلاء من التصريح بعموم رسالته عليه الصلاة والسلام .

وهذا الذي تقدم خاص بمن كان كافرا ابتداء ، ولم يسبق له الدخول في دين الله وأما المرتد عن الإسلام ، فإنه لا يحكم بإسلامه إلا إذا أقر بما كان قد جحده من أمور الإيمان ، بالإضافة إلى الشهادتين : فإن كان ارتداده بسبب جحوده الوحدانية أو الرسالة اكتفي بهما ، وإلا فلابد منهما وأن يُقِرَّ معهما بالأمر الذي كان قد أنكره(٢٢) ، فمن كان ينكر فرضية الزكاة مثلا ، أو حرمة الربا أو الزنا ، فإنه لا يعود إليه إسلامه حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقر بفرضية أو حرمة ما أنكره .

(١٩) انظر : شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٩ ، وشرح السير الكبير جـ ١ ص ١٥٠ والمغني لابن قدامة جـ ٩ ص ٢١ ، والمهذب جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٢٠) انظر : شرح السير الكبير جـ ١ ص ١٥٠ .

(٢١) الدين الخالص : جـ ١ ص ١٤٨ .

(٢٢) المغني لابن قدامه جـ ٩ ص ٢١ ، حاشية ابن عابدين جـ ٣ ص ٣٩٧ .

ولعل من المفيد في هذا المقام أن ننبه إلى ما تقدم ذكره عند الكلام عن حقيقة الإيمان من اتفاق العلماء على النطق بالشهادتين يكفي لاعتبار الناطق بهما مسلما ، من حيث الظاهر ، ومن أجل إجراء الأحكام الدنيوية عليه . وأنه لا يكفي من أجل الخلاص من الخلود في النار ، حتى يقترن بالتصديق القلبي . فمن أقر بهما مع ما تقدم من الشروط عومل بمقتضى الإسلام في الحياة الدنيا ، وإن كان منافقا في حقيقة أمره ، لأننا مأمورون ببناء الاحكام في هذه الحياة على الظاهر ، وترك السرائر لله تعالى ، فإنه لا يعلمها إلا هو سبحانه وقد رأيت فيما تقدم إنكار النبي ﷺ على أسامة بن زيد عندما ترك العمل بالظاهر ، وقتل من قال : لا إله إلا الله ، ظنا منه أنه لم يكن مخلصا في قوله .



متى يصير المؤمن كافرا

(نواقض الإيمان)

عرفت فيما تقدم كيف يدخل الناس في دين الله عز وجل ، والذين يلجون باب الإيمان أنواع :

فمنهم من يثبته الله عليه ، فيموت مقرا مصدقا بأنه لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله . ومنهم من يرتد على عقبيه بسبب إنكاره وجحوده .

والنوع الأول يتفاوت فيه المؤمنون : فمنهم المحسنون ، ومنهم المقتصدون ، ومنهم الظالمون لأنفسهم . ومنهم من يدخل الجنة بغير حساب ، ومنهم من يحاسب حسابا يسيرا ، ومنهم من يعذب في النار ، حتى يمن الله عليه ، فيخلصه منها بفضله سبحانه .

وأما أسباب الخروج من الإسلام بعد الدخول فيه ، فنذكر لك أولا القاعدة الجامعة التي اتفق عليها أهل السنة ، ثم نشرع في تفصيلها :

القاعدة :

فأما القاعدة العامة التي تحكم ما يكفر من الاعتقادات والأقوال والأفعال ، فنختار في التعبير عنها ما قاله الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى في العقيدة الطحاوية : (ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين ، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين . . . ولا نكفر احدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ، ولا نقول : لايضر مع الإيمان ذنب لمن عمله . . . ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه)(١) .

وبيان هذه القاعدة أن الشارع قد جعل للإيمان والإسلام مدخلا وبابا يدخل منه وهو كما علمت الإقرار والتصديق بالشهادتين ، فمن ولج إلى الإسلام من هذا الباب ، فإنه لا يخرج إلا أن يصدر عنه قول أو عمل أو اعتقاد يناقض إقراره السابق وتصديقه بالشهادتين . وقد علمت فيما تقدم أن معنى شهادة

---

(١) انظر العقيدة الطحاوية مع شرحها ص ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٧٢

(لا إله إلا الله) توحيد الله في ربوبيته ، وأسمائه وصفاته ، وأفعاله . وتوحيد في ألوهيته ، وعدم توجه الإنسان بالعبادة إلى غيره سبحانه . وأن معنى شهادة (محمد رسول الله) الإقرار والتصديق بكل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ من الشرائع ، وما أخبر به من أمور الغيب ، وأنه من عند ربه عز وجل ، والاعتراف له بجميع أخلاق وصفات النبوة ، من صدق وأمانة وفطانة وتبليغ وعصمة وغير ذلك .

وبعد هذا فإن من قال قولا أو فعل فعلا يدل على إنكار شيء مما يكون قد نقض إقراره السابق بالشهادتين ، وخرج من دين الله سبحانه ، فإن كان قوله أو فعله مطابقا لحقيقة نيته واعتقاده ، كان كافرا في الدنيا والآخرة فيعامل بأحكام الكفار في الدنيا ، وتطبق عليه أحكام الردة ، والتي من أهمها الاستتابة ، ثم القتل إن لم يتب . ويكون من المخلدين في نار جهنم إن مات على هذه الحال .

وأما إذا أذنب المؤمن ، وقال قولا أو فعل فعلا يعد في الشرع معصية لله تعالى ، فلا يكون هذا بمجرده دليلا على خروجه من الإيمان ، وإن لم يتب عنه ، إن لم يكن فيه ما يدل على نقضه الشهادتين أو أحداهما ، وهو في مشيئة الله : إن شاء عذبه بذنبه ومعصيته ، وأدخله النار ، ثم مآله إلى الجنة ، لكثرة الأحاديث الصحيحة الدالة على أنه يخرج من النار من مات وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان وإن شاء سبحانه غفر له ، ولم يعذبه وأدخله الجنة بغير عذاب في النار ، فإن الله سبحانه يقول : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[٢]

أنواع النواقض :

ومن هنا تعلم أن الأمور التي تكون سببا في الخروج من دين الله عز وجل تتنوع إلى أنواع جميعها يرجع إلى تلك القاعدة العامة . وكل نوع يدخل فيه صور وتفصيلات كثيرة يصعب حصرها . ولكن تلك الأنواع يمكن حصرها في أربعة هي :

---

(٢) النساء ــ الآية ١١٦

١ ــ نوع يتضمن إنكار الربوبية أو الطعن فيها .

٢ ــ نوع يتضمن الطعن في أسماء الله وصفاته .

٣ ــ نوع يتضمن الطعن في الألوهية .

٤ ــ نوع يتضمن إنكار الرسالة أو الطعن في صاحبها عليه الصلاة والسلام .

فهذه أربعة أنواع : ويدخل في كل واحد منها صور من الأفعال والأقوال والاعتقادات جميعها يعود على الشهادتين بالنقض ، وتخرج صاحبها من الإسلام ، والعياذ بالله تعالى . وفيما يلي تفصيل كل نوع من هذه الأنواع ، وتوضيحه بالأمثلة :

النوع الأول :

فقد علمت أن أول أنواع التوحيد هو توحيد الله في الربوبية والملك ، وهو الاعتقاد بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه ، وخالق كل شيء ورازقه ، والمتصرف فيه وحده ، بمشيئته وعلمه وحكمته سبحانه. فكل قول أو اعتقاد فيه إنكار لهذه الخصائص الربانية أو بعضها ، كفر وردة ، فيدخل في هذا إنكار الخالق ، والقول بقدم شيء أى لم يخلقه الله سبحانه ، أو اسناد الخلق أو التدبير إلى غير الله عز وجل ، كالصدفة ، والطبيعة ، ونحوهما ، أو إنكار ملك الله لكل مخلوق ، أو ادعاء الرزق من غير الله تعالى ، أو إشراك غيره معه في ذلك ، أو ادعاء أن الله خلق الخلق واهملهم ، وأنه لا يتصرف فيهم ، ولا يحفظهم ، ولا يدبر أمرهم ، أو نحو ذلك مما فيه مساس بخصائص الربوبية .

وكذلك يعد كفرا وردة أن يدعي شخص لنفسه شيئا من هذه الخصائص ، كأن يدعي لنفسه الربوبية ، كما قال فرعون : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾(٣) ، أو أن يدعي أنه يملك أو يرزق أو يدبر شيئا من دون الله تعالى ، وكذلك يكفر من يصدقه في هذه الدعوى .

---

(٣) النازعات ــ الآية ٢٤

النوع الثاني :

وهو ما يتضمن الطعن في النوع الثاني من أنواع التوحيد ، وهو توحيد الله فيما يليق به من الأسماء والصفات .

فقد أثبت الله سبحانه لنفسه ، وأثبت له رسوله ﷺ صفات وأسماء ونفى سبحانه عن نفسه ، ونفى عنه رسوله صفات : فمن نفى أو انتقص شيئا مما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسوله ، فقد كفر ، وكذلك من أثبت لله شيئا نفاه عنه رسوله . فكفر الصفات نوعان : كفر نفي وكفر اثبات .

ويدخل في الأول : نفي أية صفة من صفات الله سبحانه ، كنفي علمه الكامل أو قدرته أو حياته أو قيوميته أو سمعه أو بصره أو استوائه على العرش أو كلامه أو رحمته او جبروته او كبريائه ، أو غيرها مما هو ثابت لله في الكتاب أو السنة .

ويدخل فيه أيضا تأويل صفات الله وأسمائه بما ينقصها او يحد من كمالها ، كمن يقر بعلم الله ، ولكنه يدعي أنه العلم الإجمالي ، وأن الله تعالى لا يعلم الجزئيات والتفصيلات ، أو يشبه صفة من تلك الصفات بما عند المخلوقات ، فيدعي أنه عز وجل يسمع كما يسمع الناس أو يبصر كبصرهم ، ونحو ذلك .

ويدخل في النوع الثاني ، وهو كفر الإثبات إثبات أية صفة لله نفاها سبحانه عن نفسه ، أو نفاها عنه رسول الله ﷺ ، كإثبات الولد له سبحانه ، او البنات او الصاحبة أو السنة أو النوم أو الغفلة أو الموت ، أو أي نقص من النواقص التي تعتري البشر .

وكذلك يكفر كل من يثبت شيئا من صفات الله لنفسه أو لمخلوق ، ويكفر من يصدقه في دعواه ، كقول من قال : أنا أعلم كعلم الله ، أو فلان عنده من الحكمة كما عند الله سبحانه وتعالى فيكفر هذا القائل ، ويكفر من يصدقه في قوله ، لأن إثبات الشريك لله في صفاته انتقاص منه جل وعلا ، وكل انتقاص منه أو من صفاته كفر وردة .

النوع الثالث :

وهو كل قول أو فعل أو اعتقاد يتضمن الطعن في النوع الثالث من أنواع التوحيد ، وهو توحيد الألوهية ، وهو الشهادة بأن الله وحده هو المعبود بحق ، وأن سواه لا يستحق أي شيء من العبادة ، فمن قال قولا أو فعل فعلا أو اعتقد اعتقادا يتضمن إنكار هذا الحق لله سبحانه ، او انتقاص شيء منه ، أو إثباته ، أو إثبات شيء منه لغير الله عز وجل ، فقد كفر وارتد عن دين الله .

وأكثر ارتداد الناس وكفرهم يرجع إلى هذا النوع ، فإن أكثرهم في الماضي والحاضر يقرون بوجود الخالق سبحانه ، وكثير منهم يثبت له خصائص الربوبية وصفاتها من قدرة وتدبير ورزق وإحياء وإماتة وغيرها .

وقد ذكر الله في كتابه الكريم أن المشركين الذين بعث الله إليهم كانوا مقرين بأن الله خالقهم ، قال تعالى : **﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾**(٤) ، وقال أيضا **﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾**(٥) .

وإنما دخل الكفر على معظم الكافرين بسبب إنكارهم استحقاق الباري بأن يفرد في توجيه العبادة إليه سواء أكان هذا الإنكار بالقلب وهو الاعتقاد ، أو بما يدل عليه من القول أو الفعل ، وبسبب إقرارهم باستحقاق غيره لهذا الامر سواء أكان هذا الإقرار تصديقا بالقلب واعتقادا ، ام قولا أو فعلا يدل عليه .

والواقع أن هذا النوع من الكفر يدخل صاحبه في النوعين السابقين من الكفر ، لأن من يعترف لله سبحانه بأنه الخالق لكل شيء ، والمدبر لكل شيء ، ويعترف له بجميع صفات الجلال والكمال يقتضيه ذلك أن يعترف له وحده دون غيره بالألوهية المطلقة ، واستحقاق العبودية له دون سواه ، فإن أنكر ذلك وعبد غيره أو عبد معه غيره ، فإن اعترافه لله بالربوبية باطل ولا قيمة له .

---

(٤) الزخرف ـ الآية ٨٧ .

(٥) الزخرف ـ الآية ٩ .

يقول الصنعاني : (فمن شأن من أقر لله تعالى بتوحيد الربوبية أن يفرده بتوحيد العبادة ، فإذا لم يفعل ذلك فالإقرار الأول باطل)[٦] .

ولذا كان توحيد الله في عبادته موضوع الامتحان للعباد في هذه الحياة الدنيا قال تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[٧] .

ومن هنا يتضح أن شهادة أن (لا إله إلا الله) يناقضها أمران :

الأول : نفي استحقاق الخالق لأن يعبد بأي نوع من أنواع العبادة .

الثاني : إثبات هذا الاستحقاق لأي مخلوق من مخلوقات الله سبحانه وتعالى .

فكل قول أو تصرف أو اعتقاد يتضمن أحد هذين الأمرين يدخل صاحبه في الكفر والردة . والعبادة التي لا تستحق إلا لله هي الخضوع والتذلل والطاعة والانقياد ، مما يدخل فيها الحب والخشية والاستغاثة والدعاء والتوكل والرجاء ، والركوع والسجود والصوم والذبح ، والطواف ، والخشوع وغيرها .

وبناء عليه فان من ينفي بقول أو اعتقاد أو عمل استحقاق الله لهذه المعاني يكفر ، فيكفر من قال أو اعتقد أن الله سبحانه لا يخشى أو لايدعى أو لايستعان به أو لا يركع له أو يرجى ، أو يسخر ممن عبد الله أو استخف بمن يدعو الله أو يستعين به أو يرجوه بسبب دعائه لله استعانته به ، أو الصلاة له أو الصوم ، أو الطواف أو أي فعل أو قول يعده الشرع عبادة ، لأن استهزاءه واستخفافه لذلك أو لبعضه يدل بصورة قاطعة على عدم اعتقاده باستحقاق الباري لهذه العبادات . كذلك يكفر من أنكر استحقاقه للطاعة وامتثال أمره واجتناب نهيه ، فإن لله عز وجل شرعا ضمنه كتابه ، وأوصى به إلى رسوله ﷺ ، فمن ادعى أن شيئا من هذا الشرع لا يستحق الامتثال والتطبيق أو لا يصلح في هذا الزمان أو نحو ذلك كفر بهذه الدعوى ، لأن من خصائص

---

(٦) تطهير الاعتقاد ص ٩ .

(٧) الذاريات ، ٥٦ .

الألوهية الأمر والحكم والتشريع ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾[٨] ، ومن خصائص العبودية الامتثال والطاعة .

وفي مقابل ذلك يكفر كل من يثبت لغير الله شيئا من تلك العبادات ، فيكفر من يدعي استحقاقه لتلك العبادات ، او أمر الناس بممارستها له ومن أجله ، ويكفر من يصدقه ويرضى بقوله أو يمارس بعض تلك العبادات له ، وكذلك من أحب أن يعبد بأصناف تلك العبادات وإن لم يأمر الناس بذلك ، كمن أحب أن يخشى أو أن يستعان به أو يتوكل عليه ، أو يرجى[٩] ، أو يسجد له أو يركع له أو يخشع الناس له أو غير ذلك من المعاني التي لا يصح التوجه بها إلا إلى الخالق عز وجل .

ويكفر من ادعى أن الحق في تشريع ما لم يأذن به الله ، بسبب ما أوتي من السلطان والحكم ، فيدعي أن له الحق في تحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، ومن ذلك وضع القوانين والأحكام التي تبيح الزنا والربا وكشف العورات أو تغيير ما جعل الله لها من العقوبات المحددة في كتاب الله أو في سنة رسوله ﷺ ، أو تغيير المقادير الشرعية في الزكاة والمواريث والكفارات والعبادات وغيرها مما قدره الشارع في الكتاب والسنة ؟ .

ويدخل في الكفر من يؤمن بهذه الطواغيت ويعترف لها بما ادعته من حقوق الألوهية ، فقد قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[١٠] . وقال أيضا ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** ﴾[١١] ، والعروة الوثقى هي شهادة أن لا إله إلا الله فهذا هو معناها : أن تنفي جميع

---

(٨) يوسف ـــ الآية ٤٠ .

(٩) والمقصود بذلك الخشية والاستعانة والرجاء فيما لا يقدر عليه الا الله ، وهي خشية الغيب والاستعانة في تحقيق الامور التي لا يقدر عليها الا الله ، وكذلك الرجاء فيما هو من اختصاص لله سبحانه . واما فيما يقدر عليه الناس . فلا يكفر فيها العبد ، كمن خاف من السلطان وقد هدده بالسجن أو الموت أو استعان بصديق في قضاء حاجة يقدر عليها ، او قال شخص لآخر : أرجوك أن تفعل كذ مما يقدر عليه الناس ، فكل ذلك لا يدخل في الكفر

(١٠) النحل ـــ الآية ٣٦

(١١) البقرة ـــ الآية ٢٥٦

أنواع العبادة عن غير الله تعالى وتثبيت جميع أنواع العبادة لله وحده لا شريك له(١٢) .

ومن هنا تعلم أنه إذا قام حاكم ينتحل الحق في إصدار تشريعات مناقضة لما هو ثابت في الكتاب أو السنة ، يحلل به ما حرم الله ، أو يحرم ما أحله سبحانه ، كفر وارتد عن دين الله القويم ، لأنه يعتقد بذلك انه يسعه الخروج عن شريعة الإسلام بما يشرع للناس ، ومن اعتقد ذلك كان من الكافرين(١٣) .

ولكن هذا الحكم لا يدخل فيه إصدار التشريعات التي لم تتناولها نصوص الشرع أو لم تتعرض لها ، ولا الأحكام الاجتهادية التي اختلف العلماء فيها .

فمن سن قانونا يبيح بموجبه الزنا أو الربا أو أي شيء من المعاصي المتفق على حرمتها في شرع الله فقد كفر ، ويكفر جميع من يسهم برضاه في إصدار مثل هذا القانون ، ولكن لا يكفر من سن قانونا ينظم فيه السير مثلا أو نحوه مما لم يتعرض له الشرع بالذكر ، ولا يكفر من سن قانونا ينظم فيه الأسعار ، ولا يقال إن التسعيرة حرام لأن بعض العلماء لا يجيزه ، ذلك أنه أمر اجتهادي ، وقد قال به بعض الفقهاء .

وتعلم أيضا أنه يكفر من الناس من يعترف لهذه الطواغيت بهذه الحقوق ويرضى بها ، ويتحاكم إليهم وإلى شرائعهم المناقضة للإسلام في أصوله وما علم منه بالضرورة ، وقد قال تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا** ﴾(١٤) .

وقال تعالى ﴿ **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله** ﴾(١٥) .

---

(١٢) رسالة محمد بن عبد الوهاب في معنى الطاغوت ــ الجامع الفريد ص ٢٦٦

(١٣) نواقض الاسلام لمحمد بن عبد الوهاب ــ الجامع الفريد ص ٢٧٨

(١٤) النساء ــ الآية ٦٠

(١٥) الشورى ــ الآية ٢١

النوع الرابع من النواقض :

وهو كل قول أو فعل أو اعتقاد يتضمن الطعن في الرسالة أو في صاحبها عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم ، لأن ذلك ينقض شهادة أن محمدا رسول الله ، فإن هذه الشهادة تعني : التصديق بكل ما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه حق وصدق وأن محمدا ﷺ أهله ربه وحلاه بجميع الصفات التي تمكنه من أداء الرسالة وتبليغها على أتم وجه وأكمله .

وبهذا تعلم أنه ينقض هذه الشهادة أحد أمرين :

الأول : الطعن في رسول الله ﷺ .

الثاني : إنكار بعض ماأخبر به رسول الله ﷺ أو الطعن فيه .

ويدخل في الأمر الأول نسبة أي شيء للرسول عليه السلام مما يتناقض مع اصطفاء الله له لتبليغ دينه إلى عباده : فيكفر كل من طعن في صدق الرسول أو أمانته ، أو عفته أو صلاح عقله ، ونحو ذلك ، ويكفر من سب الرسول ﷺ أو استهزأ أو أستخف به أو بتصريف من تصرفاته الثابتة .

ويدخل فى الأمر الثاني ، إنكار أي أمر من الأمور التي أخبر بها ، فيكفر من انكر ما أخبر به الرسول عليه الصلاة والسلام وثبت عنه من البعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار ونحوها من المغيبات .

ويكفر من أنكر شيئا من القرآن مهما كان(١٦) ، لأن جميع آيات القرآن أخبر عليه السلام أنها من كلام الله تعالى ، فمن جحد شيئا من ذلك فقد كذب الرسول عليه الصلاة والسلام . ويكفر من أنكر حكما من الأحكام الثابتة في القرآن أو السنة ، فيكفر كل من أنكر فرضية الصلاة أو الزكاة أو حرمة الزنا أو السرقة ، أو ادعى زيادة ركعة في إحدى الصلوات ، أو جوازها بدون وضوء ونحو ذلك .

ولكن يعذر من جحد شيئا ليس مشتهرا في الدين ولا يعلمه إلا خاصة العلماء ، ولا يكفر أيضا من أنكر حكما مجتهدا فيه وليس مجمعا عنيه .

---

(١٦) انظر شرح ملا علي القاري على الفقه الاكبر ص ١٦٧

يقول الإمام النووي : (وكذلك الأمر في كل من أنكر شيئا مما أجمعت الأمة عليه من أمور الدين إذا كان علمه منتشرا كالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان والاغتسال من الجنابة وتحريم الزنا والخمر ونكاح ذوات المحارم ونحوها من الأحكام ، إلا أن يكون حديث عهد بالإسلام ولا يعرف حدوده ، فإنه إذا أنكر شيئا منها جهلا به لم يكفر . . . فأما ما كان الإجماع فيه معلوما من طريق علم الخاصة كتحريم نكاح المرأة وعمتها وخالتها وأن القاتل عمدا لا يرث وأن للجدة السدس وما أشبه ذلك من الأحكام ، فإن من أنكرها لا يكفر بل يعذر فيها لعدم استفاضة علمها في العامة)[١٧] .

ويكفر من جحد آية من القرآن أو أنكر أمرا غيبيا أو كذب خبرا عما كان وما سيكون مما ورد به القرآن الكريم .

ويكفر من جحد إرسال الرسل قبل محمد ﷺ ، أو جحد ما ذكر من قصصهم مع أقوامهم ، ومن أنكر الكيفية التي ذكرها الله عن بداية الخلق أو ادعى كيفية أخرى تخالف ما ذكر في آيات الكتاب الكريم ، ومن أنكر الجن والشيطان أو أنكر الكرسي والعرش واللوح والقلم ومن أنكر وجود شخصية تاريخية أثبت القرآن وجودها ومن أنكر رسالة أو نبوة من ذكر القرآن ، أنهم رسل وأنبياء ، وكذلك من طعن في أحدهم بما لا يليق باختيار الله لهم أو أنكر أن الله أرسل رسلا غيرهم لم يسمهم ، لأنه صرح بذلك في أكثر من موضع ، ويكفر كذلك من أنكر إعجاز القرآن الكريم لأن هذا الإعجاز ثابت بإخبار الله عز وجل وبالواقع ، وكذلك من ادعى النبوة بعد محمد ﷺ أو صدق من يدعيها لأن القرآن أخبر أن محمدا خاتم النبيين .

الرضى بالكفر وعدم الرضى بالإسلام كفر :

ومن المفيد هنا أن نكرر ما ذكرناه سابقا ، وهو أن تلك الصور والتفصيلات مما يحبط الشهادتين ليست إلا أمثلة ، وقد يوجد غيرها .

ونوجه الانتباه هنا إلى أمر قد يظن أنه لا يدخل فيما سبق ، مع أنه في حقيقته ينقض الشهادتين ويتضمن إنكار التوحيد والرسالة ، ألا وهو الرضى

---

(١٧) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١ ص ٢٠٥

بالكفر وعدم الرضى بالإسلام[18] . فإن من قال: صدقت لمن أنكر الشهادتين ومن قال : كذبت لمن نطق بهما ، لا يشك أحد في كفره حتى وإن كان القول الأول مجاملة للقائل ، وهنالك أساليب مختلفة من الأقوال والأعمال والأحوال لا تقل دلالتها في عرف الشارع وفي عرف الناس ، وعرف اللغة عن قول : صدقت لمن كفر أو كذبت لمن أسلم ، فمن صدرت منه خرج من دين الإسلام ، من هذه الاساليب :

أولا : أساليب الرضى بالكفر :

١ ــ عدم تكفير الكافرين من ملحدين ومرتدين ومشركين :

أو الشك في كفرهم أو تصحيح أي مذهب من مذاهبهم الكافرة[19] .

فمن علم من شخص أو جماعة أو مذهب أو حزب من الأحزاب أو طائفة من الطوائف أو أهل دين من الأديان كفرا واضحا ، فاعتقد عدم كفرهم أو ردتهم ، أو قال عن مذاهبهم أو بعضها أنه صحيح ، فقد دخل معهم في الكفر وأصبح مثلهم .

ولكن هذه القاعدة تحتاج إلى بيان واحتياط عند تطبيقها :

ذلك أنه يفترض من أجل الحكم بردة مثل هذا الإنسان أنه يعلم حقيقة من يحكم بإسلامهم وعدم كفرهم ، فإن كان لا يعرف حقيقتهم وما هم عليه من الكفر ، فلا يجوز الحكم عليه بالردة من أول الأمر ، وإنما يبين له بوسائل البيان السليمة ، التي لا يبقى بعدها شك فيما ينسب إليهم ، فإن أنكر بعد هذا كفرهم اعتبر حكمه هذا ردة وكفرا ، لأن إنكاره في حقيقته تبن لمذهبهم واعتراف بصحته .

على أنه ينبغي أن يلاحظ أن كفر بعض الطوائف أصبح مشتهرا ومعلوما بين الناس بالضرورة كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ، فيكفر كل من ينكر كفر هؤلاء من أول الأمر .

---

(١٨) انظر شرح ملا على القاري على الفقه الاكبر ، ص ١٦٥ .

(١٩) نواقض الاسلام ــ محمد بن عبد الوهاب ــ انظر الجامع الفريد ص ٢٧٧ .

وأما المذاهب والطوائف التي لا يفترض اشتهارها بين الناس وعلم مبادئها الكافرة ، فينبغي أن يتريث في تكفير من لا يحكم بردة أتباعها ، حتى يبين له بما يقطع الشك ويعرف على مواقع الكفر في هذه المذاهب والطوائف[٢٠] ، وخاصة أن بعض هذه الطوائف تنسب نفسها إلى الإسلام ، وتتظاهر أمام العامة أنها لا تنكر شيئا من الإسلام ، وتخفي عنهم بادىء الأمر ما ينفرهم عنها ، مما فيه الإنكار الصريح الواضح لمبادىء الإسلام أو بعضها .

كذلك يشترط لتكفير هذا الصنف من الناس ان يكون المحكوم عليهم قد كفروا بأمر متفق على الكفر بسببه ، فإن كان مختلفا فيه بين العلماء المعتبرين ، بعضهم يعده من النواقض وبعضهم لا يعده ، لم يجز تكفير من لم يكفرهم ، كتكفير الخوارج وبعض الفرق الأخرى التي لم يتفق على ردتها . ويدخل في هذا من لم يكفر تارك الصلاة عمدا ، الذي لم يجحد فرضيتها . فإذا تحققت هذه الشروط ، وأنكر المسلم كفر الكافرين وصحح ما هم عليه كان في حقيقة الأمر كالناطق المعتقد بالسبب الذي أدخلهم في الكفر ، فيكون ناقضا بذلك ما سبق منه من الشهادتين . ومن جهة أخرى يكون منكرا للنصوص والدلائل التي تكفر امثالهم فيكفر بسبب إنكاره لهذه النصوص .

٢ ــ موالاة الكفار وإظهار موافقتهم على دينهم :

فقد علمت أن من معنى شهادة أن لا إله إلا الله نفي استحقاق العبادة لغير الله عز وجل ، فوق ما تدل عليه من إثبات هذا الاستحقاق لله وحده ، وهو مادل عليه قوله تعالى أيضا﴿ **أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[٢١] ، فلا يكفي في تحقيق معنى هذه الشهادة أن يعبد الإنسان ربه ، حتى يجتنب عبادة غيره من جهة ، وينفي استحقاق أي مخلوق لأي من أنواع العبادة التي لا تصح إلا لله من جهة أخرى ، هذا أمر متفق عليه ولا جدال فيه ، ومما لا جدال فيه أيضا من أظهر خصائص الكفار أنهم لا يعبدون الله حق عبادته ، أو أنهم يشركون معه في العبادة غيره ، زيادة على ما قد يكون منهم من إنكار للرسالة أو طعن في الرسول ﷺ ، أو غير ذلك من الأمور المناقضة للإسلام والمضادة للشهادتين ، وهذا أمر متفق عليه ايضا .

(٢٠) مجموعة التوحيد ص ١٣٦

(٢١) النحل ــ الآية ٣٦

وبناء على هاتين المسلمتين يتحدد الموقف الذي يتفق مع الشهادتين من أعداء الله وأعداء دينه من الكفار والمشركين والمرتدين . ويتبين الحد الذي يجب أن يقف عنده المسلم ولا يتجاوزه من أجل الحفاظ على دينه وإيمانه في معاملتهم وبناء العلاقات معهم ، وهو الحد الذي لا يفهم من الوقوف عنده الموافقة على دينهم والرضى عن كفرهم ، فإذا تخطى المسلم هذا الحد ودخل في طاعة الكفار وأظهر الموافقة على دينهم الباطل ، وأعانهم عليه بالنصرة والمال ، ووالاهم ، وقطع الموالاة مع المسلمين ، ورفع علاقته معهم على علاقته مع المسلمين وضحى بالثانية من أجل الأولى فقد صار منهم وارتد عن دينه ، وكان كافرا من أشد الناس عداوة لله تعالى ورسوله ﷺ . ولا يستثنى من ذلك إلا المكره ، وهو الذي يقع تحت سلطان الكفار ، فيأمرونه بطاعتهم في باطلهم ، ويهددونه بالقتل أو يشرعون في تعذيبه ، فيجوز له عندئذ فقط الموافقة باللسان مع طمأنينة القلب بالإيمان . ومع أن هذا الأمر يدخل في معنى الشهادتين كما تقدم فإنه ورد في القرآن آيات كثيرة جداً تفرض على المؤمن قطع الولاء للكفار ، وتوجب عليه معاداتهم في الدين ، ويدل كثير من هذه الآيات في ظاهره على كفر وردة من لم يقم بهذه الفريضة ، فإذا رجعت إلى المعنى الذي تدل عليه الشهادتان وجمعته مع هذا الظاهر الذي تدل عليه هذه النصوص عرفت أنه على حقيقته ولا يجوز تأويله ، ونذكر لك فيما يلي بعض هذه النصوص ، لاجميعها فإنها كثيرة لا يزيد عليها إلا ما جاء بخصوص التوحيد والأمر بعبادة الله :

أ ــ قوله تعالى ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾(٢٢) .

فنهى سبحانه المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء وأصدقاء وأصحابا من دون المؤمنين وأخبر أن من فعل ذلك فليس من الله في شيء ، قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى : **﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾** : (ومعنى ذلك : لاتتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرا وأنصارا توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين وتدلونهم على

(٢٢) آل عمران ٢٨

عوراتهم فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، يعني بذلك فقد برىء من الله وبرىء الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر)[٢٣] .

وأما قوله تعالى **﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾** فهو كقوله تعالى **﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾** وهو أن يكون المسلم مقهورا معهم لا يقدر على عداوتهم ، فيظهر لهم المعاشرة والقلب مطمئن بالإيمان بالله ، وملىء بالعداوة والبغضاء للكفر وأعداء الله ، قال ابن جرير (إلا أن تتقوا وتضمروا لهم العداوة ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر ولا تعينوهم على مسلم بفعل)[٢٤] .

وسيأتيك إن شاء الله تعالى بيان حد الإكراه المعتبر في هذا المقام .

ب ــ قوله تعالى **﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ٥ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴾**[٢٥] .

فنهى سبحانه وتعالى عن موالاة اليهود والنصارى ، وذكر أن من والاهم كان منهم ، فمن تولى اليهود فهو يهودي ، ومن تولى النصارى فهو نصراني ، وكذلك من تولى أي كافر فهو مثله في كفره ، لأن المتولي متبين لما عليه ذلك الكافر وراض عنه ، فيكون مثله من حيث الكفر . وقد روى ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين قال : قال عبد الله بن عتبة : (ليتق أحدكم أن يكون يهوديا أو نصرانيا وهو لا يشعر) ، قال فظنناه يريد هذه الآية **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾** الى قوله تعالى **﴿ فإنه منهم ﴾** .

ثم تأمل عذر هؤلاء الذين كفروا بموالتهم لليهود والنصارى ، والذي لم يقبله الله عز وجل منهم ، وهو خوفهم من أهل الكتاب وسلطانهم ، على مراكزهم وأموالهم ودنياهم ، فإن تأملك هذا يعطيك ضوءا وإشارة إلى معنى

---

(٢٣) تفسير الطبري جـ ٦ ص ٣١٣

(٢٤) تفسير الطبري جـ ٦ ص ٣١٣ .

(٢٥) المائدة ــ الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

الإكراه ، وما يعتبر منه وما لا يعتبر ، وهو ما وعدناك بالكلام عنه بعد الانتهاء من ذكر هذه الآيات .

جـ ـــ قوله تعالى : ﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ، ولكن كثيرا منهم فاسقون ﴾(٢٦) .

فبين سبحانه وتعالى أن الايمان بالله والنبي مرتبط بعدم ولاية الكفار ، فثبوت موالاتهم يوجب عدم الإيمان ، لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم ، ومن جهة أخرى فقد رتب الله تعالى على موالاة الكافرين سخطه والخلود في العذاب ، وأخبر أن موالاتهم لا تحصل من مؤمن ، فإن أهل الإيمان يعدونهم ولا يوالونهم .

ثم انظر كيف اعتبر سبحانه وتعالى عدم الموالاة للكفار داخلا في معنى الشهادتين اللتين عبر عنهما بالإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه . ووجه الارتباط هو ما قدمناه لك في مبدأ الكلام عن المولاة للكفار والموافقة على دينهم .

د ـــ قوله تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا ﴾(٢٧) ، فجعل سبحانه وتعالى اتخاذ الكافرين أولياء من أخص خصائص النفاق وأهله .

هـ ـــ قوله تعالى ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾(٢٨) .
فأخبر سبحانه أنه لا يوجد مؤمن يواد كافرا ، فمن واد كافراًفليس بمؤمن ، وإذا كان الله قد نفي الإيمان عمن يواد أباه وأخاه وعشيرته ، إذا كانوا كفارا ، فمن واد الكفار الأبعدين أولى بأن لا يكون مؤمنا .

---

(٢٦) المائدة ـــ الآيتان ٨٠ ، ٨١ .
(٢٧) النساء ـــ الآيتان ١٣٨ ، ١٣٩ .
(٢٨) المجادلة ـالآية ٢٢

و ــ قوله تعالى : ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم ۝ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ۝ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ۝ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾[29] .

فأخبر تعالى أن سبب ما جرى عليهم من الردة والكفر هو قولهم للذين كفروا : سنطيعكم في بعض الأمر ، فلم ينفعهم ما علموه من الهدى والحق مع ما قالوه وما وعدوه للذين يكرهون الإسلام .

ز ــ قوله تعالى ﴿ وقد نزّل عليكم في الكتاب أن اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذاً مثلهم ﴾[30] .

فذكر تعالى أنه نزل على المؤمنين في الكتاب أنهم إذا سمعوا آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، وأن من جلس مع الكافرين بآيات الله المستهزئين بها في حال كفرهم واستهزائهم فهو مثلهم . هذا وهم في بلد واحد في أول الإسلام ، فكيف بمن كان في سعة الإسلام وعزه وبلاده ، فدعا الكافرين بالله المستهزئين بها إلى بلاده واتخذهم أولياء وأصحابا وجلساء ومستشارين ، وسمع كفرهم واستهزاءهم وأقرهم ، وطرد علماء المسلمين وأبعدهم ! ! فهذا أسلوب من أساليب الرضى بالكفر والكفار يبعد صاحبه عن الإيمان ، ويدخله في الكفر والعياذ بالله ، لأن السكوت في مجالس الكفر وما يكون فيها دليل كاف على الموافقة .

فيجب على المؤمن أن يحذر ذلك كما يحذر الكفر الصريح ، فيلزمه مفارقة هذه المجالس ، حتى ينجو من عذاب الله ، ولا يمنعه من ذلك خوف على مال او مركز ، أو أي عرض من أعراض هذه الدنيا ، فإن الله سبحانه أحق أن يخشاه .

---

(٢٩) محمد الآيات ٢٥ ــ ٢٨.

(٣٠) النساء ــ الآية ١٤٠ .

معنى الموالاة للكفار :

تلك بعض النصوص التي يدل كل واحد منها على ردة من يوالون الكفار والمشركين فكيف إذا اجتمعت ، وجمعت معها غيرها مما لم يذكر ، وعرفت تناقض موالاة الكفار مع الشهادتين .

وليس لقائل أن يقول : أن معنى الموالاة غير محدود ، إذ يدخل فيه أمور كثيرة قاصدا بذلك أننا لا نستطيع أن نتخذه معيارا في معرفة من يكفر ومن لا يكفر ، لأن الله سبحانه وتعالى لا ينهي عن شيء غير محدد وغير معروف ، ولا يحكم بردة من دخل فى أمر غير واضح وغير متميز ، وإلا لكان أمره ونهيه في هذا الموضوع عبثا لا يمكن تطبيقه ، وهذا قول لا يقوله مؤمن بالله وصفاته .

فإن قيل : فما معنى الموالاة ؟

فاعلم أن هذا اللفظ مشتق من الولاء ، وهو الدنو والتقرب . والولاية ضد العداوة ، والولي عكس العدو ، المؤمنون أولياء الرحمن ، والكافرون أولياء الطاغوت والشيطان ، لقرب الفريق الأول من الله بطاعته وعبادته ، وقرب الفريق الثاني من الشيطان بطاعة أمره ، وبعدهم عن الله بعصيانه ومخالفته .

ومن هنا يتبين أن مولاة الكفار تعني التقرب إليهم ، وإظهار الود لهم ، بالأقوال والأفعال والنوايا . وقد أشارت النصوص إلى كثير من هذه الأمور التي تدخل الإنسان فى الولاء للكفار ، من ذلك :

اتباع أهوائهم وقد نهى الله عن اتباعها قال تعالى : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير** ﴾[٣١]

وطاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين** ﴾[٣٢] ، وقال سبحانه : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا** ﴾[٣٣] ، وقال ايضا :

(٣١) البقرة ــ الآية ١٢٠ .

(٣٢) آل عمران ــ الآية ١٤٩ .

(٣٣) الكهف ــ الآية ٢٨ .

﴿ ...وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾[34] .

والركون إليهم ، قال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾[35] .

والركون : هو الميل والرضى بما يعرضونه على المسلم .

ومداهنتهم ومداراتهم ومجاملتهم على حساب الدين . قال عز وجل : ﴿ ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾[36] .

وإظهار الود لهم ، قال تعالى : ﴿ لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾[37] .

ويدخل في جملة ما تقدم إكرام الكفار وتقريبهم ، وخاصة من الحكام ، ومشاورتهم في الأمور الهامة ، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين ، ومعاونتهم على ظلمهم ونصرتهم والتشبه بأعمالهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وأخذ الأمة بوسائل الترغيب والترهيب والإعلام وغيرها للتشبه بهم وتقليدهم في شئون الحياة ، واستعارة قوانينهم ومناهجهم في حكم الأمة وتربية أبنائها .

ويدخل فيه معاونتهم ، والتآمر والتخطيط معهم ، وتنفيذ مخططاتهم ، والدخول في تنظيماتهم وأحلافهم ، والتجسس من أجلهم ، ونقل عورات المسلمين وأسرار الأمة إليهم والقتال في صفهم .

ويدخل فيه استئمانهم ، وقد خونهم الله عز وجل ، وتوليتهم المراكز الهامة ، وتنصيبهم في أهم الوظائف وأخطرها ، وخاصة في الجيش والمرافق الهامة .

كما يدخل فيه تحسين أفكارهم ومناهجهم وقيمهم وتصوراتهم ، والدعوة إليها ، وتفضيل علمائهم على علماء المسلمين .

---

(٣٤) الأنعام ـــ الآية ١٢١ .
(٣٥) هود ـــ الآية ١١٣ .
(٣٦) القلم الآية ٩ .
(٣٧) المجادلة ـــ الآية ٢٢ .

فمن اجتمعت عنده هذه الأمور ، أو قدر منها ، وكان ذلك له خلقا وعادة ، فقد أقام الدليل على أنه راض بكفر الكافرين ، فيكون مثلهم ، بل منهم ، ولا ينجيه من الكفر إلا إيمان جديد ، وإقلاع عن موالاة الكفار .

ما يقبل وما لا يقبل من الأعذار في هذا المقام :

هذا وقد يعتذر بعض الموالين بأنهم يخافون على ملكهم وأموالهم ومراكزهم وغير ذلك من المخاوف التي لا تصح ، ولا يعتبرها الله سبحانه ، ولا يعذرهم من أجلها ، وجميعها من تزيين الشيطان وتسويله ، وحب الدنيا والطمع في زينتها .

ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يقبل عذرا لأحد في إظهار موالاته للكفار وطاعتهم وموافقتهم على دينهم ، إلا عذرا واحدا ، هو الإكراه ، حيث قال عز وجل : ﴿ **من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ، ولكن من شرح بالكفر صدرا * فعليهم غضب من الله * ولهم عذاب عظيم * ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وأن الله لايهدي القوم الكافرين** ﴾(٣٨) . وقال أيضا : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاه** ﴾(٣٩) .

على أن الإكراه لا ينفع أحدا فيما يتعلق بالرضى القلبي والميل الباطني إلى الكفار فهذا غير مأذون فيه على أية حال ، لقوله تعالى : ﴿ **وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ ، ولأن الإكراه لا سلطان له على القلوب ، ولكن محل العذر هو محل تأثير الإكراه ، وهو النطق باللسان وفعل الجوارح . فمن والى الكفار بقلبه وميله إليهم فهو كافر على كل حال . فان أظهر موالاته بلسانه أو بفعله عومل في الدنيا بكفره ، وفي الآخرة يخلد في النار وإن لم يظهرها بفعل ولا قول وعمل بالإسلام ظاهرا عصم ماله ودمه ، وهو منافق في الدرك الأسفل من النار .

---

(٣٨) النحل ـــ الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣٩) آل عمران ـــ الآية ٢٨ .

حدود الإكراه المعتبر :

ولكن ما حدود الإكراه المقصود في هذا المقام ؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (تأملت المذاهب فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكره ، فليس المعتبر في كلمات الكفر كالإكراه المعتبر في الهبة ونحوها ، فإن أحمد قد نص في غير موضع على أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب أو قيد ، ولا يكون الكلام إكراها . وقد نص على أن المرأة لو وهبت زوجها صداقها بمسكنه فلها أن ترجع على أنها لا تهب له إلا إذا خافت أن يطلقها أو يسيء عشرتها ، فجعل خوف الطلاق أو سوء العشرة إكراها ، ومثل هذا لا يكون إكراها على الكفر ، فإن الأسير إذا خشيء الكفار أن لا يزوجوه أو أن يحولوا بينه وبين امرأته لم يبح له التكلم بكلمة الكفر)[٤٠] .

وهكذا يرى الإمام أحمد بن حنبل ، ويوافقه ابن تيمية رحمهما الله تعالى ، أن الاكراه في مقام التظاهر بالكفر ، سواء كان نطقا بكلامه أو موالاة للكفار لا يعتبر إلا إذا وصل إلى حد التعذيب من ضرب أو قتل ونحو ذلك ، وأما ما دونه من طمع في رياسة أو في مركز يعين الكفار على توليه أو بقائه ، أو خوف على مال أو عيال أو وطن أو غير ذلك فإنه لا ينفع ولا يقبل منه .

وهذا الذي ذهبا إليه يدل عليه النصوص السابقة التي نهت عن موالاة الكفار واعتبرته سببا من أسباب الكفر والردة ، ففي الآية التالية للآية التي عذر فيها الله سبحانه وتعالى المكره فيما يتلفظ به كلام الكفر ، قرر سبحانه أن حب الدنيا والعمل من أجل حظوظها لا ينفع صاحبه ، ولا يشفع له عند الله تعالى إن صدر عنه ما يستلزم الكفر ، فقال سبحانه وتعالى **﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾**[٤١] .

وفى آية اخرى توعد سبحانه وتعالى من اتخذ أباه أو أخاه وليا من دون الله فقال تعالى : **﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾**[٤٢] .

---

(٤٠) انظر مجموعة التوحيد ص ٢٩٧ .

(٤١) النحل ــ الآية ١٠٧ .

(٤٢) التوبة ــ الآية ٢٣ .

فانظر كيف نفى أن تكون صلة القرابة ، مهما كانت قوية ، عذرا في إظهار الموالاة للكفار .

فان لم يكن حب الأب والأخ والولد عذرا في ولاية الكفار ، فكيف يمكن أن يكون كذلك حب الزعامة والأموال وزينة الحياة الدنيا ، بل إن الله عز وجل رفض الاعتذار بثمانية أعذار كثيراً ما يعتذر الناس بها فى ترك ما يحب الله ورسوله وهو قوله تعالى **﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾**[٤٣] .

ولاشك أن موالاة الكفار فيها إظهار لحبهم ومودتهم ، وتفضيلهم على حب الله ورسوله والجهاد في سبيله ، ومثل هذا قوله تعالى **﴿ لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾**[٤٤] . فلا عذر لإنسان في موالاة الكفار خوفا على الأموال والأبناء والأزواج والعشائر ونحو ذلك مما يعتذر به كثير من الناس .

وانظر كيف رفض الباري عز وجل قبول عذر أناس كانوا يتولون اليهود والنصارى عندما قالوا : نخشى أن تصيبنا دائرة ، فقال سبحانه **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ﴾**[٤٥] .

وهذه هي حال كثير من المرتدين في هذه الفتنة في هذه الأيام ، وما اشبه أعذار كفار الأمس بأعذار كفار اليوم ! فتجدهم يعتذرون بنفس العذر ، ويخافون الدائرة التي خاف منها أولئك القوم ، فيقولون لك ، كيف لنا أن

---

(٤٣) التوبة ــ الآية ٢٤ .

(٤٤) المجادلة ــ الآية ٢٢ .

(٤٥) المائدة ــ الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

لا نوالي فلانا أو تلك الطائفة وكيف لنا أن لا نظهر المودة لها ونجاملها ، ولو كان على حساب الدين والعقيدة ، وهي تتمتع بالعطف والحماية من دول عظمى لا نقدر على الوقوف أمامها ، أو يقولون لك : كيف نتجاهل رغبة تلك الدولة العظيمة ، ولو كانت رغبتها قتل المسلمين وتشريدهم وإفساد أخلاقهم ، وإبعادهم عن دينهم ، والتنازل عن أراضيهم ، كيف لنا ذلك ؟

تعلم أنه لا يستطيع أمثالنا الثبات لحظة في مكانه الذي هو فيه إن لم ننفذ لها رغباتها ، إننا لا نستطيع التضحيه بمراكزنا ومكاسبنا ! ! وهذا لعمر الحق هو الخوف الذي لا يجوز أن يكون الا لله عز وجل ، وقد علمت أنه يكفر من يجعله لغير الله ، فهؤلاء قد كفروا مرتين : لموالتهم للكفار ، ولعبادتهم إياهم بخشيتهم لهم خشية لا تصح الا لله عز وجل .

فهذه النصوص وغيرها تدلك على ان الله عز وجل لا يعذر أحدا في موالاة الكفار إلا من كان حاله كحال عمار بن ياسر ، رضي الله عن آل ياسر ، الذي نزل في حقه تفضل الله تعالى على العباد بالإعذار بالإكراه ، وهو قوله تعالى ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ .

وهذا يقتضي أن يكون المكره تحت سلطان الكفار ، ويقدرون عليه ، وتكون الرخصة عندئذ في وقت الإكراه ، ولا يجوز اللجوء إليه بعد زوال التعذيب ، فإن عادوا إلى تعذيبه كان له العودة إلى الرخصة ، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال لعمار بعد ما عرف حاله (فإن عادوا فعد) .

قال بن قدامة (فإذا ثبت — أى المكره — أنه لم يكفر ، فمتى زال عنه الإكراه ، أمر بإظهار إسلامه ، فإن أظهره فهو باق على إسلامه ، وإن أظهر الكفر حكم أنه كفر من حين نطق به ، لأننا تبينا بذلك أنه كان منشرح الصدر بالكفر من حين نطق به مختارا له)(٤٦) على أن الأفضل لمن أكره على كلمة الكفر ، أو على موالاة الكفار والموافقة على دينهم أن يصبر ولا يمتثل لهم ، حتى ولو أتى ذلك على نفسه لما روى خباب عن رسول الله ﷺ أنه قال : (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع

---

(٤٦) المغني : جـ ٩ ص ٢٤

على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه)(٤٧) .

ويشهد لهذا أيضا ما ورد في الصحيح من قصة أصحاب الأخدود وما فعلوه بالمؤمنين ، فصبر المؤمنون على التحريق في سبيل الله ، ولم يصدهم الأخدود المؤجج بالنيران عن دينهم القويم ، فثبتوا عليه وضحوا بأنفسهم في سبيله وهو تفسير قوله تعالى ﴿ **قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود** ﴾(٤٨) .

وقال الإمام القرطبي رحمه الله أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجرا عند الله ممن اختار الرخصة(٤٩) .

بعض مظاهر عدم الرضى بالإسلام :

ونذكر لك أيضا مظهرين من مظاهر كره الإسلام التي تؤول بصاحبها إلى الردة والكفر وإن شهد الشهادتين وسمى نفسه مسلما ، وهما :

الأول : الاستهزاء بشيء معلوم من دين الإسلام ، ويدخل في ذلك الاستهزاء بالله ورسوله وكتابه أو بالمؤمنين بسبب إيمانهم ونحو ذلك ، وأصل هذا قوله تعالى : ﴿ **قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ، إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين** ﴾(٥٠) .

ومناسبة نزول هذه الآيات أنه قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء أرغب بطونا ، ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء — يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء — فقال عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث

---

(٤٧) رواه البخاري — انظر رياض الصالحين ص ٣٢ .

(٤٨) البروج : ٤ —٧ ، وقصة أصحاب الأخدود . اخرجها بتمامها مسلم في صحيحة انظر هذه القصة بكاملها في رياض الصالحين ص ٢٧ وما بعدها .

(٤٩) تفسير القرطبي : جـ ١ ص ١٨٨ .

(٥٠) التوبة — ٦٥ ، ٦٦ .

الركب نقطع به عنا الطريق ، قال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ ، وإن الحجارة تنكب رجليه ، وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله : (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون) ما يلتفت إليه ، وما يزيد عليه[٥١] .

وصور الاستهزاء كثيرة جدا لا تدخل تحت حصر ، ويجمعها أنها جميعا تدل على الاستخفاف بالدين وعدم الرضى عنه أو عن شيء منه ، وقد يكون كلاميا ، وقد يكون فعليا بالحركة والإشارة كالرف بالعين ، وإخراج اللسان ، ومد الشفة والغمزة باليد ، عند تلاوة كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ ، أو عند ذكر عقيدة الإسلام أو شيء من مبادئه المعلومة بالضرورة ونحو ذلك .

الثاني : ظهور الكراهية والغضب عند ذكر الله أو رسوله أو تلاوة كتابه ، أو ذكر شيء من أمور الدين المعروفة ، أو الدعوة إليه ، فقد قال عز وجل ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ، يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم ، النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير** ﴾[٥٢] . وقال أيضا ﴿ **ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم** ﴾[٥٣] .

نصوص بعض العلماء فيما يكون سببا للردة :

ومن المفيد في ختام هذا البحث أن نذكر لك بعض النصوص لبعض العلماء مما نصوا عليه من الأفعال والأقوال والاعتقادات التي تؤول بصاحبها الى الخروج من دين الاسلام ، ليكون الأخ القاريء على بينة منها ، فلا يقع فيها ، وليحذر إخوانه منها ومن الوقوع فيها ، فإن معظم ما ذكروه متفق عليه ، وما اختلف فيه لا يقل عن أن يكون كبيرة من الكبائر :

١ ــ ففي كتاب الزواجر عن ارتكاب الكبائر قال الإمام ابن حجر الهيثمي : (فمن أنواع الكفر والشرك أن يعزم الإنسان عليه في زمن بعيد أو قريب ، أو يعلقه باللسان أو القلب على شيء ، ولو كان محالا عقليا فيما

---

(٥١) تفسير ابن كثير : جـ ٢ ص ٣٦٧ .
(٥٢) الحج ــ الآية ٧٢ .
(٥٣) محمد ــ الآية ٩ .

يظهر . فيكفر حالا ، أو يعتقد ما يوجبه أو يفعل أو يتلفظ بما يدل عليه ، سواء أصد ر عن اعتقاد أو عناد أو استهزاء ، كأن يعتقد قدم العالم ، أو نفي ما هو ثابت لله بالإجماع المعلوم من الدين بالضرورة كإنكار علم الله أو قدرته ، أو كونه يعلم الجزئيات ، أو إثبات ما هو منفي عنه سبحانه كاللون) .

ثم شرع في بيان تفصيلات كثيرة لهذه القاعدة التي ذكرها فقال : (وفي معنى ذلك كل من فعل فعلا أجمع المسلمون على أنه لايصدر إلا من كافر وإن كان مصرحا بالإسلام ، كالمشي إلى الكنائس مع أهلها بزيهم من الزنانير وغيرها ، أو يلقي ورقة فيها شيء من القرآن ، أو فيها اسم الله تعالى فى نجاسة ــ أو يشك في نبوة نبي أجمع عليها ، أو إنزال كتاب كذلك كالتوراة أو الإنجيل أو زبور داود أو صحف إبراهيم ﷺ ، أو في آية من القرآن مجمع عليها ، أو في تكفير كل قائل قولا يتوصل به إلى تضليل الأمة أو تكفير الصحابة أو في مكة أو الكعبة أو المسجد الحرام أو في صفة الحاج ، أو هيئته المعروفة ، وكذا الصوم والصلاة أو استحل محرما كذلك ، كالصلاة بغير وضوء أو استحل ايذاء مسلم أو كافر ذمي بلا مسوغ شرعي بالنسبة لاعتقاده ، أو حرم حلالا كالبيع والنكاح أو يقول عن نبينا ﷺ : كان أسود او توفي قبل أن يلتحي ، أو ليس بقرشي أو عربي أو أنسي ، لأن وصفه بغير صفته تكذيب له . ويؤخذ منه أن كل صفة أجمعوا على ثبوتها له يكون إنكارها كفرا ، كما لوجوز بعثة نبي بعده . وقال : لا أدري أهو الذي بعث بمكة ومات بالمدينة او غيره ، أو قال أن النبوة مكتسبة ، أو أن رتبتها يوصل إليها بصفاء القلب ، أو يقول : الولي افضل من النبي وأنه يوحى إليه وإن لم يدع نبوة ، أو يدخل الجنة قبل موته ، أو يعيب نبينا محمداً ﷺ ومثله غيره من الأنبياء بل والملائكة . أو يلعنه أو يسبه ، أو يستخف أو يستهزيء به ، أو يلحق به نقصا في نفسه أو نسبه أو دينه أو فعله أو يُعرِّض بذلك ، أو يسبه بشيء عن طريق الازراء أو التصغير لشأنه ، أو الغض منه ، أو تمنى له معرة ، أو نسب إليه مالا يليق بمنصبه على طريق الذم ، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور ، أو عَيَّر بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه ، أو غمضه ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه ، فيكفر بواحد مما ذكر إجماعا ، فيقتل ولا تقبل توبته عند أكثر العلماء وقد قتل خالد بن الوليد

رضي الله عنه من قال له (عند صاحبكم) ، وعد هذه الكلمة تنقيصا له ﷺ) .

ثم قال ابن حجر : (أو يرضي بالكفر ولو ضمنا كأن يشير على كافر بأن لا يسلم وإن لم يستشره . . . أو سؤال الكفر لغيره لانه رضي به ، أو يقول لمسلم : يا كافر بلا تأويل لأنه سمى الإسلام كفرا ، أو يسخر باسم الله تعالى أو نبيه بأن يصغره ، أو يسخر بأمر الله أو نبيه أو وعده أو وعيده كأن يقول : لو أمرني بكذا لم أفعله ، أو لو جعل القبلة هنا ما صليت إليها ، أو لو أعطاني الجنة ما دخلتها استخفافا أو عنادا ، أو يقول لو أخذني بترك الصلاة مع ما في من الشدة والمرض ظلمني . أو قال ظالم لمظلومه القائل (هذا الظلم بتقدير الله) أنا أفعل بغير تقدير الله . أو قال : لو شهد عندي ملك او نبي ما صدقته ، أو لو كان فلانا نبيا ما آمنت به ، أو قال : ان كان ما قاله النبي صدقا نجونا . . . أو قيل له : قلم أظافرك فإنه سنة فقال لاأفعل وإن كان سنة استهزاء ، أو قال : لا حول ولا قوة الا بالله لا تغني من جوع ، ومثلها في ذلك سائر الأذكار كما هو ظاهر ، أو قال المؤذن يكذب ، أو شبه صوته بناقوس الكفر ، أو استخف بالآذان ، أو سمى الله على محرم استهزاء ، أو قال : لا أخاف القيامة استهزاء ، أو قال عن الله : انه لا يتبع السارق ناسبا العجز إليه . . . . أو نسب الله تعالى إلى جور في التحريم ، أو لبس زي كافر ميلا إلى دينه أو قال : اليهود خير من المسلمين . . أو قيل له : ما الإيمان ، فقال : لا أدري استخفافا أو أنكر صحبة أبي بكر أو قذف عائشة رضي الله عنها ، لأنه مكذب للقرآن بخلاف غيرهما أو قال : أنا الله ولو مازحا ، أو قال لا أدري حقه جحدا للواجبات . . . أو قال استخفافا : شبعت من القرآن أو الصلاة أو الذكر أو نحو ذلك ، أو قال :أي شيء المحشر أو جهنم ؟ أو قال : لعنة الله على كل عالم إذا قصد الاستغراق لشموله الأنبياء والملائكة أو قال : أي شيء هذا الشرع وقصد الاستخفاف ،

أو قال : إذا ظهرت الربوبية زالت العبودية وعني بذلك رفع الأحكام ، أو أنه فني من صفاته الناسوتية إلى اللاهوتية ، أو أنه يرى الله عيانا في الدنيا أو يكلمه شفاها ، أو أنه يحل في صورة حسنة ، أو أنه أسقط عنه التكليف ، أو قال : العبد يصل الى الله تعالى من غير طريق العبودية أو قال : الروح من نور

الله فإذا اتصل النور بالنور اتحد)(٥٤) .

٢ ـــ وأنقل هنا كلاما لابن تيمية ، رحمه الله تعالى ، حول معنى قوله تعالى ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾(٥٥) ، حيث قال : (ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر ، فإنه ما من أمة إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل ، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم ، بل كثير منهم من المنتسبين إلى الإسلام ، يحكمون بعاداتهم التي لم ينزلها الله ، كسواليف البادية . ويرون أن هذا هو الذي ينبغي الحكم به دون الكتاب والسنة ، وهذا هو الكفر ، فإن كثيرا من الناس أسلموا ، ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التي يأمر بها المطاعون ، فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله ، فلم يلتزموا ذلك ، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار)(٥٦) .

وفي نفس الموضوع يقول شارح العقيدة الطحاوية : (وهنا أمر يجب أن يتفطن له وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة ، وذلك بحسب حال الحاكم ، فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب ، وأنه مخير فيه أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله ، فهذا كفر أكبر)(٥٧) .

ويقول الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾(٥٨) : (ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال ، بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم

(٥٤) عن كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر المكي جـ ١ ص ٢٨ ـــ ٣٠ ، وانظر ايضا كلاما قريبا من هذا في مغني المحتاج جـ ٤ ص ١٣٥ ، ١٣٦ ، حاشية الباجوري جـ ٢ ص ٢٥٧ .

(٥٥) المائدة ـــ الآية ٤٤ .

(٥٦) من منهاج السنة النبوية ـــ انظر : مجموعة التوحيد ص ١٩٣ .

(٥٧) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٥٨) المائدة ـــ الآية ٥٠ .

جنكزخان الذي وضع لهم (الياسق) ، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها ، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت في بنيه شرعا متبعا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، فمن فعل ذلك منهم ، فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير)(٥٩) .

ويقول الشيخ أحمد شاكر تعليقا على كلام ابن كثير السابق : (أقول : أفيجوز — مع هذا — في شرع الله أن يحكم المسلمون في بلادهم بتشريع مقتبس عن تشريعات أوربا الوثنية الملحدة ؟ بل بتشريع تدخله الأهواء والآراء الباطلة ، يغيرونه ويبدلونه كما يشاءون ، لا يبالي واضعه أوافق شرعة الإسلام أم خالفها ؟

إن المسلمين لم يبلوا بهذا قط — فيما نعلم من تاريخهم — إلا في ذلك العهد ، عهد التتار ، وكان من أسوأ عهود الظلم والظلام . ومع هذا فإنهم لم يخضعوا له ، بل غلب الإسلام التتار ، ثم مزجهم ، فأدخلهم في شرعته ، وزال أثر ما صنعوا ، بثبات المسلمين على دينهم وشريعتهم . وبما أن الحكم السيء الجائر كان مصدره الفريق الحاكم إذ ذاك ، لم يندمج فيه أحد من أفراد الأمم الإسلامية المحكومة ، ولم يتعلموه ، ولم يعلموه أبناءهم ، فما أسرع ما زال أثره .

أفرأيتم هذا الوصف القوي من الحافظ ابن كثير — في القرن الثامن — لذاك القانون الوضعي ، الذي صنعه عدو الإسلام جنكزخان ؟ ألستم ترونه يصف حال المسلمين في هذا العصر ، في القرن الرابع عشر ؟ إلا في فرق واحد ، أشرنا إليه آنفا : أن ذلك كان في طبقة خاصة من الحكام ، أتى عليها الزمن سريعا ، فاندمجت في الأمة الإسلامية وزال أثر ما صنعت .

ثم كان المسلمون الآن أسوأ حالا ، وأشد ظلما وظلاما منهم ، لأن أكثر الأمم الإسلامية الآن تكاد تندمج في هذه القوانين المخالفة للشريعة ، والتي هي أشبه شيء بذاك (الياسق) الذي اصطنعه رجل كافر ظاهر الكفر . هذه

(٥٩) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٦٧

القوانين التي يصطنعها ناس ينتسبون للإسلام ، ثم يتعلمها أبناء المسلمين ، ويفخرون بذلك آباء وأبناء ، ثم يجعلون مرد أمرهم إلى معتنقي هذا (الياسق العصري) ويحقرون من يخالفهم في ذلك ، ويسمون من يدعوهم إلى الاستمساك بدينهم وشريعتهم (رجعيا) و (جامدا) إلى مثل ذلك من الألفاظ البذيئة .

بل إنهم أدخلوا أيديهم فيما بقي في الحكم من التشريع الاسلامي ، يريدون تحويله إلى (ياسقهم) الجديد بالهوينا واللين تارة ، وبالمكر والخديعة تارة ، وبما ملكت أيديهم من السلطات تارات ، ويصرحون ، ولا يستحيون ، بأنهم يعملون على فصل الدولة من الدين ! أفيجوز إذن — مع هذا — لأحد من المسلمين أن يعتنق هذا الدين الجديد أعني التشريع الجديد ؟ ...

أو يجوز لرجل مسلم أن يلي القضاء في ظل هذا (الياسق العصري) وأن يعمل به ويعرض عن شريعته البينة ؟ ما أظن أن رجلا مسلما يعرف دينه ، ويؤمن به جملة وتفصيلا ، ويؤمن بأن هذا القرآن أنزله الله على رسوله كتابا محكما لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، وبأن طاعته وطاعة الرسول الذي جاء به واجبة قطعية الوجوب في كل حال — ما أظنه يستطيع إلا أن يجزم غير متردد ولا متأول ، بأن ولاية القضاء في هذه الحال باطلة بطلانا أصليا ، لا يلحقه التصحيح ولا الإجازة ؟

إن الأمر في هذه القوانين الوضعية واضح وضوح الشمس ، هي كفر بواح ، لا خفاء فيه ولا مداورة ، ولا عذر لاحد ممن ينتسب للإسلام — كائنا من كان — فى العمل بها ، أو الخضوع لها أو إقرارها ، فليحذر امرؤ لنفسه ، وكل امرئ حسيب نفسه)[٦٠] .

٣ — ويقول الشيخ أحمد شاكر أيضا فيمن ينكرون حد السرقة : (هذا حكم الله في السارق والسارقة ، قاطع صريح اللفظ والمعنى ، لا يحتمل أي شك في الثبوت ولا في الدلالة . وهذا حكم رسول الله تنفيذا لحكم الله وطاعة أمره ، في الرجال والنساء ، قطع اليد ، لا شك فيه ، حتى ليقول ﷺ « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

(٦٠) عمدة التفسير — اختيار وتحقيق احمد محمد شاكر سنة ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧ م جـ ٤ ص ١٧١ ، ١٧٢ .

فانظروا إلى ما فعل بنا أعداؤنا المبشرون المستعمرون ؟ لعبوا بديننا ، وضربوا علينا قوانين وثنية ملعونة ، نسخوا بها حكم الله وحكم رسوله ، ثم ربوا فينا ناسا ينسبون إلينا ، أشربوا في قلوبهم بغض هذا الحكم ، ووضعوا على ألسنتهم كلمة الكفر : إن هذا حكم قاس لا يناسب هذا العصر الماجن ، عصر المدنية المتهتكة . وجعلوا هذا الحكم موضوع سخريتهم وتندرهم فكان عن هذا أن امتلأت السجون — في بلادنا وحدها — بمئات الألوف من اللصوص ، بما وضعوا في القوانين من عقوبات للسرقة ، ليست برادعة ، ولن تكون أبداً رادعة ، ولن تكون أبداً علاجا لهذا الداء المستشري .

ثم أدخلوا في عقول الطبقة المثقفة ، وخاصة القائمين على هذه القوانين الوثنية ما يسمونه (علم النفس) ، وهو ليس بعلم ولا شبيه به ، بل هو أهواء متناقضة متباينة ، لكل إمام من أئمة الكفر في هذا العلم رأي ينقض رأي مخالفه ، ثم جاءوا في التطبيق يلتمسون الأعذار من علم النفس لكل لص بجسه . ثم زاد الأمر شرا أن يكتب اللصوص أنفسهم كلاما يلتمسون به الأعذار لجرمهم ، وقام المدافعون عنهم المقامات التي توردهم النار : يعلمون أن الجريمة ثابتة ، فلا يحاولون إنكارها ، بل يحاولون التهوين من شأنها ، بدراسة نفسية المجرم وظروفه ! !

ولقد جادلت منهم رجالا كثيرا من أساطينهم ، فليس عندهم إلا أن حكم القرآن في هذا لا يناسب العصر ! ! وأن المجرم إن هو إلا مريض يجب علاجه لا عقابه ، ثم ينسون قول الله سبحانه في هذا الحكم ﴿ **جزآء بما كسبا نكالًا من الله** ﴾[٦١] . هذه العقوبة للتنكيل بالسارقين ، نصا قاطعا صريحا ، فأين يذهب هؤلاء الناس ؟

المسألة عندنا — نحن المسلمين — هي من صميم العقيدة ، ومن صميم الإيمان ، فهؤلاء المنتسبون إلى الإسلام ، المنكرون حد القطع أو الراغبون عنه ، سنسألهم : أتؤمنون بالله ، وبأنه خلق هذا الخلق ؟ فسيقولون : نعم . أفتؤمنون بأنه يعلم ما كان وما يكون ، وبأنه أعلم بخلقه من أنفسهم ، وبما يصلحهم وبما يضرهم ؟ فسيقولون نعم . أفتؤمنون بأنه أرسل رسوله محمدا

---

(٦١) المائدة — الآية ٣٨ .

بالهدى ودين الحق ، وأنزل عليه هذا القرآن من لدنه هدى للناس وإصلاحا لهم في دينهم ودنياهم ؟ فسيقولون : نعم . أفتؤمنون بأن هذه الآية بعينها ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾(٦٢) من القرآن ؟ فسيقولون : نعم . إذن فأنى تصرفون ؟ وعلى أي شرع تقومون ؟ أما من أجاب — ممن ينتسب للإسلام — على أي سؤال من هذه السؤالات بأن : لا ، فقد فرغنا منه وعرفنا مصيره . وقد أيقن كل مسلم من عالم أو جاهل ، مثقف أو أمي ، أن من يقول في شيء من هذا : لا ، فقد خرج من الإسلام وتردى في حمأة الردة . وأما من عدا المسلمين ، ومن عدا المنتسبين للإسلام ، فلن نجادلهم في هذا ، ولن نسايرهم في الحديث عنه ، إذ لم يؤمنوا بمثل ما آمنا ، ولن يرضوا عنا أبدا إلا أن نقول مثل قولهم وعياذا بالله من ذلك .

ولو عقل هؤلاء الناس — الذين ينتسبون للإسلام — لعلموا أن بضعة أيد من أيدي السارقين ، لو قطعت كل عام ، لنجت البلاد من سبة اللصوص ، ولما وقع كل عام إلا بضع سرقات ، كالشيء النادر ، ولخلت السجون من مئات الالوف التي تجعل السجون مدارس حقيقية للتفنن في الجرائم . أو عقلوا لفعلوا . ولكنهم يصرون على باطلهم ، ليرضي عنهم سادتهم ومعلموهم وهيهات)(٦٣) .

٤ — ومن فتاوى العلماء المسلمين حول بعض الطوائف المرتدة عن دين الإسلام أنقل لك جواب ابن تيمية رحمه الله تعالى على سؤال عن طائفة من هذه الطوائف تسمى (النصيرية) فقال : (الحمد لله رب العالمين : هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر من اليهود والنصارى ، بل وأكفر من كثير من المشركين ، وضررهم على أمة محمد ﷺ أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار التتار والإفرنج وغيرهم ، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت ، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه ، ولا بأمر ولا نهي . ولا ثواب ولا عقاب ، ولا جنة ولا نار ، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد ﷺ ولا بملة من

---

(٦٢) المائدة — الآية ٣٨ .

(٦٣) عمدة التفسير جـ ٤ ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

الملل السالفة ، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأولونه على أمور يفترونها ، يدعون أنها علم الباطن وليس لهم حد محدود فيما يدعونه من الإلحاد في أسماء الله تعالى وآياته وتحريف كلام الله تعالى ورسوله عن مواضعه . . .) إلى أن قال : (ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم وهم دائما مع كل عدو للمسلمين ، فهم مع النصارى على المسلمين . ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار ، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى والعياذ بالله تعالى ـــ النصارى على ثغور المسلمين . . . فهؤلاء المحادون لله ورسوله كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها فاستولى النصارى على الساحل ، ثم بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره ، فإن أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك . ثم لما أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى كنور الدين الشهيد وصلاح الدين ، وأتباعهما وفتحوا السواحل من النصارى ، وممن كان بها منهم . وفتحوا أيضا أرض مصر . فإنهم كانوا مستولين عليها نحو مائتي سنة . واتفقوا هم والنصارى ، فجاهدهم المسلمون حتى فتحوا البلاد . . .

ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم . . .

ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين ، تارة يسمون (الملاحدة) وتارة يسمون (القرامطة) وتارة يسمون (الباطنية) وتارة يسمون(الإسماعيلية) وتارة يسمون (الخرمية) وتارة يسمون (المحمرة) وهذه الأسماء منها ما يعمهم ، ومنها ما يخص بعض أصنافهم . . . ولا ريب أن جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات ، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب ، فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين . والصديق وسائر الصحابة بدأوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب . . . وأيضا فضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر أولئك . . . ويجب على كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب ما يقدر عليه من الواجب فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه عن أخبارهم ، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم ، ولا يحل لأحد السكوت عن القيام عليهم بما أمر الله به ورسوله . . . والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب

الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى)[٦٤] .

الاحتياط في تكفير المعينين :

يقول صاحب شرح العقيدة الطحاوية :

(إن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرفة المتضمنة نفي ما أثبته الرسول ، أو إثبات ما نفاه ، أو الأمر بما نهى عنه ، أو النهي عما أمر به ، يقال فيها الحق ، ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص ، ويبين أنها كفر ، ويقال : من قالها فهو كافر ونحو ذلك . . وإنما الشخص المعين إذا قيل : هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر ؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة ، فإنه من أعظم البغي أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ، بل يخلده في النار ، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت[٦٥] . ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدا مخطئا مغفورا ، ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص ، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله ، كما غفر للذي قال (إذا مت فاسحقوني ثم أذروني) ، ثم غفر الله له لخشيته[٦٦] .

لكن هذا التوقف في أمر الآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه في الدنيا ، لمنع بدعته ، وأن نستتيبه ، فإن تاب وإلا قتلناه . ثم إذا كان القول في نفسه كفرا : قيل إنه كفر والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع . . .)[٦٧] .

يتضح لك من هذا الكلام أنه ينبغي الاحتياط في تكفير الأشخاص المعينين ، وهنا أمور هامة ينبغي أخذها بعين الاعتبار عند الكلام عن نواقض الإسلام :

الأول : أن هنالك أمورا كثيرة تتناقض مع الشهادتين ، إما لمنافاتها للإيمان بالله وأما لمناقضتها للإيمان برسول الله ﷺ وما جاء به ، فيجب على كل من يعلمها ويعلم ما يدل عليها من النصوص أن ينبه عليها ، ويحذر منها ، ويفصل

---

(٦٤) أنظر مجموع فتاوى ابن تيمية ــ المجلد ٢٥ ص ١٤٩ وما بعدها .

(٦٥) يقصد ان ذلك من اختصاص الله سبحانه وليس من اختصاص العباد .

(٦٦) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ١٧ ص ٧٢ .

(٦٧) شرح العقيدة الطحاوية : ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .

أنواعها ، وضوابطها بقدر ما أوتي من العلم ، ويبين أدلتها من القرآن والسنة ، فهذا من بيان الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والفاعل ذلك له أجره عند ربه إن أخلص النية .

. الأمر الثاني : إن هذه الأمور المكفرة تختلف في قوة دلالتها على الكفر ، فمنها ما يدل عليه بصريح العبارة لا بما يلزم منه ، ومنها ما يدل على الكفر بما يلزم منه لا بصريح العبارة ، وهذا النوع الثاني منه ما يكون لازمه قريبا ومفهوما بأدنى تأمل ،ومنه ما يكون أبعد من ذلك .

فمن وقع في النوع الأول أمكن الشهادة عليه بالكفر ، ولا يعذر فيه أحد إلا المكره بالمعنى المتقدم ، وفي حدود التلفظ به باللسان دون الاعتقاد به ، وكذلك ما يقترب منه من النوع الثاني ، كمن يدعي أنه إله فإنه يستلزم الشريك لله تعالى ، وإن لم ينف الألوهية عن الله تعالى . ومثله من يدعي إحدى خصائص الألوهية كحق التحليل والتحريم للعباد .

وكمن يقول بقدم العالم ، فإنه يلزم منه القول بأن الله لم يخلق ، ولا تأويل له غير ذلك ، فهو في قوته كالكفر الصريح ، ولا يعذر قائله ، وكمن يصدر عنه الرضا الصريح بالكفر كمن يقول لمن أنكر وجود الله : صدقت ، أو أنك على حق ، فهذا لايقل في دلالته على الكفر من قول المنكر نفسه وقد يكون سبب القوة كثرة صدور أفعال الكفر وأقواله من شخص معين وإقامته عليها ، ومن هذا إقامة الشخص على موالاة الكفار وكثرة حصول أفعالها منه ، فإن من المستحيل عرفا قيام عذر لشخص يقيم طوال حياته أو معظمها على أفعال وأقوال تستلزم الكفر أو الرضى به .

ومن وقع فيما يؤدي إلى الكفر عن طريق النظر إلى ما يلزم منه ، فهذا الذي ينبغي الاحتياط فيه عند تطبيقه على شخص معين ، وتزداد الحاجة إلى الاحتياط كلما كان اللازم بعيدا عن الأمر الذي صدر من ذلك الشخص المعين .

وذلك بأن ينظر إلى الظروف والقرائن الظاهرة القوية الدلالة(٦٨) .

---

(٦٨) أشار إلى هذا المعنى ابن حجر الهيثمي في كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر جـ ١ ص ٢٨ .

وهذا الأمر لا يتأتى في الواقع لعامة الناس وإنما يقدر عليه من ملك وسائل الحكم والقضاء في الدولة الإسلامية .

ونضرب لذلك مثلا : لو أن شخصا ألقى شيئا من القرآن في نجاسة فهذا العمل في حد ذاته وبغض النظر عن الفاعل أجمع الفقهاء على التكفير بسببه لانه يلزم من هذا الفعل تحقير كلام الله والاستخفاف به ، فلو رآه شخص آخر ، فله أن يقول عن هذا العمل أنه كفر ، ولكن لا يستطيع تكفير الشخص المعين الذي فعله حتى يعرف أمرين اثنين على الأقل : أن هذا الشخص يعرف أن ما ألقاه هو القرآن ، ويعرف أن الملقى فيه هو النجاسة ، فإذا علم ذلك كأن أقر بذلك كان الحكم بالكفر ، ولكن قد يكون الشخص أميا لا يدري ما ألقاه ، وقد يكون غير مبصر لا يدري ما ألقاه ولا يدري ما ألقى فيه وعندئذ تكون هذه قرينة ظاهرة على عدم إرادة التحقير ، ويعذر ذلك الشخص المعين .

ومن هنا وجب الاحتياط في تكفير فلان أو فلان إلا أن يصدر منه الكفر الصريح الذي ليس له تأويل معقول سوى الكفر ، مع وجوب التنبيه على جميع الأقوال والأعمال التي يلزم منها الكفر إذا تحققت شروط وانتفت موانع .

الأمر الثالث : أن هنالك حكمين يترتبان على كفر العبد : الأول دنيوي ، وهو استحقاق المرتد في الدنيا جميع ما دلت عليه النصوص الشرعية من الأحكام التي يجب تنفيذها عليه في هذه الحياة الدنيا ، والتي مبناها على ما يصدر عن الإنسان في الظاهر دون النظر إلى مكنونات القلوب ، وذلك كاستحقاق المرتد القتل إن لم يتب والتفريق بينه وبين زوجته وعدم حل ذبيحته ولا إنكاحه وغير ذلك . فهذا من اختصاص العباد في هذه الدنيا ، ويطبقونه على الشخص المعين . وبعض هذه الأحكام يختص بالإمام كالإستتابة والقتل .

والحكم الثاني هو الحكم الأخروي : وهو استحقاق المرتد للخلود في النار ، فهذا الحكم يختص بإصداره وتنفيذه على فلان وفلان وفلان ، ممن يستحقونه ، أحكم الحاكمين سبحانه وتعالى . ونحن لا نقدر عليه في الحياة الدنيا ، ولا نعلمه بخصوص شخص معين ، وليس من اختصاص العباد أصلا ، فليس لأحد في هذه الدنيا أن يدعي أنه يعرف مقعد شخص معين في الجنة ، أو

في النار ، اللهم إلا من أعلمهم الله بذلك من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، كمن بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة ، وهم العشرة من الصحابة ، الذين شهد لهم الرسول عليه الصلاة والسلام بالجنة ، وكمن أخبر عنهم الله في كتابه ، أو شهد الرسول أنهم من أهل النار ، كأبي لهب الذي نزل فيه قرآن يدل على ذلك .

نعم لنا أن نحكم بصورة إجمالية ، فنقول : من كفر بالله أو ارتد عن دينه خلد في النار ، وحرمت عليه الجنة ، وهذا هو الحد الذي يجب على المسلم أن يقف عنده ، وإلا كان باغيا ومعتديا ، كما قال شارح العقيدة الطحاوية فيما تقدم . وكما قال الطحاوي رحمه الله « ولا ننزل أحدا منهم جنة ولا نارا »[٦٩] .



(٦٩) العقيدة الطحاوية مع شرحها ، ص ٤٢٦

خاتمـــــة

في

حكم أهل المعاصي

اقتراف المعاصي بمفرده لا يخرج من دين الله :

لقد تقدم قول الطحاوي رحمه الله تعالى : (ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ولا نقول : لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله) .

ويقول الإمام النووي رحمه الله تعالى : (واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف ، أن من مات موحدا دخل الجنة قطعاً على كل حال ، فإن كان سالما من المعاصي كالصغير والمجنون ، والذي اتصل جنونه بالبلوغ والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي ، إذا لم يحدث معصية بعد توبته والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلا ، فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار أصلا لكنهم يردونها على الخلاف المعروف في الورود ، والصحيح أن المراد به : المرور على الصراط ، وهو منصوب على ظهر جهنم ، أعاذنا الله منها ، ومن سائر المكروه . وأما من كانت له معصية ، ومات من غير توبة ، فهو في مشيئة الله تعالى : فإن شاء عفا عنه ،وأدخله الجنة أوّلَا ، وجعله كالقسم الأول ، وإن شاء عذبه القدر الذي يريده سبحانه وتعالى ، ثم يدخله الجنة ، فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ، ولو عمل من المعاصي ما عمل ، كما أنه لا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل . هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة . وقد

تظاهرت أدلة أهل الكتاب والسنة وإجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة . وتواترت بذلك نصوص تحصل العلم القطعي . فإذا تقررت هذه القاعدة حمل عليها جميع ما ورد من أحاديث الباب[1] ، وغيره . فإذا ورد حديث في ظاهره مخالفة وجب تأويله عليها ، ليجمع بين نصوص الشرع)[2] .

فمن مات على الإيمان ، وتشهد مخلصا من قلبه بالشهادتين ، فمآله دخول الجنة وعدم التخليد في النار مهما ارتكب من المعاصي ، إذا لم يستحلها ، أو ينكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة ، أو يقع منه بعض ما يؤدي إلى نقض الشهادتين مما تقدم تفصيل أنواعه ، فمجرد فعل المعصية لا يدل على نقض الشهادتين ولا يكون سببا للتخليد في النار .

ويدل على هذا الأصل أحاديث كثيرة ، صرحت بأن الجنة هي مصير كل من شهد الشهادتين ، مخلصا مصدقا بقلبه لما يدلان عليه من التوحيد ، وتصديق الرسول ﷺ في كل ما جاء به . وبعض هذه الأحاديث صرح بأن المعاصي والكبائر وحدها لا تمنع من دخول الجنة في المآل ، وإن عذب المؤمن بسببها . ومن هذه الأحاديث :

١ ــ عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)[3] .

٢ ــ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبدٌ غيرُ شاك فيهما إلا دخل الجنة)[4] .

---

(١) وهو الباب الذي عنون له النووي بقوله (باب ، الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا) .

(٢) انظر ، شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١ ص ٢١٧ ، وذكر مثل هذا في نفس الجزء ص ٢٢٠ .

وانظر ايضا ، كلاما مشابها لابن تيمية في الفرقان من مجموعة التوحيد ص ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

(٣) صحيح مسلم مع شرح النووي جـ ١ ص ٢١٨ .

(٤) صحيح مسلم مع شرح النووي جـ ١ ص ٢٢٤

٣ ـــ وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق ، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء) وفي رواية : (أدخله الجنة على ما كان من عمل)(٥) .

٤ ـــ وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا)(٦) .

٥ ـــ وقال رسول الله ﷺ : (يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ، ثم يقول الله تعالى : أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان)(٧) .

٦ ـــ وعن المعرور بن سويد قال : سمعت أبا ذر يحدث عن النبي ﷺ أنه قال : (أتاني جبريل عليه السلام فبشرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن سرق ، قال : وإن زنى وإن سرق)(٨) .

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث : (وأما حكمه ﷺ على من مات مشركاً بدخول النار ، ومن مات غير مشرك بدخول الجنة فقد أجمع عليه المسلمون فأما دخول المشرك النار فهو على عمومه ، فيدخلها ويخلد فيها ، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني ، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة . ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادا وغيره ، ولا بين من خالف ملة الإسلام ، وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك ، وأما

---

(٥) صحيح مسلم مع شرح النووي جـ ١ ص ٢٢٧ ، واخرجه البخاري في كتاب احاديث الانبياء .

(٦) صحيح مسلم مع شرح النووي جـ ٢ ص ٢ .

(٧) متفق عليه واللفظ للبخاري ـــ انظر صحيح البخاري جـ ١ ص ٦١ وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ٣ ص ٣٦ .

(٨) متفق عليه واللفظ لمسلم جـ ٢ ص ٩٤ ، وانظر صحيح البخاري في كتاب الجنائز .

دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به ، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولا ، وإن كان صاحب كبيرة مات مصرا عليها فهو تحت المشيئة ، فإن عفي عنه دخل أولا ، وإلا عذب ثم أخرج من النار وخلد في الجنة . . . وأما قوله ﷺ « وإن زنى وإن سرق » فهو حجة لمذهب أهل السنة إن أصحاب الكبائر لا يقطع لهم بالنار وأنهم إن دخلوها أخرجوا منها ، وختم لهم بالخلود في الجنة)[٩] .

وأما الأحاديث التي أشار إليها النووي فيما تقدم بقوله : (فإذا ورد حديث في ظاهره مخالفة ــ اي للقاعدة السابقة ــ وجب تأويله عليها ، ليجمع بين نصوص الشرع)فهي عدة أنواع : نوع منها ظاهره نفي الإيمان عمن ارتكب بعض المعاصي . ونوع فيه البراءة من النبي ﷺ لمن ارتكب بعض المعاصي ، ونوع فيه تسمية لبعض المعاصي كفرا وشركا[١٠] . ونذكر لك من هذه الأحاديث ما يلي :

١ ــ قوله ﷺ : (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)[١١] .

٢ ــ وقوله ﷺ : (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)[١٢] .

٣ ــ وقوله : (من حلف بغير الله فقد أشرك)[١٣] .

٤ ــ وقوله : (اثنتان من الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب

---

(٩) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ٢ ص ٩٧ .

(١٠) رسالة الايمان لابي عبيد القاسم بن سلام مطبوعة مع رسائل اخرى ص ٨٤ .

(١١) متفق عليه ــ انظر ، صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١ ص ٩٦ ، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٥٤ .

(١٢) متفق عليه ــ انظر ، صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ١ ص ١٧٥ . وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٥٥ .

(١٣) اخرجه احمد والترمذي والحاكم في المستدرك عن ابن عمر . انظر ، الفتح الرباني جـ ١٤ ص ١٦٤ ــ ١٦٦ وصحيح الترمذي بشرح ابن العربي جـ ٣ ص ١٨ والمستدرك جـ ١ ص ١٨ .

والنياحة على الميت)[١٤]

٥ ــ وقوله : (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، والتوبة معروضة بعد)[١٥] .

٦ ــ وقوله : (من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا)[١٦] .

٧ ــ وقوله عليه الصلاة والسلام : (ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية)[١٧] .

ولهذه الأحاديث نظائر أخرى . ولم يحملها على ظاهرها إلا طائفة الخوارج الذين كفروا مرتكب الكبيرة .

وأما أهل السنة فموقفهم منها جميعها تأويلها بما يتفق مع القاعدة السابقة .

وهذا الموقف هو القدر المشترك بينهم ، ولكن اختلفت مذاهبهم في التأويل : فمنهم من أولها بأن المقصود بها كفر النعمة ، وليس الكفر المخرج من الدين ، ومنهم من أولها بأنها محمولة على التغليظ والترهيب . ومنهم من أولها بأن المقصود استحلال ما ذكر فيها من المعاصي ، وأبقي الكفر المنسوب إلى أهلها على حقيقته ، فمن استحل شيئا مما ذكرته تلك الأحاديث كان كافرا مرتدا . ومنهم من نحى منحى آخر ، فأول كل حديث تأويلا متفقا مع القاعدة السابقة المقررة عند أهل السنة (وهي أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار) ، فلم يلتزم هؤلاء تأويلا عاما شاملا لجميع هذه الأحاديث . ومنهم من أولها بأن

---

(١٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٥٧ .

(١٥) متفق عليه واللفظ لمسلم ــ انظر صحيح البخاري في كتاب الاشربة ، صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٤٥ .

(١٦) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ١٠٨ .

(١٧) متفق عليه واللفظ لمسلم ــ انظر صحيح البخاري في كتاب الجنائز ، وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ١٠٩

المقصود بها بيان الأعمال والأقوال التي هي من ثمرات الكفر لا من ثمرات الإيمان ، وأن الإيمان لا يقتضيها ، وإنما يقتضي البعد عنها[١٨] .

يقول الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام ، رحمه الله تعالى بعد أن ذكر بعض التأويلات السابقة ، وضعفها : (وإن الذي عندنا في هذا الباب كله أن المعاصي والذنوب لا تزيل إيمانا ولا توجب كفرا ، ولكنها إنما تنفي من الإيمان حقيقته وإخلاصه الذي نعت الله به أهله ، واشترطه عليهم في مواضع من كتابه ، فقال سبحانه : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** ﴾[١٩] وقال : ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾[٢٠] . وقال ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون . اؤلئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾[٢١] . قال أبو عبيد : فهذه الآيات التي شرحت وأبانت شرائعه المفروضة على أهله ، ونفت عنه المعاصي كلها ، ثم فسرته السنة بالأحاديث التي فيها خلال الإيمان . فلما خالطت هذه المعاصي هذا الإيمان المنعوت بغيرها ، قيل : ليس هذا من الشرائط التي أخذها الله على المؤمنين ولا الإمارات التي يعرف بها أهل الإيمان ، فنفت عنهم حينئذ حقيقته[٢٢] ،ولم يزل عنهم اسمه ، فإن قال قائل : كيف يجوز أن يقال : ليس بمؤمن ، واسم الإيمان

---

(١٨) انظر تفصيل بعض هذه التأويلات في رسالة الايمان لابي عبيد القاسم بن سلام مع عدة رسائل ص ٨٤ وما بعدها .

(١٩) التوبة ــ الآيتان ١١١ ــ ١١٢ .

(٢٠) المؤمنون ــ الآيات١ ــ ١١ .

(٢١) الانفال ــ الآيات ٢ ــ ٤ .

(٢٢) يقصد ، اخلاصه وصفاءه ، اي حقيقته التي لم تختلط بشيء من المعاصي .

غير زائل عنه ؟ قيل : هذا كلام العرب المستفيض عندنا . غير المستنكر في إزالة العمل عن عامله إذا كان عمله على غير حقيقته ، ألا ترى إنهم يقولون للصانع إذا كان ليس بمحكم لعمله : ما صنعت شيئا ولا عملت عملا . وإنما وقع معناها هنا على نفي التجويد ، لا على الصنعة نفسها ، فهو عندهم عامل بالاسم ، وغير عامل في الإتقان حتى تكلموا به فيما هو أكثر من هذا ، وذلك كرجل يعق أباه ، ويبلغ منه الأذى ، فيقال ما هو بولد ، وهم يعلمون أنه ابن صلبه ، ثم يقال مثله في الأخ والزوجة . . ثم قال أبو عبيد : وكذلك الأحاديث التي فيها البراءة ، فهي مثل قوله : من فعل كذا وكذا فليس منا ، لا نرى شيئا يكون معناه التبرؤ من رسول الله ﷺ ، ولا من ملته . إنما مذهبه عندنا أنه ليس من المطيعين لنا ، ولا من المقتدين بنا ، ولا من المحافظين على شرائعنا . . .

وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك ووجوبهما بالمعاصي ، فإن معناها عندنا ليست تثبت على أهلها كفرا ولا شركا يزيلان الإيمان عن صاحبه . إنما وجوهها أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون)[٢٣] .

والواقع أن هناك عدة أدلة وقرائن شرعية قاطعة تقتضي تأويل تلك الأخبار ، منها :

أولا : تلك الأحاديث المستفيضة التي تدل على أن أهل الكبائر والمعاصي لا يخلدون في النار ، وإنما يؤول أمرهم إلى الجنة ، إما بعد عذاب مؤقت في النار ، وإما بعد عفو ومغفرة من الله الغفور الرحيم . وقد قدمنا لك بعض هذه الأحاديث . وقد أشير في بعضها إلى كبائر هي أشد في حقيقتها من بعض الأعمال التي وقع تسميتها بالكفر في بعض الأحاديث : فإن الزنا والسرقة أشد من سباب المسلم ومن الطيرة ، ومن النياحة على الميت التي سميت كفرا .

ثانيا : إن تلك الأمور التي وصفت بالكفر في بعض الأحاديث ، لو كانت سببا للردة والخروج من دين الله عز وجل ، لكان حكمها في الدنيا هو

---

(٢٣) انظر رسالة الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٨٩ وما بعدها .

الحكم الذي أجمع عليه المسلمون ، والذي نص عليه رسول الله ﷺ في قوله في الحديث الصحيح (من بدل دينه فاقتلوه)[٢٤] . وكذلك وجدنا الله سبحانه وتعالى حكم في السارق بقطع اليد ، وفي الزاني والقاذف بالجلد ، ولو كان الذنب يكفر صاحبه ما كان الحكم على هؤلاء إلا القتل . فلو كانوا كفارا لما كانت عقوباتهم القطع والجلد ، ولما قبل عفو ولي المقتول عن القاتل ، لأن المرتد لا يقبل فيه العفو من أحد في الدنيا . ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتلون ، بل يقام عليهم الحدود ، فدل ذلك على أنهم ليسوا مرتدين[٢٥] .

ثالثا : أننا نجد في القرآن نصوصا جعل الله سبحانه فيها مرتكب الكبيرة من المؤمنين ، وأثبت له صفة الإيمان ، وأخوة الإيمان[٢٦] ، فقد قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى** ﴾ إلى أن قال سبحانه : ﴿ **فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف** ﴾[٢٧] ، فلم يخرج سبحانه القاتل من الذين آمنوا وجعله أخا لولي القصاص ، والمراد أخوة الدين بلا ريب[٢٨] .

وكذلك قال تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ الى أن قال : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم** ﴾[٢٩].

أهل السنة يثبتون للمعاصي عقوبتها المنصوص عليها :

وإذا كان أهل السنة يقررون بأن المعاصي من كبائر وذنوب لا توقع صاحبها في الردة ، إن لم تقترن بسبب من أسباب الكفر ، فانهم لا يقولون : لا

---

(٢٤) اخرجه البخاري عن ابن عباس في كتاب الجهاد .

(٢٥) انظر رسالة الايمان لابي عبيد القاسم بن سلام ص ٨٩ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦١ .

(٢٦) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦١ ، العقيدة الواسطية مع شرحها لمحمد خليل هراس ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٢٧) البقرة ــ الآية ١٧٨ .

(٢٨) شرح العقيدة الطحاوية ٣٦١ .

(٢٩) الحجرات ، الآيتان ٩ ، ١٠ .

يضر مع الإيمان معصية ، وهو ما قالته فرقة تسمى (المرجئة) ، فإنهم ادعوا أن الذنب لا يضر صاحبه أبدا ما دام مؤمنا . وهذا قول مخالف لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد أخبر الشارع عن العقوبات الأخروية لكثير من المحرمات والمعاصي .

وأما أهل السنة فيرون أن فعل المعاصي يترتب عليه العذاب والعقاب الذي توعد الله به على فعلها ، في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، وأنها تؤثر على الإيمان ، من حيث زيادته ونقصه ، لا من حيث بقاؤه وذهابه ، بل قد يؤدي الإكثار من مقارفة المعاصي إلى الوقوع في الكفر والردة ، بإنكار بعض ما جاء به الرسول ﷺ ، لتبرير مقتضيات الهوى والشهوة . ولأن اتباع الشهوات واقتراف الذنوب والمعاصي يميت القلب إذا كثر ، فيغدو يؤول ويبرر لصاحبه كل ما يفعله ، حتى يوقعه في استحلال المعاصي ، فيؤدي بصاحبه إلى الكفر ، والعياذ بالله .

وشبهة (المرجئة) أنها حملت ظواهر النصوص المتقدمة الدالة على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ، كقوله ﷺ : (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)[٣٠] ، فظنوا أن دخوله الجنة يقتضي عدم عذابه ولكن لا تلازم بينهما ، فقد يعذب المؤمن العاصي بما شاء الله أن يعذب ، ثم يدخله الجنة في المآل[٣١] . وربما تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات** ﴾[٣٢] .

والحق أن هذه الآية نزلت في حق من مات من الصحابة رضوان الله عليهم ، قبل تحريم الخمر ، حيث لم يكونوا مكلفين باجتنابها قبل تحريمها ، ويدل على ذلك ما ورد في سبب نزولها ، فقد ورد أن قدامة بن عبد الله شرب الخمر بعد تحريمها وطائفة ، وتأولوا قوله تعالى ﴿ **ليس على الذين**

---

(٣٠) صحيح مسلم مع شرح النووي جـ ١ ص ٢١٨

(٣١) شرح النووي على صحيح مسلم جـ ١ ص ٢١٩ .

(٣٢) المائدة ــ الآية ٩٣ .

آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصلحات ﴾ . فلما ذُكر ذلك لعمر بن الخطاب رضي الله عنه اتفق هو وعلي ابن أبي طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا ، وإن أصروا على استحلالها قتلوا ، وقال عمر لقدامة : أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر . وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب أن الله سبحانه ، لما حرم الخمر ، وكان تحريمها بعد وقعة أحد ، قال بعض الصحابة : فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ فانزل الله هذه الآية وبين فيها أن من طعم الشيء في الحال التي لم يحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين الصالحين(٣٣) .

الكبائر :

ذلك هو حكم المعاصي جميعا ، صغيرة كانت أم كبيرة : حذر الله ورسوله ﷺ من الوقوع فيها ، فيجب على المؤمن أن يتزود دائما بتقوى الله ، ويكثر من هذا الزاد ، ويجتنب محارم الله ، ويقف عند حدوده ، ولا يتساهل فيقول : هذه صغيرة فإن الله سبحانه وتعالى يقول : **﴿ من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا﴾**(٣٤) . وقال رسول الله ﷺ : (إن المذنب إذا أذنب نكتت نكته سوداء في قلبه ، فإن تاب واستغفر صقل قلبه ، وإن لم يتب زادت حتى تعلو قلبه)(٣٥) ، أي تغشيه وتغطيه تلك النكتة السوداء ، وهذا هو الران الذي ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه فقال : **﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾**(٣٦) .

وقد قال بعض العلماء : لا تنظر إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظر من عصيت . وقال الحسن البصري : ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة(٣٧) ،

(٣٣) انظر ، تفسير القرطبي جـ ٦ ص ٢٩٣ ، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

(٣٤) النساء الآية ١٢٣ .

(٣٥) رواه ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه — انظر ، صحيح الترمذي بشرح ابن العربي ، جـ ١٢ ص ٢٣٤ ، وقد قال عنه الترمذي ، حسن صحيح ، وسنن ابن ماجه جـ ٢ ص ١٤١٨ .

(٣٦) المطففين — الآية ١٤

(٣٧) الزواجر عن اقتراف الكبائر جـ ١ ص ١٢ .

ويؤيده قول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح : (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم)(٣٨) ، فانظر كيف أتى عليه الصلاة والسلام بالاستطاعة في جانب المأمورات ، ولم يأت بها في جانب المنهيات ، إشار إلى عظيم خطرها ، وقبيح وقعها ، وأنه يجب بذل الجهد واستفراغ الوسع في الابتعاد عنها . قال الفضيل بن عياض : بقدر ما يصغر الذنب عندك يعظم عند الله ، وبقدر ما يعظم عندك يصغر عند الله . وقال السلف : المعاصي بريد الكفر(٣٩) . ذلك أن كثرتها تقسي القلب فيخرج منه كل خير ، فيرتكب ما أراد ، ويفعل ما أحب ، فيتخذ الشيطان وليا من دون الله ، فيضله ويغويه ويصده ولا يرضى منه بأقل من الكفر ما وجد إليه سبيلا .

ومع هذا فإنه لا شك أن الله سبحانه وتعالى قد شدد على بعض المعاصي ، وتوعد عليها وهدد من يفعلها بأشد العقاب . وكذلك الرسول ﷺ أخبر عن بعض المعاصي أنها من الموبقات ، أي المهلكات ، وذكر شيئا منها في عدد من الأحاديث الصحيحة وسماها الكبائر ، من هذه الأحاديث :

١ ـ عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثا) : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور أو قول الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت(٤٠) .

٢ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : يا رسول الله : وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات)(٤١) .

---

(٣٨) اخرجه البخاري ومسلم . فتح الباري جـ ١٧ ص ٢١ ، مطبعة الحلبي . وصحيح مسلم بشرح النووي جـ ٥ ص ١٩

(٣٩) الزواجر عن اقتراف الكبائر جـ ١ ص ١٢ .

(٤٠) صحيح مسلم مع شرح النووي جـ ٢ ص ٨١ ، ٨٢ وأخرج البخاري نحوه عن أنس في كتاب الديات .

(٤١) صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٨٢ ، ٨٣ . وأخرجه البخاري في كتاب الوصايا

٣ ــ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (من الكبائر شتم الرجل والديه ، قالوا : يا رسول الله : وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال نعم ، يسب أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه ، فيسب أمه)(٤٢) .

وهنالك أحاديث أخرى فيها ذكر بعض المعاصي ، وتسميتها بالكبائر . والواقع أنه ليس في الأحاديث حصر لها في عدد مذكور(٤٣) . ولعل عدم حصرها في عدد معين مقصود لحكمة حث المؤمنين على اجتناب المعاصي كلها ، خشية أن يكون بعض ما يرتكبه العبد من الكبائر ، ومع هذا فقد ذهب جماهير السلف والخلف إلى انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر ، ولا شك أن في كل معصية مخالفة لله تعالى في أمره أو نهيه . ومخالفة الله عز وجل قبيحة جدا بالنسبة لجلال الله تعالى ، ولكن بعض المعاصي أخف من بعض .

تعريف الكبيرة ومعيارها :

هذا وقد اختلفت عبارات العلماء في تعريف الكبيرة ، وتمييزها عن الصغيرة(٤٤) . ولكن كثيرا منهم يرجح أن الكبيرة هي كل معصية يترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب ، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن البصري رحمه الله تعالى(٤٥) . وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله : إن كل معصية يقدم المرء عليها من غير استشعار خوف وحذار وندم ، كالمتهاون بارتكابها والمتجريء عليها اعتياديا ، فما أشعر بهذا الاستخفاف والتهاون فهو كبيرة ، وما يحمل على فلتات اللسان والنفس وفترة مراقبة التقوى ولا ينفك عن تندم يمتزج به تنغيص التلذذ بالمعصية ، فهذا لا يمنع العدالة ، وليس بكبيرة(٤٦) .

---

(٤٢) متفق عليه واللفظ لمسلم . ، انظر ، صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٢ ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٤٣) شرح النووى على صحيح مسلم ج ٢ ص ٨٤ .

(٤٤) انظر اقوالهم في ذلك في كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر جـ ١ ص ٤ وما بعدها . وشرح النووي على صحيح مسلم جـ ٢ ص ٨٥ وما بعدها .

(٤٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤١٨ وشرح النووي على صحيح مسلم جـ ٢ ص ٨٥ .

(٤٦) نقله عن الغزالي النووي في شرحه على صحيح مسلم جـ ٢ ص ٨٥ .

ومن المستحسن في هذا المقام أن نثبت للأخ القارىء كلاما حسنا معقولا في التمييز بين الصغيرة والكبيرة للإمام الشيخ العز بن عبد السلام في كتابه (القواعد) فقد قال :

(اذا أردت معرفة الفرق بين الصغائر والكبائر فاعرض مفسدة الذنب على مفاسد الكبائر المنصوص عليها ، فإن نقصت عن أقل مفاسد الكبائر — أي المنصوص عليها فهي من الصغائر ، وإن ساوت أدنى مفاسد الكبائر ، أو أربت عليها ، فهي من الكبائر ، فمن شتم الرب أو الرسول ﷺ ، أو استهان بالرسل أو كذب واحدا منهم . . . أو ألقى المصحف في القاذورات فهذا من أكبر الكبائر ، ولم يصرح الشرع بأنها كبيرة . وكذلك لو أمسك امرأة محصنة لمن يزني بها ، أو مسلما لمن يقتله ، فلا شك أن مفسدة ذلك أعظم من مفسدة أكل مال اليتيم مع كونه من الكبائر . وكذلك لو دل الكفار على عورة المسلمين مع علمه بأنهم يستأصلونهم بدلالته ، ويسبون حرمهم وأطفالهم ويغتنمون أموالهم ويزنون بنسائهم ويخربون ديارهم ، فإن تسببه إلى هذه المفاسد أعظم من توليته يوم الزحف بغير عذر مع كونه من الكبائر . وقد نص الشارع على شهادة الزور وأكل مال اليتيم من الكبائر ، فإن وقعا في مال خطير فهذا ظاهر ، وإن وقعا في مال حقير ، فيجوز أن يجعل من الكبائر فطاما عن هذه المفاسد ، كما جعل شرب قطرة من الخمر من جملة الكبائر ، وإن لم يتحقق المفسدة فيه . . . والوقوف على تساوي المفاسد وتفاوتها عزة ولا يهتدي إليها إلا من وفقه الله تعالى ، والوقوف على التساوي أعز من الوقوف على التفاوت . ولا يمكن ضبط المصالح والمفاسد إلا بالتقريب[47]ثم قال : (وقد ضبط بعض العلماء الكبائر بأن قال : كل ذنب قرن به وعيد أو حد أو لعن فهو من الكبائر . . . فقتل المؤمن كبيرة ، لأنه اقترن به الوعيد واللعن . والمحاربة والزنا والسرقة والقذف كبائر ، لاقتران الحدود بها . وعلى هذا كل ذنب علم أن مفسدته كمفسدة ما قرن به الوعيد أو اللعن أو الحد أو أكبر من مفسدته فهو كبيرة)[48] .

---

(٤٧) قواعد الاحكام جـ ١ ص ٢٣ ـ ٢٤

(٤٨) المرجع السابق .

ذكر بعض الكبائر :

ومن هنا تعلم أيها الأخ القاريء أن ما ذكره العلماء من ضوابط للتمييز بين الصغائر والكبائر إن هو إلا على وجه التقريب ، وتعلم أن النصوص وردت بالتعريف ببعض الكبائر ، وأخرى عرفت الصغائر . وهناك أنواع أخرى من المعاصي مشتملة على صغائر وكبائر ، فواجبك أن تجتهد في اجتناب كل معصية ، وأن تبذل كل جهد في توقي ما نص الشارع على أنه كبيرة ، وتضاعف جهدك في ذلك . وكذلك فيما رجح العلماء أنه منها . ولا تستصغرن معصية مهما كانت ، ولا تتهاون فيها ، ولا تصرن على ذنب مهما كان صغيرا ، فإن العلماء نصوا على أن الإصرار على الصغيرة بمثابة ارتكاب الكبيرة . وحد الإصرار أن يتكرر فعل الصغيرة تكرارا يشعر بقلة مبالاة الشخص بدينه(٤٩) . وكذلك الإكثار من فعل الصغائر ولو كانت مختلفة لا يقل عن ارتكاب كبيرة من الكبائر ، لأن هذا الإكثار من فعل الصغائر يدل على عدم المبالاة بالدين ، وعلى استصغار مخالفة الرب عز وجل .

وفي هذا المقام أذكر جملة من الكبائر التي ذكرها ابن حجر الهيثمي في كتابه القيم (الزواجر عن اقتراف الكبائر) فمنها :

الشرك الأكبر أعاذنا الله منه ، والشرك الأصغر وهو الرياء ، والغضب بالباطل والحقد والحسد ، والكبر والعجب والخيلاء ، والغش ، والنفاق ، والبغي ، والإعراض عن الخلق استكباراً واحتقاراً لهم ، والطمع ، وسخط المقدور ، والنظر إلى الأغنياء وتعظيمهم لغناهم ، والاستهزاء بالفقراء لفقرهم ، والتنافس في الدنيا ، والمباهاة بها ، والتزين للمخلوق بما يحرم التزين به ، والمداهنة ، وحب المدح بما لا يفعله ، والحمية لغير دين الله ، وهوان حقوق الله تعالى وأوامره على الإنسان ، واتباع الهوى والإعراض عن الحق ، وسوء الظن بالمسلم ، وعدم قبول الحق إذا جاء بما لا تهواه الأنفس ، أو جاء على يد من تكرهه ، وفرح العبد بالمعصية ، والإصرار عليها ، ونسيان الله تعالى والدار الآخرة ، والأمن من مكر الله ، والاسترسال في المعاصي ، وسوء الظن بالله تعالى ، والقنوط من رحمته ، وتعلم العلم للدنيا ، وكتم العلم ، وعدم العمل

---

(٤٩) قواعد الاحكام جـ ١ ص ٢٧ .

بالعلم وتعمد الكذب على الله تعالى أو على رسوله ﷺ ، وسن السنة السيئة في الناس وترك السنة النبوية ، وعدم الوفاء بالعهد ، ومحبة الظلمة والفسقة ، وبغض الصالحين ، وأذيتهم ، والكلمة التى تعظم مفسدتها ، وينتشر ضررها مما يسخط الله ، وترك الصلاة على رسول الله ﷺ عند سماع ذكره بسبب اشتغال بلهو محرم ، والرضا بالكبيرة والإعانة عليها ، وملازمة الشر والفحش حتى يخشاه الناس ، ونسيان القرآن ، والجدال والمراء وهو المخاصمة والمحاججة وطلب القهر والغلبة في القرآن أو الدين ، وعدم التنزه من البول في البدن أو الثوب ، وكشف العورة لغير ضرورة ووطء الحائض ، وتعمد ترك الصلاة وتعمد تأخير الصلاة عن وقتها ، أو تقديمها عليه من غير عذر كسفر أو مرض وإمامة الإنسان لقوم يعلم أنهم كارهون لإمامته وقطع الصف في الصلاة ، وعدم تسويته ، ومسابقة الإمام ، واتخاذ القبور مساجد ، وإيقاد السرج عليها واستلامها ، وسفر المرأة وحدها ، وترك السفر أو الرجوع منه تشاؤما وتطيرا ، وترك صلاة الجمعة مع الجماعة من غير عذر ، وتخطي الرقاب يوم الجمعة ، ولبس الرجل للحرير الخالص بغير عذر شرعى ، وتحليه بالذهب أو الفضة في غير الخاتم ، وتشبه الرجال بالنساء فيما يختص به عرفا من لباس أو كلام أو حركة أو نحوها ، وكذلك عكسه اي تشبه النساء بالرجال ، والخيلاء والتبختر في المشي ، ولطم الخد ، وشق الجيب والنياحة ، والدعاء بالويل ، أو الثبور عند وقوع المصيبة ، وترك الزكاة ، وتأخيرها بعد وجوبها لغير عذر شرعي ، وشح الدائن على مدينه المعسر مع علمه بإعساره ، والمن بالصدقة ، ومنع فضل الماء عن المحتاج والمضطر ، وترك صوم يوم من أيام رمضان ، والإفطار فيه بغير عذر من سفر أو مرض ، وتأخير قضاء ماتعدى بفطره من رمضان ، وصوم العيدين وأيام التشريق ، وترك الحج مع القدرة عليه إلى الموت ، وشرب المسكر أو أكله مهما كان خمرا أو حشيشة أو أفيونا ، وأكل لحم الخنزير أو الميتة ، وأكل الربا أو إطعامه وكتابته وشهادته ، والسعي فيه والإعانة عليه ، وأكل المال بالبيوعات الفاسدة وسائر وجوه الكسب المحرم ، والاحتكار والغش في البيع ، وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب ، وتطفيف الميزان ونحوه ، ومطل الغني بعد المطالبة من غير عذر ، وأكل مال اليتيم ، وإنفاق المال في المحرمات ، والبناء فوق الحاجة للخيلاء ، وخيانة الشريك والوكيل ، والغصب وهو الاستيلاء

على مال الغير ظلما ، وتأخير أجر الأجير ، أو منعه منه بعد إتمام عمله ، والاستيلاء على مال مباح ومنعه ابن السبيل ، وجحد الأمانات كالوديعة ، والعين المرهونة أو المستأجرة ، وغير ذلك .

وقد ذكر ابن حجر غير هذه الأمور ، فيحسن الاطلاع على كتابه(٥٠) .

أسباب سقوط العقوبة عن العصاة :

وإذا وقع العبد المؤمن في المعصية فإن الله سبحانه وتعالى قد فتح لعباده أبواب رحمته ، للخلاص من عقوبة ما يقعون فيه ، إذا أخلصوا واتقوا .

هذا وقد استقرأ بعض العلماء الأسباب التي تسقط العقوبة عن المعاصي في نصوص القرآن والسنة ، ونلخص للأخ القاريء ما خلص إليه شارح العقيدة الطحاوية في هذا الموضوع(٥١) . فقد قال (إن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب ، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة) ، ثم ذكر منها ما يلي :

السبب الأول : التوبة ، فقد قال تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غيا ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحا ، فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا** ﴾(٥٢) . وقال أيضا : ﴿ **إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ، فأولئك أتوب عليهم ، وأنا التواب الرحيم** ﴾(٥٣) .

والتوبة التي تسقط العقوبة هي التوبة النصوح ، وهي الخالصة النابعة من القلب ، لا المقتصرة على النطق باللسان . وهي ما يصحبها الندم على ما فات من المعاصي ، والعزم على عدم العودة إليها ، وعمل الصالحات .

---

(٥٠) انظر ، كتاب الزواجر عن اقتراف الكبائر ، الجزء الأول والثاني . وممن صنف في الكبائر ، وذكر أقسامها وأدلتها الإمام الذهبي في كتاب الكبائر ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب الكبائر أيضا .

(٥١) انظر ذلك بالتفصيل في شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٩٧ — ٣٧١ ، ص ٥١١ — ٥١٧ .

(٥٢) مريم — الآيتان ٥٩ ، ٦٠ .

(٥٣) البقرة — الآية ١٦٠ .

وكون التوبة سببا لغفران الذنوب ، وعدم المؤاخذة بها مما لا خلاف فيه بين الأمة . وليس شيء يكون سببا لغفران جميع الذنوب إلا التوبة ، قال تعالى : ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم** ﴾(٥٤) .

السبب الثاني : الاستغفار ، فقد قال تعالى : ﴿ **وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾(٥٥) والواقع أن الاستغفار يدخل فى معنى التوبة ، فإن الاستغفار طلب مغفرة الذنوب التى وقع فيها العبد ، وهو ما يدخل فى الندم على ما قدم الإنسان ، فإن طلب المغفرة عنوان هذا الندم ، وتزيد التوبة عن الاستغفار أن فى معناها العزم على اجتناب المعاصى فى المستقبل .

السبب الثالث : فعل الحسنات ، فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾(٥٦) .

السبب الرابع : الوقوع في المصائب الدنيوية ، لقوله ﷺ : (ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)(٥٧) .

واعلم أن تكفير الخطايا يكون بسبب وقوع المعصية نفسها ، فإذا صبر المبتلى فاز بثواب جديد فوق تكفير خطاياه ، وإن سخط اكتسب إثما جديدا ، ويبقى تكفير خطاياه بوقوع المصيبة .

السبب الخامس : عذاب القبر .

السبب السادس : أهوال يوم القيامة وشدائده .

السبب السابع : شفاعة من أذن الله لهم بالشفاعة يوم القيامة .

السبب الثامن : عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة . كما قال تعالى : ﴿ **ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾(٥٨) .

---

(٥٤) الزمر — الآية ٥٣ .
(٥٥) الأنفال — الآية ٣٣ .
(٥٦) هود — الآية ١١٤
(٥٧) متفق عليه — انظر رياض الصالحين ص ٣١ .
(٥٨) النساء — الآية ٤٨ ، والآية ١١٦ .

السبب التاسع : دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات .

السبب العاشر : ما يهدى للعبد المؤمن من ثواب صدقة ، أو قراءة أو حج أو نحو ذلك . فقد اتفق أهل السنة على أن الأموات من المؤمنين ينتفعون من سعى الأحياء بأمرين :

الأمر الأول : ما تسبب إليه الميت في حياته ، لما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده)[٥٩] .

الأمر الثانى : دعاء المسلمين واستغفارهم والصدقة والحج ، واختلفوا في العبادات البدنية ، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر .

فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها ، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها .

والدليل على انتفاع الميت بأشياء لم يتسبب فيها قوله تعالى : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾[٦٠] ، فأثنى سبحانه وتعالى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم ، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء .

وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجماعة .

والادعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة ، وكذلك الدعاء له بعد الدفن . وكان رسول الله ﷺ يعلم الصحابة رضوان الله عليهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : (السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية)[٦١] .

ويدل على وصول ثواب الصدقة للميت ما ورد في الصحيحين عن عائشة

---

(٥٩) اخرجه مسلم في صحيحه من حديث ابي هريرة ، والبخاري في الادب .

(٦٠) الحشر ــ الآية ١٠ .

(٦١) أخرجه مسلم ، انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٧ ص ٤٥ .

رضي الله عنها ، أن رجلا أتى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إن أمي افتلتت نفسها ولم توص ، وأظنها لو تكلمت تصدقت ، أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال : نعم[٦٢] ، وقد ورد أكثر من حديث في هذا المعنى .

ويدل على وصول ثواب الصوم ما ورد في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : (من مات وعليه صيام صام عنه وليه)[٦٣] .

ويدل على وصول ثواب الحج ما ورد في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ ، فقالت : إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : حجي عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين ، أكنت قاضيته ؟ أقضوا الله فالله أحق بالوفاء)[٦٤] .

وهذا لا يتناقض مع قوله تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾[٦٥] ، وقوله ﴿ **لها ما كسبت** ﴾[٦٦] ، وقوله : ﴿ **ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾[٦٧] ، لأن الإنسان بدخول الإسلام وارتباطه بذلك مع إخوانه المسلمين برباط الأخوة الإيمانية وبحسن عشرته وإسداء الخير للناس ، وتودده لهم ، يكون ساعيا في حثهم على الدعاء له بعد مماته ، والاستغفار والترحم عليه ، وإهداء ثواب الطاعات له . فكان هذا الكسب أثرا من آثار سعيه . فالقول بانتفاع الميت بما يهدى إليه من إخوانه لا يتعارض مع تلك الآيات الكريمات ، فإنها آيات محكمة تقتضي عدل الله تعالى ، وتقتضي أن لا يعاقب أحد بجرم غيره ، ولا يؤخذ بجريرة غيره ، كما يفعله ملوك الدنيا ، وتقتضي أنه لا يفلح أحد إلا بعمله ، لينقطع طمعه بعمل آبائه وسلفه ومشايخه .

---

(٦٢) متفق عليه واللفظ لمسلم ــ انظر صحيح مسلم بشرح النووي جـ ٧ ص ٨٩ .

(٦٣) متفق عليه ــ انظر صحيح البخاري في كتاب الصوم (باب من مات وعليه صوم) .

(٦٤) أخرجه البخاري . انظر صحيح البخاري مع فتح الباري جـ ٤ ص ٥٢ .

(٦٥) النجم ــ الآية ٣٩ .

(٦٦) البقرة ــ الآية ٢٨٦ .

(٦٧) يس ــ الآية ٥٤ .

إلا أنه يجدر بالملاحظة أن هناك بعض العادات والبدع لا تدخل فيما تقدم . وليس عليها دليل من الشرع ولم يقل بجوازها أحد من العلماء . مثل استئجار قوم يقرأون القرآن ، ويهدونه للميت . فهذا العمل لم يجزه أحد . وإنما اختلف الفقهاء في جواز الاستئجار على تعليم القرآن . وأما الاستئجار لقراءته وإهدائه للميت ، أو الاستئجار لمن يصلي ويصوم ويهدي للميت فهذا لا خلاف في عدم جوازه . ولكن الذي يدخل فيما سبق يقتصر على قراءة القرآن وإهدائها للميت تطوعا بغير أجرة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

* * *

المراجع

مرتبة حسب حروف الهجاء

١ ــ الإتحافات الربانية بشرح الشمائل الترمذية (للترمذى)	أحمد عبد الجواد الدومى الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨١ هـ
٢ ــ اتحاف الكائنات ببيان مذهب السلف والخلف فى المتشابهات	محمود محمد خطاب السبكى مطبعة الاستقامة ، الطبعة الأولى سنة ١٣٥٠هـ
٣ ــ إحياء علوم الدين	الإمام أبو حامد الغزالى طبعة دار الشعب
٤ ــ الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية	عبد العزيز محمد السلمان الطبعة الرابعة ، ١٣٩٠ هـ ــ ١٩٧٠ م
٥ ــ أساس البلاغة	الزمخشــــرى مطابع الشعب ، سنة ١٩٦٠ م
٦ ــ الأسماء والصفات	أبو بكر أحمد بن الحسن بن علي البيهقي مطبعة السعادة
٧ ــ اصول الإيمان	أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب مؤسسة مكة للطباعة والإعلام
٨ ــ أصول السرخسي	أحمد بن أبي سهل السرخسي دار المعرفة للطباعة والنشر ــ بيروت سنة ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣ م
٩ ــ إعلام الموقعين عن رب العالمين	شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية شركة الطباعة الفنية المتحدة ، سنة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م

١٠ ــ أعلام النبوة
علي بن محمد بن حبيب الماوردي
دار الكتاب العربي للطباعة والنشر سنة ١٣٩١ هـ ــ ١٩٦١ م

١١ ــ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان
ابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد سيد كيلاني
مطبعة مصطفى البابى الحلبى
سنة ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م

١٢ ــ إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد
أبو عبد الله محمد بن المرتضى اليماني مطبعة الآداب والمؤيد سنة١٣٨١ هـ

١٣ ــ تبسيط العقائد الإسلامية
حسن محمد أيوب نشر مكتبة الثقافة العربية ، سنة ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م

١٤ ــ التحف في مذاهب السلف
محمد بن علي بن محمد الشوكاني مطبعة الإمام ، مصر

١٥ ــ الترغيب والترهيب من الحديث الشريف
عبد العظيم بن عبد القوي المنذري مطبعة مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٨ م

١٦ ــ تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد
محمد بن اسماعيل الأمير اليمنى الصنعاني

١٧ ــ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن الكريم)
الحافظ عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي طبع دار إحياء الكتب العربية

١٨ ــ تفسير الطبري(جامع البيان عن تأويل آي القرآن)
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق محمود شاكر
دار المعارف بمصر

١٩ ــ تفسير القاسمي (محاسن التأويل)
محمد جمال الدين القاسمي
دار إحياء الكتب العربية

٢٠ ــ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)
أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
مطبعة دار الكتب المصرية

٢١ ــ تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد	الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب منشورات المكتب الاسلامي الطبعة الاولى
٢٢ ــ تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول	عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الديبع الشيباني مطبعة مصطفى البابي الحلبي
٢٣ ــ جامع العلوم والحكم	عبد الرحمن بن أحمد بن حسن بن رجب مطبعة مصطفي البابي الحلبي ، ط ٣ : ١٣٨٢ هـ ــ ١٩٦٢ م
٢٤ ــ الجامع الفريد	عدة رسائل لعدد من المؤلفين الطبعة الثانية
٢٥ ــ جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد	محمد بن محمد بن سليمان الناشر : عبد الله هاشم المدني سنة ١٣٨١ هـ ــ ١٩٦١ م
٢٦ ــ حاشية ابن عابدين	محمد أمين عابدين بن عمر عابدين المطبعة العثمانية
٢٧ ــ حاشية الباجوري على ابن القاسم الغزي	ابراهيم الباجوري مطبعة دار إحياء الكتب العربية
٢٨ ــ الحسنة والسيئة	شيخ الإسلام ابن تيمية مطبوع مع رسالة الرد على الجهمية والزنادقة وكتاب السنة لأحمد بن حنبل وعدة رسائل لابن تيمية . مطبعة السنة المحمدية سنة ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م
٢٩ ــ حياة الصحابة رضي الله عنهم	محمد يوسف الكاندهلوي دار النصر للطباعة ، سنة ١٣٨٩ هـ ــ ١٩٦٩ م

٣٠ ــ **دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين**
محمد بن علان الصديقي
مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٦ م

٣١ ــ **الدين الخالص**
محمود خطاب السبكي
مطبعة السعادة ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٤ م

٣٢ ــ **الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية**
زيد بن عبد العزيز بن فياض
المطبعة اليوسفية ، الطبعة الثانية ، سنة ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٨ م

٣٣ ــ **رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين**
محي الدين أبو زكريا يحي بن شرف النووي
المطبعة اليوسفية ، نشر مكتبة الجمهورية العربية

٣٤ ــ **زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم**
محمد حبيب الله الشنقيطي
مؤسسة الحلبي وشركاه

٣٥ ــ **زاد المعاد في هدى خير العباد**
ابن القيم الجوزية
المطبعة المصرية ومكتبتها

٣٦ ــ **الزواجر عن اقتراف الكبائر**
ابن حجر المكي المعروف بابن حجر الهيثمي
المطبعة المصرية ببولاق

٣٧ ــ **سنن الترمذي بشرح ابن العربي (الجامع الصحيح)**
أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة
مطبعة الصاوى ، الطبعة الأولى

٣٨ ــ **السنن الكبرى**
أحمد بن الحسين البيهقي
مطبعة مجلس دائرة المعارف ــ الهند

٣٩ ــ **سنن ابن ماجه**
محمد بن يزيد القزويني
دار إحياء الكتب العربية

٤٠ ــ سنن النسائي بشرح السيوطي | أحمد بن شعيب النسائي
المطبعة المصرية بالأزهر ، الطبعة الأولى
١٣٥١ هـ ــ ١٩٣٢ م

٤١ ــ سيرة ابن هشام | محمد عبد الملك بن هشام
القاهرة ، كتاب التحرير ، سنة

٤٢ ــ السيرة الحلبية | علي بن برهان الدين الحلبي
مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة
الأولى سنة ١٣٨٤ هـ ــ ١٩٦٤ م

٤٣ ــ السيرة النبوية | أبو الفداء اسماعيل بن كثير ، تحقيق
مصطفى عبد الواحد
مطبعة عيسى البابي الحلبي
سنة ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م

٤٤ ــ شرح البيجوري على الجوهرة (تحفة المريد على جوهرة التوحيد) | ابراهيم البيجوري
المطابع الأميرية ، سنة ١٣٨٨ هـ ــ
١٩٦٨ م

٤٥ ــ شرح السيرة الكبير (لمحمد بن الحسن) | محمد بن أحمد السرخسي ، تحقيق صلاح
الدين المنجد
مطبعة مصر سنة ١٩٥٨ م

٤٦ ــ شرح العقائد النسفية | سعد الدين التفتازاني
مطبعة محمد علي صبيح ، الطبعة الثانية
سنة ١٣٥٨ هـ ــ ١٩٣٩ م

٤٧ ــ شرح العقيدة الطحاوية | تحقيق ومراجعة جماعة من العلماء
المكتب الإسلامي ، الطبعة الرابعة ، سنة
١٣٩١ هـ

٤٨ ــ شرح العقيدة الواسطية (لابن تيمية) | محمد خليل هراس
الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨٦ هـ

٤٩ ــ شرح قصيدة ابن القيم | أحمد بن ابراهيم بن عيسى الشرقي
المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى سنة
١٣٨٢ هـ ــ ١٩٦٢ م

٥٠ ــ شرح ملا علي القاري على الفقه الأكبر لأبي حنيفة	ملا علي بن سلطان محمد القاري الحنفي مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الثانية سنة ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٥ م
٥١ ــ الشريعة	أبو بكر محمد بن الحسن الآجري مطبعة أنصار السنة المحمدية ١٣٦٩ هـ ــ ١٩٥٠ م
٥٢ ــ صحيح البخاري بحاشية السندي	محمد بن اسماعيل البخاري المطبعة العثمانية ، الطبعة الأولى سنة ١٣٥١ هـ ــ ١٩٣٢ م
٥٣ ــ صحيح الجامع الصغير	الشيخ محمد ناصر الدين الألباني المكتب الاسلامي
٥٤ ــ صحيح مسلم بشرح النووي	الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري المطبعة المصرية
٥٥ ــ طريق الوصول إلى العلم المأمول بمعرفة القواعد والضوابط والأصول	مختار من كتب ابن تمية ، جمع عبد الرحمن بن ناصر السعدي مطبعة الإمام ــ مصر
٥٦ ــ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين	ابن قيم الجوزية مطبعة الإمام ــ مصر
٥٧ ــ العقائد الإسلامية	السيد سابق دار النصر للطباعة ، الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٧ م
٥٨ ــ العقائد الإسلامية	نديم الملاح مطبعة دار الأيتام بالقدس
٥٩ ــ عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير	اختار وتحقيق أحمد شاكر دار المعارف بمصر سنة ١٣٧٧ هـ ــ ١٩٥٧ م
٦٠ ــ عيون الأثر في فنون المغازي والسير	ابن سيد الناس نشر مكتبة القدسي ، طبع سنة ١٣٥٦ هـ

٦١ ــ فتح الباري بشرح صحيح البخاري
أحمد بن حجر العسقلاني
المطبعة البهية المصرية ، سنة ١٣٤٨ هـ

٦٢ ــ الفتح الرباني
أحمد بن عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي
الطبعة الأولى ــ مطبعة الفتح الرباني

٦٣ ــ فتح المجيد شرح كتاب التوحيد
الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
طبعة المشهد الحسيني سنة ١٣٨٦ هـ
وطبعة مطبعة الحكومة ، مكة المكرمة
سنة ١٣٨٧ هـ ــ ١٩٦٧ م

٦٤ ــ في ظلال القرآن
سيد قطب
دار احياء التراث العربي ــ بيروت ، الطبعة الخامسة ، سنة ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٧ م

٦٥ ــ الفقه الأكبر
الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي ــ مطبوع مع شرحه لملا علي القاري

٦٦ ــ فيض القدير شرح الجامع الصغير
عبد الرؤوف المناوي
الطبعة الأولى ، سنة ١٣٥٦ هـ ــ ١٩٣٨ م

٦٧ ــ قواعد الأحكام في مصالح الأنام
العز بن عبد السلام
طبع دار الشرق ــ القاهرة ، سنة ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٨ م

٦٨ ــ كبرى اليقينات الكونية
الدكتور محمد سعيد رمضان
دار الفكر للطباعة والنشر ، الطبعة الأولى
سنة ١٣٨٩ هـ ــ ١٩٦٩ م

٦٩ ــ كتاب الإيمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته
أبو عبيد القاسم بن سلام
المطبعة العمومية بدمشق ، وهو مطبوع مع ثلاث رسائل أخرى

٧٠ ــ **كتاب الكبائر**
الشيخ محمد عبد الوهاب
مؤسسة مكة للطباعة والإعلام بالمدينة المنورة

٧١ ــ **كتاب الكبائر**
شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت

٧٢ ــ **كشف الشبهات**
الشيخ محمد بن عبد الوهاب
مطبوع من عدة رسائل أخرى تحت عنوان (المجموعة العلمية السعودية من درر علماء السلف الصالح مطابع دار الثقافة بمكة ، سنة ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤ م

٧٣ ــ **الكواشف الجلية عن معاني الواسطية**
عبد العزيز المحمد السلمان
مؤسسة مكة للطباعة والإعلام

٧٤ ــ **لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة**
عبد الملك الجويني (إمام الحرمين)
تحقيق الدكتورة فوقية محمود
الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٥ هـ ــ ١٩٦٥ م

٧٥ ــ **مبادىء الإسلام**
أبو الأعلى المودودي
نشر مكتبة الشباب المسلم ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٨١ هـ ــ ١٩٦١ م

٧٦ ــ **مجموع فتاوى ابن تيمية**
شيخ الإسلام أحمد بن تيمية
مطابع الرياض ، الطبعة الأولى ، سنة ١٣٨٢

٧٧ ــ **مجموعة التوحيد (وتشتمل على ست وعشرين رسالة)**
شيخا الإسلام أحمد بن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ــ دار العروبة للطباعة ــ قطر

٧٨ ــ **مختصر سنن أبي داود**
الحافظ المنذري
مطبعة أنصار السنة المحمدية سنة ١٣٦٨ هـ ــ ١٩٤٩ م

٧٩ ــ **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**
ابن قيم الجوزية
مطبعة أنصار السنة المحمدية ، سنة ١٣٧٥ هـ ــ ١٩٥٦ م

٨٠ ــ **المستدرك**
محمد بن عبد الله النيسابوري المشهور بالحاكم
مطابع النصر الحديثة

٨١ ــ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**
أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي
المطبعة الأميرية ــ القاهرة . الطبعة الخامسة سنة ١٩٥٦ م

٨٢ ــ **المغني**
أبو محمد عبد الله أحمد بن محمد بن قدامة
مطابع سجل العرب . الطبعة الأولى سنة ١٣٨٩ هـ ــ ١٩٦٩ م

٨٣ ــ **مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج**
الشيخ محمد الخطيب الشربيني
طبع سنة ١٣٧٤ هـ ــ ١٩٥٥ م

٨٤ ــ **منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات**
محمد الأمين الشنقيطي
مؤسسة مكة للطباعة والإعلام

٨٥ ــ **الموطأ**
للإمام مالك بن أنس
كتاب الشعب

٨٦ ــ **المهذب**
أبو اسحاق الشيرازي
مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر

٨٧ ــ **نيل الأوطار**
محمد بن علي بن محمد الشوكاني
مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٣٨٠ هـ ــ ١٩٦١ م

٨٨ ــ **الوحي المحمدي**
محمد رشيد رضا
المكتب الإسلامي ، الطبعة الثامنة

٨٩ ــ **الوفا بأحوال المصطفى**
أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي
مطبعة السعادة . الطبعة الأولى سنة ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٦ م

٩٠ ــ هداية الباري | عبد الرحمن عنبر المصري
شركة مطبعة الرغائب ، الطبعة الثانية
سنة ١٣٤٠ هـ

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

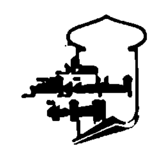
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب
٨٦/٥٤٥٤



مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ ت : ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانئ الأندلسي ت : ٦١٨١٣٧